الفرقان

في

تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

١٩٧٨ م

محمد الصادق

منشورات
مؤسسة الأعلى للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (٤)

إنه تعالى متبارك في ملكه ، دون لعنة ولا نكسة ولا نكبة ، خلاف ملك الخلق ، إلا الملوك الذين هم ظلال الرب في ملكهم ، إلا فيما يجهلون ويعجزون للقصور الذاتي ، فهو تعالى متبارك في كافة شؤون الربوبية خلقا وأمرا : ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ (٧ : ٥٤) ومتبارك في الأمر التشريعي كما التكويني ـ سواء : ﴿تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً﴾ (٢٥ : ١) ففي ملك السماوات والأرض ككلّ وفي كلّ : ﴿تَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما﴾ (٤٣ : ٨٥) ف : ﴿تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

إنه ليس ملكا ومالكا يملك ملكه وملكه ، إنما هما بيده لا سواه ، وهما له لا سواه ، وكل مالك مملوك إلا إياه ، وكل ملك يملك عليه سواه : ﴿قُلِ اللهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ ..﴾ (٣ : ٢٦) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ (١٧ : ١١١).

وفيما إذا يؤتي ملكه من يشاء لا يتحلل هو عنه ، ولا يؤتيه الملك الخاص به : ﴿وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢ : ٢٤٧).

فالملك الحق من الخلق ليس وكيلا عن الله بانعزاله ـ سبحانه ـ عن شيء من الملك ، ولا شريكا له وليا من الذل ، ولا معينا يعينه ـ بعض الشيء ـ في الملك ، وإنما يؤتاه تطبيقا لحكمه العدل بين الخلق ، بشيرا ونذيرا ، دون أن يكون له من الأمر شيء : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (٣ : ١٢٨) ﴿فَتَعالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (٢٣ : ١١٦) هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ..﴾ (٥٩ : ٢٣).

﴿تَبارَكَ﴾ ولأنه بيده الملك فهو متبارك : متعاظم بذاته وصفاته وأفعاله ، لا تحد بركاته ولا يمدد فيها وإنما يمدد ، ولا تعد نعمائه ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾ وبما أن الملك يخصه ، فالبركة أيضا تخصه :

﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ ان اليد ـ هنا وفي سواه مما نسبت إلى الله ـ توحي بالسلطة الإلهية اللامحدودة غير المغلوبة ، والملك قرينة أخرى إضافة إلى القرينة العقلية ، يوحي أن اليد هنا ليست هي الجارحة الجسدانية ، فإن الملك لا تصله هذه اليد ، وإنما السلطة ، وتقديم الظرف ﴿بِيَدِهِ﴾ والاستغراق المستفاد من ﴿الْمُلْكُ﴾ يفيد ان الحصر ، أن الملك ـ أيا كان ـ إنما هو بيد الله.

والملك أعم من ملك الخلق والتقدير والتدبير ، ومن ملك النبوة والسلطة الزمنية ، ولماذا يؤتيها الفجار إذا كانت هي أيضا منه تعالى؟ له تأويل يأتي في محله الأنسب.

كلام في القدرة الإلهية :

﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ : فما هو كل شيء ، وما هي القدرة؟

فهل يقدر ربّنا أن يجمع بين المتناقضين ذاتيا ، أو يخلق نفسه ، أو يخلق مثله ، أو يلد من لا يولد ولا يخلق ، أو أن يدخل الدنيا في بيضة دون أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة ، أو ما إلى ذلك من المستحيلات الذاتية عقليا؟.

نقول : الأمور المتصورة ـ من حيث تعلق القدرة بها وعدم تعلقها ـ على أربعة أضرب :

١ ـ الكائنات التي بالإمكان تحويرها وتغييرها ، دون حاجة إلى معجزة أو اختراع ، فهي من أبسط الأشياء التي تتعلق بها القدرة.

٢ ـ التي تحتاج إلى قواعد علمية كالمخترعات ، فهي قبل اختراعها قد تزعم مستحيلة ، ولكنما العلم يثبت إمكانيتها.

٣ ـ التي لا تقدر المحاولات العلمية عليها من الطرق العادية ، كمعجزات النبيين ، التي يزعمها الإنسان ـ ولا سيما المتحلل عن وحي السماء ، الشاك فيه ـ يزعمها : من المستحيلات ، ولكنها من الممكنات الذاتية ، مهما كانت مستحيلة بالنسبة للقدرات المحدودة.

ومن هذه خلق العالم لا من شيء ، وسائر الاختصاصات الإلهية في خلقه المبدع ، فاللاشيء الذي بالإمكان إيجاده بالقدرة اللّامحدودة ، إنه يستحق اسم الشيء بهذه الإمكانية الاستعدادية لقبول الخلق ، سواء أخلق أم لم يخلق ، فالمادة الأولية كانت هي اللاشيء الممكن إيجاده ، وقد خلقت ، والسماوات الثمانية وما فوقها ، كانت اللاشيء الممكن إيجاده ولم تخلق ، ولكنهما على سواء في أنهما شيء لإمكانية خلقهما ، مهما كانت الأولى راجحة في الحكمة والثانية مرجوحة ، فهي من المستحيل عرضيا ، لا ذاتيا.

٤ ـ الأمور التي لا تستحق اسم الشيء ، لأنها ليست كائنة ، ولا بالإمكان تكوينها : معدومات مستحيلة التكوين ، كالأمثلة المسبقة ، فإنها ليست من الأشياء حتى تشملها القدرة ، مهما كانت إلهية لا نهائية.

إن القدرة تعني إمكانية تعلقها بشيء مما قدمناه ، والاستحالة الذاتية تعني ـ فيما تعنيه ـ استحالة تعلق القدرة بها وإن كانت القدرة الإلهية ، غير المحدودة ، فإذا تعلقت القدرة بأمر ـ مما يزعم استحالته ـ فالواقع المقدور ، دليل لا مرد له على إمكانيته.

فهل بالإمكان الجمع بين النقيضين معا : أنا أنا ولست أنا أو سلبهما معا : أنا لست أنا ولا لا أنا مهما كانت القدرة المحاولة لجمعهما أو سلبهما إلهية؟

وهل بالإمكان أن الله خالق نفسه ، فخلق شيء يسبقه عدمه ، وهذا ينافي الوهية المخلوق ، وخالقية شيء تقتضي كونه قبل مخلوقه ، فهل إن الله كان قبل كونه! أمران مستحيلان ذاتيا!.

وهل بالإمكان أن يخلق الله مثله ، فيكون المثل خالقا غير مخلوق ، مثله. فالإله المخلوق إذا لم يكن مخلوقا ، حتى يماثل خالقه. فهو معدوم لم يخلق! فهل المعدوم يماثل الخالق ، وإذا كان مخلوقا فكيف يماثل خالقه في أنه غير مخلوق. أم هل هو مخلوق وغير مخلوق لكي يربح الواجبين : مماثلته خالقه ، وعموم القدرة الإلهية لخلق مثله؟ الأمر إليكم!.

إنه ـ رغم ما يزعمه الثالوثيون وأضرابهم ـ ، ليس عدم تعلق القدرة الإلهية بالمحالات الذاتية ، نقصا في القدرة ، ونقضا في شمولها ، وإنما هي المحالات النسبية ، التي لا يقدر عليها إلّا الله ، فيختصها بقدرته فإن الله ﴿عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

نسألكم : هل بالإمكان أن يكون الله إلها وليس إلها؟ خالقا ولا خالق ، عالما ولا عالم! فإذا «نعم» فليس الملحدون خاطئين إذ تمسكوا بأحد جزءي

القضية المتناقضة موجود ومعدوم إذ زعموا أنه معدوم ، وإذا «لا» فلما ذا «لا» فهل إلا لأنه من المحالات الذاتية! فكذلك سائر المحالات الذاتية كالأمثلة المسبقة.

فالمستحيل ذاتيا ليس شيئا حتى تتعلق به القدرة ، ولا أن القدرة تتعلق باللاشيء الذي يستحيل أن يكون شيئا ، اللهم إلا اللاشيء الممكن إيجاده.

فذلك ليس لنقص في القدرة اللانهائية ، وإنما لأن القدرة لا تعني إلا التي بإمكانها إيجاد الممكن الذاتي ، فالنقص كل النقص في المستحيل الذاتي الذي لا يقبل الإيجاد ، إن صح التعبير بيقبل ولا يقبل عن اللاشيء المستحيل وجوده!.

ولئن سألت : هل لا يقدر ربنا أن يخلق في المحالات ، حالة قبول لخلقها. فالجواب أنه ليس للمحال جواب! فإنما الحالة والصفة تخلق في شيء موجود ، لا المعدوم المستحيل الوجود ، وفيما إذا كان الشيء موجودا ، لا يحمل صفة تناقض كيانه ، فهل يحمل ذات الله صفة الحدوث ، أو هل تحمل ذوات الممكنات صفة الأزلية. كذلك ـ وبالأحرى ـ لا تحمل الذوات المستحيلة الوجود ـ إن صح تعبير الذوات ـ لا تحمل صفة الإمكان والقبول ، المناقضة للاستحالة الذاتية!

فقبول صفة الإمكان للمفروض استحالته الذاتية يحمل تناقضين:

١ ـ فرض القبول للمعدوم حالة عدمه : صفة دون موصوف!

٢ ـ تحميل الحالة المناقضة لذات المحمول ، عليه ، جمعا بين الصفة والموصوف المتناقضين : مستحيل ذاتي يقبل حالة الإمكان! ظلمات بعضها فوق بعض.

فالمحال الذاتي محال أينما حل ، ويجنب القدرة الإلهية أيضا ، وليس عنه خبر ولا جواب ، إلا أنه ليس للمحال جواب يجيب به الإمام الصادق زنديقا سأله : أليس هو قادرا أن يظهر لهم حتى يروه ويعرفوه فيعبد على يقين؟

فيجيبه : «ليس للمحال جواب» يعني بذلك : أن المحال ليس شيئا يذكر فيسأل عنه ، فلو أن الله أظهر نفسه فلتره العيون بمشاهدة الأبصار ، وفي ذلك تحول المجرد عن اللامادة إلى المادة ، لكي تشاهد ، وهذا محال!.

كما يسأل الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام : «هل يقدر ربك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة؟ قال : إن الله تبارك وتعالى لا ينسب إلى العجز ، والذي سألته لا يكون» (١).

وإن كان هنا وجه آخر للجواب ، فهو عن وجه آخر للسؤال وكما أجاب علي عليه السلام نفسه عن نفس السؤال : «ويلك إن الله لا يوصف بالعجز ، ومن أقدر ممن يلطّف الأرض ويعظّم البيضة» (٢).

يعني الحالة الممكنة في موضع السؤال : أن يلطف الله الأرض عن حجمها برفع الخلل والفواصل عن عناصرها وجزئياتها وذراتها ، ودمجها كما يمكن ، فتصبح قدر البيضة فيدخلها فيها ، فالبيضة إذا لا تكبر حجما مهما كبرت ثقلا ، كما الدنيا لا تصغر ثقلا مهما صغرت حجما ، فهذه هي الحالة الممكنة من إدخال الأرض البيضة ، بتلطيف الأرض حجما وتكبير البيضة ثقلا!.

ثم استحالة تعلق القدرة الإلهية قد تكون ذاتية عقلية كالأمثلة المسبقة ، وقد تكون واقعية كصدور القبيح منه سبحانه ، أو خلق المرجوح كونيا ، وحسب المصلحة الجماعية للكائنات أو للمكلفين كالمقترحين المعجزات تعنتا ولجاجا : ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٦ : ٣٧). فالأخيران ـ رغم إمكانيتهما ذاتيا ، وبالنسبة للقدرات المحدودة أيضا.

---

(١) نور الثقلين ج ١ ص ٣٢ عن التوحيد للصدوق عن عمر بن أذينة عنه (ع).

(٢) نور الثقلين ج ١ ص ٣٢ عن ابان بن تغلب عن الصادق (ع) عنه (ع).

هما مستحيلان على الله ، إذ يتنافيان وعدله وحكمته تعالى وتقدس ، استحالة بالاختيار.

انه لا قدير على كل شيء إلا الله ، فلا يعجزه شيء ، ولا يفوته شيء ، يخلق ما يشاء ، ويفعل ما يريد ، إنه عزيز حميد ، وهو غالب على أمره ، غير مغلوب فيما يزيد ، فما يحيله الإنسان بحساب قدرته المحدودة ، إنه عند الله سهل يسير ، لا يعزب عنه شيء ولا يعزبه شيء.

وما يحيله العقل واقعيا ، من المنكر ، أو عقليا من المحال الذاتي ، فهو ليس شيئا يذكر ، أو لا يليق به تعالى حتى تتعلق به قدرته ، فما دام القابل ناقصا لا يقبل الكمال ، أم هو دون النقص والكمال لاستحالة شيئيته ، فعدم تعلق القدرة الإلهية به ليس نقصا فيها ، ولا نقصا لعمومها وشمولها.

وهل إن القدرة الإلهية تتعلق بالشيء الموجود : خلق الشيء شيئا : خلقه كما كان قبل خلقه؟ فهو من تحصيل الحاصل! أو خلقه شيئا آخر بمعنى تغييره وتحويره؟ أو بمعنى إعدامه؟ فليست قدرته محصورة في حصار الكائنات بعد كونها ، فمن هذا الذي كوّنها إلا هو؟! أم تتعلق قدرته بما كوّنها ويخلق الأشياء من اللاشيء؟ فكيف يتحول اللاشيء شيئا! أن يخلق الله العالم من اللاشيء! أم خلق الأشياء لا من شيء؟ وهذا هو الصحيح المعقول ، أن لا مصدر لخلق المادة الأولية وجوديا ولا عدميا ، إنما مصدرها أولا إرادته تعالى : أن خلق الأشياء لا من شيء : إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون وإنما استحق اسم الشيء قبل تكوينه ، اعتبارا بإمكانية تكوينه وبحالة كونه المستقبل «علاقة ما يكون».

ثم مصدر الأشياء ثانيا هي المادة الأولية ـ المخلوقة لا من شيء ـ ، بإرادته تعالى ، أن يحوّرها ويحوّلها ويبدّل ماهيتها ، ثم ماهيات الأشياء إلى ما يريد ، أو يعدمها ، وسوف نخوض في البحث عن كيفية التكوين في محالّها.

إذا فعموم قدرته تعالى ليس إلا لعموم الممكنات : المعدومات المتمكنة للإيجاد ، والموجودات المتمكنة للتغيير والتحوير ، أو الانعدام ، فهي كلها أشياء معنية ب «كل شيء» دون المحالات الذاتية فإنها ليست شيئا لكي تتعلق بها القدرة ، ودون الموجودات في وجوداتها ، فإن الموجود لا يحتاج إلى الإيجاد ، اللهم إلا إبقاءه فإنه أيضا بحاجة إلى القدرة والعناية الإلهية كما في بداية وجوده ، إذا فليست القدرة الإلهية فوضى تتعلق بالمحالات لكي تبرز الفلسفة الكنسية تقولها في الثالوث ، المستحيل عقليا ، وان الابن إله ، مولود منذ الأزل ، غير مخلوق ، وأن الإله المجرد اللامحدود حلّ في الجسم اللامجرد المحدود [١].

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ : ومن عموم قدرته للأشياء أنها تعم الموت والحياة ، فالموت شيء لأنه إعدام للحياة وفصل بين الكائن الحي وبين حياته ، والحياة شيء وهي أصل الأشياء في الكائنات.

والموت الشيء ، المخلوق ، هو الموت عن الحياة وبعدها [٢] ، لا قبلها ، فإنه أمر عدمي وليس إعداميا لكي يكون شيئا ، وتقدّمه على الحياة هنا في التعبير ، لا يقدّمه عليها في الواقع المعني ، إذ لا واقع له قبلها إلا عدم الحياة ، وهو ليس شيئا يخلق ، فخلق الموت هو الإماتة : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَأَحْيا﴾

---

(١) راجع كتابنا «حوار بين الآلهيين والماديين».

(٢) نور الثقلين ٥ : ٣٧٩ عن الكافي عن الباقر (ع) «قال : ان الله خلق الحياة قبل الموت» وفيه ايضا عنه (ع) قال : الحياة والموت خلقان من خلق الله ، فإذا جاء الموت فدخل في الإنسان ، لم يدخل في شيء الا وخرجت منه الحياة ، وفيه ايضا عنه (ع) ما الموت؟ قال : هو النوم الذي يأتيكم في كل ليلة. الا انه طويل لا ينتبه منه الى يوم القيامة.

أقول : كل ذلك يعني الموت عن الحياة ، لا الذي قبلها ، ولا يشمله كذلك.

(٥٣ : ٤٤) ، لا الذي قبل الحياة فإنه كائن قبلها دون خلق ، ولم يذكر إلا في آية واحدة : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢ : ٢٨).

ثم إن بلوى الإنسان ليس بالموت قبل الحياة ، إذ لا يشعره قبلها ، وإنما حالها ، بما يعلم انه يدركه لا محالة ، فليهيئ له نفسه ، وبعدها كذلك ، ليذوق ألم الحسرة : ﴿يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي﴾ فليحسن عمله في حياة التكليف ، ليحيى فيها وبعد الموت في حياة الخلود حياة طيبة.

إن التسابق في الأعمال الحسنة هو الهدف لهذه الازدواجية من الموت والحياة ، وليست الحياة فقط هي الباعثة لهذا التسابق ، وإنما التي معها الموت علما ، وبعدها واقعا ، ومهما أنكر الإنسان حياة الحساب بعد الموت ، الذي لا ينكره أحد ، ولكن احتمال الحساب بعد قائم لا يمحى ، فليحسب العاقل له حسابا ، وكما يحسب كل تاجر حسابات في احتمالات الفائدة والضرر ، ولأن الموت يحمل هذه الذكرى الضرورية ، والبلوى العالية ، تقدّم هنا على الحياة رغم تأخره في غيرها من الآيات ، إلا الذي هو قبل الحياة وليس فيه بلوى! ﴿كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ﴾.

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ والعمل هنا يعم عمل القلب ـ وهو أولى ـ وعمل القالب ـ وهو أدنى ـ لأن القالب يتبع القلب ويتّبعه في عمله ، وليس كذلك القلب ، مهما تأثر هو بالقالب في خيره وشره.

ثم العمل منه حسن ومنه أحسن ، كما أن منه سيّئ ومنه أسوء ، والغاية القصوى من بلوى الموت والحياة الوصول إلى واقع العمل الأحسن قلبا وقالبا ، وهو الذي يبتغى به وجه الله كأعمال المقربين ، ودونه الأبرار الذين يريدون الآخرة ، فعملهم حسن ، كما أن الأسوء هو أعمال الكافرين الذين توافق سيئاتهم نياتهم.

ومن حسن العمل الأحسن نسيانه وعدم استعظامه ، كما أن من الأحسن ذكر العمل السيء فجبرانه.

فالموت والحياة دليلان ، بما معهما من أدلة إلهية ، عقلية وفطرية وواقعية ، يدلان الناس اليقظين إلى العمل الأحسن ، فليس الموت قبل الحياة داخلا في المعني من الموت الابتلاء هنا.

هذا ـ وإن كان بالإمكان شمول الموت هنا لما قبل الحياة أيضا ، بتأويل أنه مخلوق ضمن الكائن الميت (١) ، وكذلك الحياة غير الدنيوية فإنها حياة وأحيى من الدنيوية ، ولكنما البلوى ليست إلا في الحياة الدنيا لواقع الإختيار والتكليف فيها ، وفي الموت عنها علميا حالها ، فإنه الذي يحمل الذكرى ، ويحمل صاحبه على التسابق في الأعمال الحسنة ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ ، وللموت رحمات أخرى إضافة إلى البلوى (٢).

---

(١) ولكن الخلق هنا يوحي بالاستقلال فلا يشمل الموت ضمن الكائن الميت.

(٢) ان رحمة الموت لا تختص بالبلوى التي تدفع الى التسابق في الصالحات ، وانما هي الأهم مر فوائده لبني الإنسان حال الحياة اعتبارا ، وبعد الموت جزاء للحسنى بالحسنى ، وللذين كفروا عذاب ، وهو رحمة للمحسنين —

وهنا رحمات اخرى نتيجة الموت في النبات والحيوان والإنسان : فللانسان : هل يا ترى لو لم يكن موت ، أكانت الكرة الارضية بفضائها تسع نسله المتواصل؟ ولو وسعت ، فهل بإمكان الأولاد ان يتحملوا عبء معايش الآباء والأمهات : الآلاف الالاف! وإذا أمكن ، فهل بإمكان هذه الكثرة الخالدة في الحياة ، المعايشة السلمية؟ كيف! ولا تعيش الآن ـ وهي تلمس الموت ليل نهار ـ الا في اضطرابات ناتجة عن تخلفات!.

فيا للموت من رحمة لبني الإنسان ، بنّاء لحياة سليمة ، لو تذكروا .

ولو لا العزة والغلبة الإلهية لم تكن هناك بلوى ولا حسن الأعمال ، فبعزته خلق الموت والحياة ، وبعزته يحافظ على الأحياء والأموات ، وعلى الأرواح والأجساد ، وعلى أعمال الإنسان ، وبعزته يجازي كلّا على عمله ، إذ لا يفوته من أساء.

ولولا مغفرته كانت الحياة الأخرى كلها بلاء وعذابا ، ولكنه يغفر ما دامت

. بها ، وواعظا لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد ، ورادعا عن الشرور لمن أراد الحياة سالمة غير منغصة وان لم يؤمن بالآخرة ، وباعثا على التقوى لمن آمن بالله واليوم الآخر!.

وللحيوان : لو ان بيضات الأسماك (البطروخات) صارت كلها اسماكا ولم تمت ، لأصبحت البحار جامدة من زحامها ، فامتنعت الحياة عليها كلها.

ولو ان الجراثيم استمرت على التوالد خمسة ايام دون انقطاع ولا موت لملأت المحيط الى عمق ميل ، فكيف الحياة؟!

ولو ان ميكروب الوباء (الكوليرا) ـ الذي يتضاعف كل عشرين دقيقة ـ لو مضى عليه يوم واحد دون عائق ، لبلغ وزنه ٧٣٦٦ طنا ، وعدده رقم ٥ مع ٢١ صفرا ، فأين الحياة!

ان بعض المحار في البحار تبيض الواحدة منها ستين مليونا ، لو بقيت انسالها بين عام وعامين لزادت على الكرة الارضية ، فكيف الحياة!

والذباب الذي ينغص عيش الإنسان ، تبيض أنثاه خمس او ست مرات ، في كل مرة ١٢٠ ـ ١٥٠ بيضة ، فلو عاشت دون موت لم يعش على وجه الأرض انسان ولا حيوان!

فلو لا الموت لم تكن حياة ، وانه يتبنى الحياة مادية ومعنوية ، خلقية وخلقية ، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ سبحان الخلاق العظيم ، فهل لا يستحق الموت ـ إذا ـ ان يحتل الرتبة السابقة على الحياة : ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ﴾؟ فان الموت رحمة للأحياء وللأموات!.

المغفرة لا تنافي عدله ، ويكفي أن مصير الموحدين كلهم الجنة ، بعد المغفرة ، أو والعذاب فيما لا يتحمل المغفرة ثم الجنة ، فرحمته وسعت كل شيء ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

أجل : وإن الخلق عامة ، وخلق الموت والحياة خاصة ، ليس جزافا دون هدف ، وإنما هو الابتلاء لإظهار المكنون في علم الله من سلوك المكلفين على الأرض ، بلوى : «بتكليف طاعته وعبادته ، لا على سبيل الامتحان والتجربة ، لأنه لم يزل عليما بكل شيء» [1] و «أكيس المؤمنين أكثرهم للموت ذكرا وأحسنهم له استعدادا» «فليأخذ الإنسان من حياته لموته» واستقرار هذه الحقيقة الحية من واقع الموت في ضمائر الأحياء ، يدعهم أبدا يقظين منتبهين حذرين واعين ، للصغيرة والكبيرة ، في النية المستسرة ، والعمل الظاهر ، لا يدعه يطمئن أو يستريح ، إلا أن يسامح عن عقله وضميره ، فإن حسن العمل ليس إلا من حسن العقل ، وعلى حد تفسير الرسول الأقدس (ص): «أيكم أحسن عقلا ، ثم قال : أتمكم عقلا ، وأشدكم لله خوفا ، وأحسنكم فيما أمر الله عز وجل به ونهى عنه نظرا ، وإن كان أقلكم تطوعا» [2].

---

(١) «نور الثقلين» عن الاحتجاج للطبرسي عن الرضا ـ عليه السلام ـ في الآية : «فإنه عز وجل خلق خلقه ..».

(٢) «مجمع البيان» : أبو قتادة قال : سألت النبي (ص) عن قوله ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ ما عنى به؟ فقال : يقول : أيكم أحسن عقلا.

وفيه عن ابن عمر عنه (ص) قال : «أيكم أحسن عقلا ، وأروع عن محارم الله ، وأسرع في طاعة الله» ، وفي الكافي عن الصادق (ع): «ليس يعني أكثركم عملا ، ولكن أصوبكم عملا ، وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة ، ثم قال : الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد العمل ، الا والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله ، والنية أفضل من العمل ، ألا وإن النية هي العمل ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ﴾ يعني على نيته.

السماوات السبع الطباق :

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً﴾ : الآراء حول السماوات بين مفرط يزعمها مليارات ، عدد الأجواء المحيطة بالكواكب ، زعم أن السماء تعني الجو المحيط بكل كوكب ، وبين مفرّط يزعمها الأجواء المحيطة بالسيارات السبع ، معتذرا عن الجديدين «بلوتو ـ نبتون» أنهما غير مرئيين غالبا ، بالعين المجردة ، رغم أن سبع المفرّط ومليارات المفرط ، هي كلها في السماء الدنيا : الأولى ، حسب القرآن.

نجد السماء في القرآن ، تذكر ١٢٠ مرة ، والسماوات ١٨٣ ، والسبع سبعا بسبعها ، ومرتين بسبع شداد وسبع طرائق [١].

فالسماء تعني مطلق الجو المحيط حول الأرض ، سواء في حالتها الأولى الغازية الدخانية قبل تسبيعها أم بعدها ، والسماوات تعني السبع ، لا أقل ولا أكثر ، ولأن الآيات التسع التي تعتبرها سبعا إنما هي بصدد عرض عدد السماوات المخلوقة : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢ : ٢٩) ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ..﴾ (٦٥ : ١٢) قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين .. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين. ﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٤١ : ١٢).

فالسماء الدنيا ، وهي أدنى السماوات إلينا نحن المخاطبين في الآيات ، هذه السماء تحمل سماوات المفرطين والمفرّطين ، ثم لا ندري ماذا تحمل السماوات الست الباقية.

---

(١) راجع ص ٢٥ ـ من الجزء الثلاثين القسم الاول ففيه تفصيل عن السبع الشداد.

ولقد وصفت هذه السبع بأوصاف عدة ، كالشداد والطباق ، مما تدلنا على خروجها وتحللها عن الحالة الدخانية قبل تسبيعها ، إلى حالة أخرى وحالات ، ومن ذلك قصورها ومصابيحها ومدنها الشداد الطباق.

وإنها طباق لتطابقها بعضها على بعض ، وتشابهها مع بعض ، وتماسكها ببعض ، وترابطها ماديا ومعنويا مع بعض ، وتآخيها بما أنها ولدت من الدخان الأم : ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ .. فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ﴾.

فلما ذا تتهافت وتتفاوت؟ فإنها والخلق كله ـ كخلق الله ـ لم تخلق متفاوتة ، وإنما التفاوت من الخلق نفسه ، تخلفا عما خلق له ، وأراد الله منه :

﴿ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ﴾ :

إن رحمانيته تعالى ، وهي رحمته العامة الشاملة لخلقه أجمع ، إنها تشهد بعدم التفاوت والتهافت في خلقه كخلقه ، فللائتلاف خلقهم لا للاختلاف : ﴿وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (١١ : ١٩) رحمة التآلف في التكوين ، وأخرى في التشريع ، وثالثة لمن يطبق التشريع ، توفيقا لما أراده من الرحمة «فالخير كله بيديه والشر ليس إليه» فالمخلوقون هم المتفاوتون المتضادون مع بعض ، تخلفا عن شرعة التكوين والتشريع ، ولكنما الخالق لا يخلق متفاوتا متهافتا ، مما يدلّ على وحدته ورحمته ، ف ﴿ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ﴾.

هل ترى من فطور؟

﴿ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

هنا يؤمر من له بصر وبصيرة لينظر في خلق الرحمان نظر الناقد البصير ، هل يرى من اختلال وفطور؟ فلينظر نظرة أولى ف ﴿ما تَرى﴾ ثم ليرجع البصر عله يجد ما ضل عنه في الأولى ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ ثم ثالثة هي الكرة الثانية :

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ وفي آخر المطاف : ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾!

كرر أيها الناظر نظرك إلى السبع الطباق ، من بعيد ، وأحرى لك من قريب ، على ضوء غزو الفضاء ، مفكرا في عجائبها ، مستنبطا غوامض تراكيبها ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً﴾ : بعيدا عما طلبه ، من نقد في نظمها أو غور في ماهيتها ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ : ذليل بفوت ما قدّره من تفاوت وتناحر : ﴿قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠ : ١٠١) وأما المؤمنون من الناظرين في آيات الأرض ، ومن غزاة الفضاء ، فهم تغنيهم آياتها ، دلالة على مدبر واحد حكيم.

إن الخاسئ هو البعيد المرذول ، وكما يخسأ الكلب ، والحسير هو البعير المعيي ، الذي بلغ السير مجهوده ، واعتصر عوده ، فالبصر يرجع بعد كرتيه ، وسروحه في طلب مراده ، وإبعاده في غايات مرامه ، يرجع كالا معيي بعيدا مرذولا ذليلا من إدراك بغيته ، ونيل طلبته ، من اكتناه حكمة الخلق ، أو نقد زعم التفاوت فيه.

فليتجول الجوالون في غزوهم الجوي ، ولينظر الناظرون ، فليس آخر المطاف إلا عجزا عن الغور ، دون أن يدركوا فطورا وفتورا إلا في أنفسهم ، إذ لا تبلغ قمة المعرفة بخلق الرحمان ، وكيف بالنقد فيه ، أو شبهة فيما يحويه ، اللهم إلا لمن سامح عن عقله ، ولجّ في غيه ، فليخسأ وهو حسير!.

إن الكائنات ، رغم اختلافها في صفاتها وماهياتها ، وعناصرها ، وجزئياتها ، وذراتها ، فالاختلاف في آثارها وخواصها ، وتفاعلاتها ، إنها بالرغم من كل ذلك متلائمة متناسقة ، تحصل من ازدواجها وحدة ، ومن قربها وحدة ، ومن خلطها وحدة ، ومن بعدها وحدة ، تضرب ـ على تضاربها ظاهريا ـ إلى وحدة أنيسة رحيمة أليفة ، مما يدل على مدبر ومكون واحد.

(تفسير الفرقان ـ ج ٢٩ ـ م ٢)

هذه الآيات تتحدى الناقدين ، أن ينظروا في خلق الرحمان ، هل يقع نظرهم ، بعدّته وعدّته ، على شق أو صدع أو خلل؟ .. ﴿هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ﴾ : من وهي أو وهن ، به يتصدع أو ينصدم ، وهذه النظرة الفاحصة المتأملة هي التي يريدها الله : للمؤمنين لكي يزدادوا إيمانا ، ولغيرهم ليزدادوا حجة تحسم مواد الشك والريبة عن قلوبهم ، وغشاوات الأوهام عن أبصارهم ، فبلادة الألفة تذهب بروعة النظرة إلى هذا الكون الرائع العجيب الجميل الجليل ، لا تشبع العيون من تملّي جماله وروعته ، ولا القلب من تلقّي إيماءاته وإيحاءاته ، ولا العقل من تدبر نظامه بقوانينه ، فليعش الإنسان نظرا في خلق الرحمان ، ولكي يعرف عجزه وقدرة الرحمان ، وجهله يجنب علمه ، ونقصه حيال كماله.

ومن الرائع جدا أن قراءة كتاب التكوين لا تحتاج إلى ثقافة زائدة ، ودراسة خاصة ، وإنما بصر وبصيرة منح الله الإنسان إياهما وإن كانا في درجات ، وإن كان للعلم أثرا عميقا في مزيد المعرفة ، ولكنما القرآن يخاطب ساكن الغابة والصحراء ، كما يخاطب ساكن المدينة ورائد البحار وغازي الفضاء على سواء! ولأنه كتاب الناس أجمع ، يحمل هداية الناس أجمع.

وكما قلناه مسبقا : إن التفاوت المنفي هنا هو التضاد والتنافي وعدم انسجام والتحام أجزاء الكون ، في أصل الكيان والنظام ، فهذه أرضنا تحول حول نفسها وحول شمسها في جادة فضائية ، لا تنزلق عنها ، ولا تبطئ ولا تزيد عما قرر لها من حراكها ، ونرى كذلك كافة السابحات في يمّ الفضاء ، بالمليارات المليارات ، فكل في فلك يسبحون ، دون اصطدام واصطكاك واحتكاك ، مما يدل على أن عليها سائق واحد مدبر حكيم.

فكلما تواترت الأنظار الدقيقة إلى خلق الرحمان ، لم تزدد إلا زيادة المعرفة بنظمه الشامل ، وتنسيقه الكامل ، دون تفاوت فيه ، ولا نقص يعتريه.

ترى رحمانية الخالق ـ نتيجة كرور الأنظار ـ من خلال هذا الكون ،

ف ﴿ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ﴾ : أيا كانت الرؤية ومن أي كانت ، ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ﴾؟ تأكدا وتثبتا ، في رجوع نافذ ناقد أعمق من النظرة الأولى ، عله فاتك شيء فلتجده هنا ، هل ترى من فطور : من فروج وشقوق وفتوق وخروق؟.

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ : بغية الإحاطة على ما عله خفي عنك من فطور ، أو رجاء الإحاطة على خفيات الكون الغامضة : ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً﴾ مبعدا مصغرا ذليلا كليلا عما يهواه ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ : ذليل أسير كليل أن يتعاطى نقدا ، أو تحيط علما!

إن الأنظار المتجهة إلى الكون ، كلما تغرق في يمه المتلاطم ، حائرة ، لا يزداد أصحابها في سبرهم غوره إلا حيرة وبهرا ، يذعنون أنهم خاسئون بجنب هذه العظمة الباهرة ، وإذا عميت عليها حكمة فيه ، كما في الكثير منه ، فالناظر المنصف لا يتسرع بالنقد ، لما يعلمه بإتقان أن صانعه أعلم منه وأحكم مهما تسرّع الجاهلون الملحدون والمتسامحون عن عقولهم وعن فطرهم وضمائرهم.

وقد تكون النظرة الأولى ، المأمور بها هنا ، النظرة البصرية الميسورة لكل واحد ، والثانية النظرة العقلية على ضوء الفلسفات العقلية والعلوم التجريبية ، والثالثة هي النظرة في ملكوت السماوات والأرض ، في حقيقة كيانها ، وأصل كونها ، وكيفية تكونها وتعلقها في ذواتها بالرحمان ، سواء أكانت النظرة من بعيد ، أو وأحرى من قريب على ضوء غزو الفضاء: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٧ : ١٨٥) ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ﴾ (٥٠ : ٦).

هذه نظرات ثلاث أمرنا بها هل نرى من فطور ، ولو كان كياننا كله نظرا

إلى الكون وكررناه إلى يوم الدين ، لم نرجع في نقدنا إلا خاسئين ، ونرجع في استكشاف القدرة العجيبة الرائعة الإلهية إلى معرفة أسمى وبصيرة أنفذ وأسنى ، إن الخلقة تملك كمالا دون نقص من حيث الصنعة الإلهية ، ثم نجد له جمالا فوق الكمال وكما الآيات التالية تتحدث عن ذلك الجمال الرائع ، بعد ما برهنت الآيات المسبقة لكمالها وعدم فتورها :

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَقُلْنا ما نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ (١١) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٤)

السماء الدنيا بمصابيحها الرجوم :

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ﴾ :

هنا تتحدث الآية ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا﴾ عن سمائنا التي نواجهها ، وهي الأولى ، دون الستة الباقية البعيدة عن أنظارنا ، وإن كانت بالعيون المسلحة ، فضلا عن غزو الفضاء ، فإننا حتى الآن لم نسبر غور السماء الأولى ، فضلا عن سواها!

هنا ﴿السَّماءَ الدُّنْيا﴾ الموصوفة بأنها الدنيا : أدنى السبع إلينا ، لأسماء الدنيا! أمقابل سماء الآخرة؟ فليست الآن مخلوقة! والآية تحدثنا عما مضى ، فهذه الآية مع نظيراتها ، تدلنا أن المصابيح السماوية التي نشاهدها ، والكواكب التي نراها : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ﴾ (٣٧ : ٦) انها ـ كلها ـ في السماء الأولى ، فما هي الكائنات في سواها ، من الستة الباقية؟ لا ندري ، وكيف لنا أن ندريها ، وما ندري ما في سمائنا الدنيا!

رجوم الشياطين؟

هل إن المصابيح هنا هي النجوم كلها ، أو الكواكب كلها ، أم قسم خاص منها؟ وهل الشياطين هم شياطين الجن فقط؟ أم والإنس أيضا؟ ثم كيف تكون المصابيح رجوما على أية حال؟

المصابيح هي الكواكب ونجومها الطالعة وسواها ، فهي مدرعات جوية ومقاذيف تقذف : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ ، وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ ، لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ. دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ ، إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ﴾ (٣٧ : ١٠) .. هذه الكواكب هي كلها رجوم ، ولا سيما بروجها : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ ، وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ ، إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥ : ١٨).

فموقع الكواكب ـ بين مواقعها ـ أنها حفظ من مردة الشياطين ، بعضها قذائف وشهب بحرسها : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً﴾ (٧٢ :) بين منفصلة عن بروجها ومدنها : عن وزارات الدفاع ومراكز الأسلحة ، انفصلت شهابا رصدا ، ترصد وترقب مسترقي السمع ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً﴾ (٧٢ : ٩) وبين ما هو كرة سماوية ، مهما كبرت أو صغرت. تدفع من قاذفاتها شهبا ونيازك نارية ، تهدف أهدافا مقصودة ، يدفعها الحرس الملائكي ، أو تندفع دون حرس.

إن قذف الكواكب حتم لا مردّ له ، ولكنه ليس من نوع واحد ، فقد يكون رجوما ، وقد يكون شهبا : الأحجار السماوية ونيازكها النارية.

فالرجوم هي الأحجار التي تحمل النار ، أو تتبدل نارا باصطكاكها الجوي ، والمصابيح الرجوم ليست هي الكرات ، إذ لا يرجم بها الشياطين ، وإنما يرجمون منها ، من قذائفها المنفصلة عنها ، ف ﴿جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ﴾ لا تعني في الكرات إلا أنها مقاذيف ، طالما تعني في الأحجار المنفصلة الحائرة في الجو ، تعني منها أنفسها.

والشهب هي النيازك النارية [1] فالرجوم التي تحترق في الجو وتندثر بعد نفاذ

---

(١) يقول (ماكسول رايد) العالم الفلكي في كتابه (النجوم للكل) : في ليلة نوفمبر ١٨٣٣ ـ أصبحت السماء مليئة من الشهب ، وكأنها الكواكب ، جعلت السماء ميدان النضال ، وأدعى بعض انها كانت على كثرة ذرات البرد ، فالشهب ـ هذه ـ كانت تنتشر ، وكأنها من دوراة النار ، من النقطة التي فيها الصورة الفلكية «لنوى» : اسد ، لقد خيل الى بعض الناظرين كأن الدنيا انتهت ، وبعد قليل سوف تنفجر الأرض بهذه الشهب الساقطة عليها ، وقد دامت هذه الحملة النارية طول الليل ، مخيلة أنها تمطر من ثقبة وتنتشر ، وتصاحبها في نضالها الكواكب حولها .

أمرها ، هي الشهب ، والتي تصل إلى الأرض ، هي الأحجار السماوية التي تمطر أحيانا على شياطين الأرض ، ف ﴿جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ﴾ تعم شياطين الجن بالشهب ، وشياطين الإنس بالأحجار ، ومن رجوم شياطين الأرض سجّيل أصحاب الفيل وسواه ، كالتي أرسلت إلى سدوم ، وعلى قوم لوط : ﴿قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ، لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ (٥١ : ٣٤) ﴿فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ (١١ : ٨٢).

ثم كيف تقذف الرجوم والشهب إلى شياطين السماء؟ ولماذا؟ فهل يسمح للجن المؤمنين اختراق السماء إلى الملإ الأعلى للاستماع إليه؟ وهل يمنع الإنسان أيضا من اختراق السماء وهو لا يستطيع التسمّع إلى الملإ الأعلى؟ ثم الشهب والنيازك النارية والأحجار ، هل إنها على كثرتها وتوافرها لا تهدف إلا قذف شياطين السماء والأرض؟ وكيف ذلك؟ تجد الجواب عنها في محالها الأنسب [1].

﴿وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ﴾ : عذابا فوق العذاب بخبره الحاضر الحاذر عن مستقبل شديد ، ورجومهم يوم الدنيا ـ بواقعه ـ عليهم شهيد ،

ـ نقل احد الشاهدين هذه الحرب الجوية في «كارولينا الجنوبي» : سمعت صوتا خشنا خارقا ايقظني من نومي ، صرخة من ثمانمائة من العمال السود في المزارع ، حاولت الكشف عن السبب ، فإذا بصوت ضعيف من وراء الباب يطلبني ، أخذت سيفي واتبعت صاحب الصوت ، فسمعت ثانية يسترحمني قائلا : قم فقد احترقت الدنيا ، فتحت الباب ، ولست أدري هل كانت الصرخات المسترحمة أدهش ، أم المنظرة الرهيبة من الحرب الجوية ، رأيت مائة من العمال ساقطين على الأرض ، كانت حادثة عديمة النظير ، وان كانت لها أشباه في التاريخ.

(١) كما في سورة الحجر وفصلت والصافات والجن.

فهم بين عذاب حاضر وآخر معتد عتيد ، عذاب فوق العذاب وبعد العذاب وبئس للظالمين بدلا.

عذاب معتد : لم يأت وقته ، ولم يعد عدته ، ولأنهم وقوده ولما يدخلوه ، فإذا ألقوا فيه كمل العذاب بهذا اللقاء ، كما يقرب البترول النار ، فشهيق وفوار.

لا فحسب الشياطين : بناة الضلالة وأصولها من الجنة والناس أجمعين ، بل الحكم يعمهم والكافرين أجمع :

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ : فالذين لا يرجمون ـ منهم ـ يوم الدنيا ، هم شركاؤهم في عذاب جهنم يوم الدين : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ﴾.

﴿إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ﴾ : يلقون فيها مهانة لهم ، وإلقاء للصلاء الوقود ، لكي يصطلون بأنفسهم ، فلقد كانت كاظمة غيظها ، باطنة فورتها وميزها ، وأما الآن وهي تعيش وقودها ، فحق لها شهقتها وفورتها وثورتها على الكافرين.

الشهيق. هو الصوت الخارج من الخوف عند تضايق القلب من الحزن الشديد والكمد الطويل ، وهو صوت مكروه سماعه ، شديد إيقاعه.

أما إنها خائفة من وقودها الشديد ، متضايقة القلب الحزين ، من ورود هؤلاء الأرجاس الأوغاد ، رغم تصبّرها لورودهم ، في كمد طويل!.

تشهق فائرة : مرتفعة الغليان ، تجذبهم إلى داخلها جذب الهواء بشهيق النفس إلى داخل الصدر.

﴿تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ : من قولهم تميزت القدر ، إذا اشتد غليانها ، ثم صارت الصفة خاصة الإنسان المغضب ، وهنا وصفت النار بصفة المغيظ الغضبان الذي من شأنه ـ إذا بلغ ذلك الحد ـ أن يبالغ في الانتقام ، ويتجاوز الغايات

في الإيقاع والإيلام ، وقد يوصف الإنسان الشديد الغيظ ، بأنه تكاد يتميز غيظا أي : تكاد أعصابه المتلاحمة تتزايل ، وأخلاطه المتجاوزة تتنافى وتتباعد ، من شدة اهتياج غيظه ، واحتياج طبعه واحتدامه ، فأجرى سبحانه هذه الصفة على نار جهنم ليكون التمثيل في أقصى منازله وأعلى مراتبه.

يا ويلاه! هل ألقيت فيها قنبلة ذرية فتميزت شاهقة فوارة؟ فإنها حصلت على عدتها بعد عدتها تحرق بها وتحترق ، تميز بها وتتميز ، وهكذا أعدها ربها لهذا اليوم العصيب! أعاذنا الله شره بحق الحبيب محمد وآله الطاهرين.

﴿كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾؟ : إنما يلقون فيها أفواجا. فعذاب الإلقاء مهانة ، وعذاب الأفواج تطلعا واطلاعا ، بعضهم البعض ، وعذاب النار الشاهقة الفوارة بوردهم ، يضاف إليها كلها عذاب التنديد الشديد الذي لا جواب عنه إلا بلى!.

إنهم يساقون إلى جهنم ويلقون فيها أفواجا : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً﴾ (٣٩ : ٧١) جعل الخبيث على الخبيث وركمهم جميعا : ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ (٨ : ٣٧) ركما ولكي تشتعل النار وتتميز من الغيظ بركامة وقودها ، تناصرا في الصّلاء ، وكما تناصروا يوم الدنيا في إيقادها على المؤمنين.

والملائكة الغلاظ الشداد ، وهم أصحابها : ﴿عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً﴾ (٧٤ : ٣١) هؤلاء العدول الموكلون بالنار يسألون أصحابها : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ : حجة عليهم ، وتنديدا بهم أن جاءهم نذير ، إذ الهلاك يوم الدنيا ويوم الدين ، ليس إلا عن حجة مسبقة تحملها النذر : ﴿ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ﴾ (٢٦ : ٢٠٨) ، فالنذر تكفي حجة يوم الدين ، ولو لم تغن أحيانا يوم الدنيا : ﴿حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ﴾ (٥٤ : ٥).

وإذ لا تنديد ولا عذاب لمن لم يأته النذر ، فما هذا التنديد الشديد بمن لم يأتهم! :

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ ... وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ (٣٤ : ٤٤).

تجد الجواب في : ﴿قَبْلَكَ﴾ فإذ لم يأتهم نذير في الفترة بين المسيح ومحمد (ص) ، فقد جاءهم النذير الأخير محمد ، وفيه الكفاءة إنذارا وفيه المزيد ، وانما الآية توضح السبب في تصلبهم في الكفر : أنهم لم يأنسوا بالنذر قبله ، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم يلاقي أشد الصعوبات في الدعوة ، وعليه أن يصّعّد أصعب العقبات فيها : ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ. لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٦ : ٧).

ثم إذا كان واقع الإنذار شرطا لزاما في جواز العذاب ، فما هي ـ إذا ـ حال من عاشوا زمن الفترة كما بين محمد والمسيح (ص)؟ أو عاشوا في البلاد المنقطعة عن النذر أو عن إنذارهم كأمريكا ، إذ اكتشفت قبل حوالي خمسة قرون؟ أو عاشوا في الفترة بين النبيين ، بعد موت السابق وقبل بعث اللاحق ، أو عاشوا في زمنهم ولكنهم لم يواجهوهم في دعوتهم؟ فليس هناك ـ طوال التاريخ ـ إلا القلة القليلة من الكفار الذين تحق لهم النار ، لأنهم أتاهم ـ أنفسهم ـ نذير! ثم الكثرة الكثيرة لا يعذبون ، إذ لم يأتهم نذير!

هنا وهناك تعرف الجواب إذا تعرفت إلى كيان النذير ، الذي يفرض الحجة على المتخلفين :

إن الإنسان ـ غير المجنون والصغير ـ إنه يعيش نذرا طوال حياة التكليف ، مهما اختلفوا في مدى الإنذار وكيفيته ، وطول مدته وقصرها ، وقوة حجته وأقواها :

فالعقل نذير ، والضمير الإنساني نذير ، والفطرة نذيرة ، وهذه نذر أنفسية دواخل ذواتنا ، وهي أسس الإنذار ، يتبنّاها المنذرون المرسلون ، وتتبنّاها الآيات الآفاقية في دلالتها وإنذارها ، ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

فعلى العقلاء أن يعقلوا عما تحيطهم من آيات الله البينات ، ولا أقل الآفاقية الكونية منها ، ولا أقل الأنفسية! عليهم أن يعقلوا ويسمعوا ويعوا ، ومنهم المـاردون الـذين يتأوهون يوم الورود : ﴿وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ ، فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ﴾(١٠).

ثم الرسل المنذرون ، ليس لزاما عليهم الإنذار بأنفسهم مواجهة ، ولا كل في زمنه ، إنما المدار على بلوغ الإنذار الذي فيه الحجة البالغة ، سواء حمله الرسول بنفسه ، أم بمبعوثيه ، أم بكتابه ، ولا سيما الكتاب الذي يحمل معجزة الرسالة ومعجزة الرسول ـ البالغة الخالدة : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ﴾! (٢٩ : ٥١).

فكل من بلغته الدعوة الحجة ، كيفما بلغت ، وبأيّ من الوسائل ، فقد لزمته الحجة الإلهية : ﴿وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (١٧ : ١٥).

والعذاب دون حجة الإنذار ، وكذلك اللّارحمة واللاعذاب دون بلوغ الحجة ، إنهما حجة للناس على الله ، وحاشاه! ولكن : ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ﴾ (٦ : ١٤٩) تبلغ العالم بعلمه ، والجاهل بعقله ما لم يقصر : ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (٤ : ١٦٥) ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى﴾ (٢٠ : ١٣٤).

ولقد شمل الإنسان النذر وأحاطوا به طوال التاريخ : ﴿إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ (٤١ : ١٤) ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ﴾ (٣٥ : ٢٤) لا تشذ النذارة الإلهية جماعة من الجماعات البشرية ، أو قطعة من قطاعاتها سواء أكان النذير من رجالات الوحي ، أم رسلهم الخاصة ، أو العامة ، أم ـ وفي أقل التقدير ـ نذر العقول التي تهدي إلى نذر الرسل ، وتدفع أصحابها للتحري عنهم.

ومما لا يريبه شك أن هناك قرى كثيرة ما أتتهم الرسل : ﴿وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً﴾ (٢٥ : ٥١) ولأن الأصل المبنية عليه الحجة ليس إلا وصول الإنذار الحجة ، لا مواجهة أصحاب الوحي كل القرى بكل الأمم ، ولأنها مستحيلة في الواقع ، إضافة إلى عدم لزومها فيما يرام.

صحيح أن النذر والحجج تختلف ، والبيآت تختلف ، والعقول تختلف ، ولكنما الجزاء كذلك يختلف ، وفاقا لاختلاف هذه المبادئ ، و «إنما يداق الله الناس في الحساب يوم القيامة على قدر عقولهم» [1].

ثم المكلفون في الفترة الرسالية على حد التعبير المسبق ، لم يعيشوا إلا فترة رسولية ، لا رسالية ، حيث الإنسان ـ كائنا من كان ـ يعيش دعوات الرسل ورسالاتهم ، المودعة في كتاباتهم ، والمنقولة على ألسنة خلفائهم وعلماء أممهم ، فهم رغم أنهم لم ينذروا بالرسل : ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ﴾ (٣٦ : ٦) ـ هؤلاء الآباء غير المنذرين ـ ولكنهم أنذروا بحملة الرسالات من العلماء والنبهاء ، وعلى أقل تقدير بنذر عقولهم وفطرهم ، وأخيرا لو كانوا قاصرين أو مستضعفين فهم ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ فالتوبة عليهم لضعف الحجة ، والعذاب ـ ولا ريب أنه قليل ـ لأصل الحجة ما داموا عقلاء! ذلك ﴿وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

وأما العائشون في مثل أمريكا ، فمن أين انهم كانوا منقطعين عن الرسالات ، الفصل البحار حولهم؟ فعلها كانت متصلة قبل اكتشاف امريكا ، اتصالا بريا ، أم بحريا بقرب السواحل ، ثم ابتعدت لفترة ، اكتشفت لآخرها ، أم ـ كأبعد الاحتمالات ـ كانت المواصلات بحرية رغم بعد سواحلها ، وأخيرا ، لو تأكدنا من انقطاع المواصلات كلها ، بين أمريكا وأراضي الوحي ، فمن المحتمل المعقول ، بل المدلول عليه بالآيات ، أنه كان فيهم منذرون ، مستقلون بالوحي ، أم من أتباع رجالات الوحي : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ..﴾ (٤٠ : ٧٨).

---

(١) اصول الكافي : باب العقل والجهل عن الامام الباقر ع.

فهل يا ترى ان الأمة الأمة كانية ـ قبل اكتشافها ـ لم تكن أمة بشرية حتى تستحق نذيرا يخلو فيها؟ : ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ﴾! (٣٥ : ٢٤) أفهل نكذب كلام الله لأن تاريخ الرسالات لم ينقل لنا عن أنبياء أمريكا شيئا؟ والقرآن يقول : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وكيف بنا! إذ نجهل أحيانا من قصهم الله ، فكيف بمن لم يقصصهم؟!

﴿قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَقُلْنا ما نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾.

هذا الاعتراف ـ إذ لا مرد لهم منه ـ إنه عذاب نفسي فوق عذاب التنديد ، إضافة إلى عذاب السعير ، وشهود الجماهير ، وإلقائهم جماعة في السعير مهانة ، فقد شملهم وأحاط بهم مختلف ألوان العذاب : نفسيا وجسدانيا ، وكما كانوا عذابا يوم الدنيا في الناحيتين ، وخلقوا جو العذاب لمجتمعهم ..

وهنا نعرف من الجواب أنهم كانوا ممن جاءهم نذير بالوحي ، فواجهوا سفراء ربهم بكل وقاحة وحماقة ، تجمع بين توهين الله بفرية : ﴿ما نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وتوهين الرسل : ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾ وهذه إهانة ثانية لله تعالى ، إذ يحسبون رسالته السامية ضلالا كبيرا ، وهؤلاء هم المشركون وكما عن باقر العلوم (ع) [1].

ومن هنا نعرف وهن العذاب لمن لم يعش الرسالات ، أو يواجهها بهكذا تكذيب وقح ، فكل إنسان يعمل على شاكلته ، ويجزى على شاكلته ، وكان ربك بصيرا.

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٨١ محمد بن مسلم عنه (ع) تفسيرا لهذه الآيات.

﴿وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ. فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ﴾.

أجل ـ إنما هو السمع وعقل ما يسمع ، يفلح الإنسان في الحياة ، ويفلج خصومه ضد الحياة! سواء أكان سمعا بسماع الاذن فعقلا عما سمع ، أو سمعا بإذن القلب وعقلا له كذلك ، فإن للقلب اذنا كما للجسم.

وهناك اتصالات للإنسان بالعالم الخارجي ، تجعله كأنه العالم كله ، فيمشي مع الكون صراطه المستقيم .. بالسمع والبصر ومطلق الإحساس.

ولكنما السمع أفلح ما يكون وأقربه إلى الإعتبار والعقل ، فأكثر ما يسمعه الإنسان ويفهمه ، إنه يعقله ، دون البصر والحس ، فإنهما بعد السمع في الإنتاج.

كذلك دواخل الإنسان من فطرة وصدر وفؤاد وقلب ولب ووهم وخيال ، فإن العقل فوقها لأنه الذي يعقل : يأخذ ـ المفاهيم ، بالسمع وبالبصر والإحساس وسواهما ، يعقلها فيحولها ويغربلها إلى الصدر والقلب ، والقلب عامل نهائي في غربلة ما يرده من الصدر والعقل.

فإنما هو السمع والعقل ، إذا عملا واعتملا كما يجب ، كان بعده الفلاح ، ثم للمصيب أجران وللمخطئ أجر واحد ، ما لم يقصر في الطريق.

ثم العقل : منه قبل السمع : يدفع صاحبه لكي يسمع ، ومنه بعد السمع يدفعه لكي يعقل ما سمع ، وكثير هؤلاء الذين يسمعون ولا يعقلون ، لأن سمعهم ليس عن عقل ، أو يكتفون بالسمع فرارا عن تكلفات العقل فيما يسمعون ، وكثير هؤلاء الذين لا يسمعون لكيلا يعقلوا ، وهم أبعد وأضل سبيلا ، وقليل من يسمع ويعقل ثم يواصل في عقله وسمعه ، وعلى حد قول الرسول (ص):

«ما يجزى أحد يوم القيامة إلا على قدر عقله» [١] ، اللهم اجعلنا من هؤلاء القلة.

وإنما يعطف العقل على السمع هنا ب أو لأن عقل الحقائق لا يختص بواسطة السمع وسواه من وسائط الإدراك ، إنما الوسائط للأكثرية الساحقة من الناس الحسيين الذين ليست لهم تلك العقول الفائقة الناضجة ، ولكنما العقلاء الناضجين يسمعون ويبصرون بعقولهم فوق ما يسمعه السامعون ، فإنما هو العقل : عقل الحقائق وإدراكها ، سواء أكان عن سمع الأذان ، أم سماعا عقليا وفطريا وفكريا ، وهذه هي رؤية الآيات الإلهية في الأنفس : ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (٤١ : ٥٣)

فالذي يسمع ويعقل ، أو يعقل ويسمع ، أو يعقل دون حاجة إلى السمع ، إلا عن رجالات الوحي لتكميل ما عقل ، هذا الإنسان اللبق لا يورد نفسه هذا المورد الوبيء ، ولا يجحد مثل ما يجحد به أولئك الأوغاد المناكيد ، ولا يتسرع باتهام الرسل بالضلال الكبير ، فلا يكون آخر مطافه عذاب السعير : وماذا عليهم لو سمعوا من العقلاء النابهين ، أو عقلوا في أنفسهم! فإن حدود كيان

---

(١) المجمع عن ابن عمر عن النبي (ص) ، وعن انس قال : اثنى قوم على رجل عند رسول الله (ص) فقال رسول الله (ص) : كيف عقله؟ قالوا : يا رسول الله! نخبرك عن اجتهاده في العبادة واصناف الخير وتسألنا عن عقله؟ فقال : ان الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر ، وانما يرتفع العباد غدا في الدرجات وينالون الزلفى من ربهم على قدر عقولهم.

وفي نور الثقلين ٥ : ٣٨٢ عن الكافي عن الصادق (ع) من كان عاقلا كان له دين ، ومن كان له دين دخل الجنة ، وفيه عنه (ع) قيل له ما العقل؟ قال : ما عبد به الرحمان واكتسب به الجنان ، قيل : فالذي كان في معاوية؟ فقال : تلك النكراء ، تلك الشيطنة ، وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل.

الإنسان كإنسان ، إنها سمعه من العقلاء ، وعقله في نفسه ، ولتصبح حياته في ازدواجية مشرّفة لا يضل فيها ، وأما إذا حصر سمعه بالمضلات ، وعقله بالملهيات والشهوات فهو السعير في نفسه ، وإنما سعير النار صورة واقعية عن سعيره :

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ : كما سحقوا كيانهم الإنساني بسحق عقولهم ومحق فطرهم : بعّدوا عقولهم عن السمع ، وأسماعهم عن العقل ، فحرموا الحياة حق الحياة ، فهم يوم القيامة عن حياة الجنة مسحوقون : بعيدون.

﴿بِذَنْبِهِمْ﴾ : وهو هنا عدم عقلهم ، سواء عن سمعهم أو سواه ، فأكبر الذنوب عدم استعمال العقل ، لا عدمه ، فإنه الجنون الاضطراري ، والتكليف خاص بالعقلاء ، وإنما الذنب هو الجنون الاختياري ، للعاقل الذي لا يستعمل عقله حتى يصبح كأنه مجنون ، في تفكيراته وتصرفاته الفوضى.

ايقاظان :

قد يستند إلى هذه الآيات في انحصار عذاب النار بالكفار المكذبين للنذر : ﴿كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ .. فَكَذَّبْنا .. إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾ حيث العموم المستغرق لأهل النار في المكذبين الكفار! وهذا خلاف الآيات الشاملة لغيرهم ، أو الخاصة بمن سواهم من المتخلفين!.

والجواب نجده في الآية المسبقة : ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ ..﴾ فهم المعنيون ب ﴿كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ ..﴾ لا كل أهل النار ، وإثبات النار لهؤلاء الكفار لا ينفيها عن سواهم ممن يستحق النار ، وإنما اختص المكذبون بالذكر هنا لأنهم صلاء النار ووقودها ، وهم الخالدون فيها أبدا ، دائمون فيها ما دامت.

وقد يستند الجبرية هنا ب «لو» ـ الدالة على امتناع مدخولها ـ على أن سماعهم للحق وعقلهم عنه كان من المستحيل : ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ فكيف يلامون ويلومون أنفسهم؟

والجواب : إن كانت هناك استحالة فإنما هي بالاختيار : إنهم تمادوا في الطغيان حتى كأنهم أصبحوا طغاة في ذواتهم بما كسبوا : ﴿كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فمن رين على قلبه لا يستطيع السمع والعقل بما كسب ، ومن العقوبات الإلهية يوم الدنيا انه يزيغ قلوب من زاغوا : ﴿فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ :

الخشية خوف يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه ، ولذلك خص بها العلماء بالله : ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ﴾ (٣٣ : ٣٩)

والخشية العالمة من نتائج العقل الفعال ، فأصحابه يخشون ربهم ، يخشونه لما عقلوه وعلموه من ربوبيته لهم ولعالمهم ، وكلما ازدادت المعرفة هذه ازدادت الخشية ، وكلما ازدادت الخشية ازدادت المعرفة ، تناصرا في الزلفى ، ابتداء من العقل.

﴿بِالْغَيْبِ﴾ : غيب الرب ، فرغم أنه غيب عن الإحساس يخشونه ، لأن عقلهم عنه وعلمهم به جعلهم كأنهم يرونه : «اعبد ربك كأنك تراه وإن لم تكن تراه فإنه يراك».

و ﴿بِالْغَيْبِ﴾ : غيب العقل ، فبه يعرف الرب ويخشى ، فهو لا يعرف ويخشى بالحس «فلا يحس ولا يجس ولا يمس ولا يدرك بالحواس الخمس» وإنما يعرف بالعقل وبأصحابه من الفطرة والصدر والقلب ، عقل معرفة لا عقل إحاطة واكتناه ذات أو صفة.

و ﴿بِالْغَيْبِ﴾ : غيبا عن الناس ، بينه وبين ربه ، ولكي تسلم خشيته عن الرئاء ، طالما يخشاه في الناس أيضا ، فمن الناس من يخشى ربه عند الناس ، وإذا

خلى عنهم لا يخشاه ، أو لا كما يخشاه عند الناس ، ومنهم من يخشاه في الغيب إخلاصا في الخشية ، ثم قد لا يخشاه في الناس ، زعم أنه مزيد في الإخلاص! ومنهم من يخشاه في الغيب أكثر مما يخشاه علانية ، ومنهم من يعكس أمر الخشية هذه وهم الأكثرون ، ومنهم من يخشاه في الغيب والشهادة على سواء ، فلا يفرق له حضور الناس وغيبهم ، وهؤلاء هم الأقلون عددا ، وهم المعنيون هنا ، وإن خصت خشيتهم بالغيب هنا بالذكر ، لأنه الأصل فيها ، ثم من سواهم في هدى أو ضلال ، مهما اختلفت درجاته أو دركاته!.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ وهو غيب ، بغيب عقولهم ، وفي غيب عن الناس ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ : مغفرة لرفع ما ربما يعرضهم من خطأ وغفلة ، ودفع ما ربما يقصدهم ولما ، مغفرة دون عذاب ، ولأنهم تبنّوا حياتهم من خشية الرب ، وهي من أكبر كبائر الحسنات اللاتي يذهبن السيئات : ﴿إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ وأجر كبير لموقفهم هذا ـ الكبير.

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ :

أسروا قولكم : مع ربكم ـ في ذكره ودعائه وعبادته ، أو في معصيته ، أو اجهروا به ، فهما على سواء لربكم : ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ فالقول إبداء لما في الصدر ، والله عليم بذات الصدور ، أكثر مما يعلمه ذوات الصدور من أنفسهم.

فهل يجهر المؤمن بقوله لكي يعلمه الله؟ فلا يصلح هكذا جهر! أم يجهر لكي يتبعه غيره فيشاركوه في عبادة ربه؟ فنعم ونعما هو! أم هل يسر الكافر بقوله لكي يخفيه عن الله ، فالله عليم بذات الصدور! ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى﴾ فكيف بالجهر ، وتقديم السر هنا يوحي بما يروى أن الكفار كانوا يسرون من وقيعتهم

على النبي لكيلا يسمعه ربه فيخبره به [١] كما ويوحي بتقدم السر على الجهر إذ القول إنباء عما في الضمير ، والله تعالى خبير بما في الضمير ولما يظهر ، ثم خبير به إذا ظهر وهو أجدر ، فكأنه أخبر بالسر من العلن إذ قدم السر ، ولكنهما له سواء : ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ : صاحب الصدور ، فإذا هو عليم بأصحاب الصدور ذواتهم ، فكيف تخفى عنه الصدور ومطوياتها.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ : لطيف في ذاته فلا يرى ، ولطيف في خلقه و «بخلقه بلا علاج ولا أداة ولا آلة ، وإن كل صانع شيء فمن شيء صنع ، والله الخالق اللطيف الجليل خلق وصنع لا من شيء» كما عن الإمام موسى الكاظم (ع) [٢].

---

(١) عن ابن عباس : كانوا ينالون من رسول الله (ص) فيخبره جبرائيل ، فقال بعضهم لبعض : أسروا قولكم ـ لئلا يسمع اله محمد فأنزل الله هذه الآية.

(٢) اصول الكافي عنه (ع) في حديث طويل ، قوله (ع): انما قلنا اللطيف للخلق اللطيف لعلمه بالشيء اللطيف ، أولا ترى الى اثر صنعه في النبات اللطيف ، ومن الخلق اللطيف ، ومن الحيوان الصغار ، ومن البعوض والجرجس ، وما هو أصغر منها مالا تكاد تستبينه العيون ، بل لا يكاد يستبان لصغره ، الذكر من الأنثى ، والحدث المولود من القديم. فلما رأينا صغر ذلك في لطفه واهتدائه للفساد والهرب من الموت والجمع لما يصلحه ، وما في لجج البحار وما في لحاء الأشجار ، والمفاوز والقفار. وافهام بعضها عن بعض منطقها ، وما يفهم به أولادها عنها ، ونقلها الغذاء إليها ، ثم تأليف ألوانها حمرة مع صفرة ، وبياض مع حمرة ، وانه مالا يكاد عيوننا تستبينه لدمامة خلقها ، لا تراه عيوننا ، وتلمسه أيدينا ، علمنا ان خالق هذا الخلق لطيف لطف بخلق ما سميناه ...

﴿الْخَبِيرُ﴾ وعلى حد تفسير الإمام الرضا (ع): «وأما الخبير فالذي لا يعزب عنه شيء ، ولا يفوته شيء ، ليس للتجربة ولا للاعتبار بالأشياء ، فعند التجربة والاعتبار علمان ولولاهما ما علم ، لأن من كان كذلك كان جاهلا ، والله لم يزل خبيرا بما خلق ، والخبير من الناس ، المستخبر عن جهل ، المتعلم ، فقد جمعنا الاسم واختلف المعنى» [١].

وإن اجتماع الاسم واختلاف المعنى بين الخلق والخالق ، يعم الذات والصفات والأفعال أجمع ، فالموجود يطلق عليهما ، ولكنما حقيقة الوجود الإلهي تباين وجود المألوهين تباينا كليا ، ولا يعني باختلاف المعني ، اختلاف المفهوم فقط ، بل كلما وراء الاسم ، من مفهوم وحقيقة خارجية ، فكما أن واقع الوجود الإلهي يباين واقع وجوداتنا «باين عن خلقه وخلقه باين عنه» كذلك المفهوم من الوجودين ، فنحن نفهم من وجوداتنا ما نفهم ، ولا نفهم من حقيقة الوجود الإلهي إلا أنه غير معدوم ، وأما الإحاطة بوجوده ، أو إدراكه ولو شيئا ما ـ فلا!.

فالاعتراف بأنه خالق ، لزامه الاعتراف بعلمه ، إذ الخلق يلزمه اللطف

---

(١) أصول الكافي علي بن محمد مرسلا عن أبي الحسن الرضا (ع) ـ وفي تفسير البرهان ابن بابويه باسناده عنه (ع) قال : انما سمي الله بالعلم لغير علم حادث علم به الأشياء واستعان به على حفظ ما يستقبل من امره ، والروية فيما يخلق ويفنيه ما مضى مما أفنى من خلقه مما لو لم يحضره ذلك العلم ويعينه ، كان جاهلا ضعيفا ، كما أنا رأينا علماء الخلق انما سموا بالعلم لعلم حادث إذ كانوا قبله جهلة ، وربما فارقهم العلم بالاية فصاروا الى الجهل ، وانما سمي الله عالما لا يجهل شيئا فقد جمع الخالق والمخلوق واختلف المعنى على ما رأيت ..

والخبرة : العلم والقدرة والحكمة والبصيرة ، فالخلق الفوضى لا يأتي إلا بالفوضى والفتور والفطور ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ؟ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾!

فهما أنكر الماديون الخالق المجرد عن المادة ، فهل بإمكانهم إنكار الخلق ، وان خالقه عليم لطيف خبير؟! وإذا لم تدل حكمة الخلق وروعته وتناسقه وتلاؤمه ، على لطف خالقه وخبرته ، فهل تدل على جهله وفوضويته؟ فهل بإمكان الجهل والفوضى أن يأتيا بالحكمة ، وليس بإمكان العلم؟ إذا فعلى الجهال أن يحتلوا كراسي التدريس في مختلف العلوم ، ثم الأساتذة العلماء يعتبروا أنفسهم خدامهم أو تلامذتهم!.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ
(١٥) أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي
السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمنُ إِنَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنْ هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ إِنِ الْكافِرُونَ
إِلاَّ فِي غُرُورٍ (٢٠)

أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٢٢)

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾:

الأرض الذلول :

نستوحي من جعل الأرض ذلولا أنها كانت قبلئذ شماسا غير ذلول ، وبما أن الذلّ ما كان بعد تصعّب وشماس ، والذلول هي الدابة التي ذلت بعد شماس ، نتأكد أن أرضنا هذه تحكمها حركات متلائمة كالدابة الذلول ، لحدّ كأنها دابة ، وقد ذكرت لها مناكب كما للدابة : ﴿فَامْشُوا فِي مَناكِبِها﴾!.

فمن رحمته تعالى أنه جعل أرضنا الشموس ، المحترقة المجنونة ، التي ما كانت تذل لراكب ، ولا تحنّ لعائش ، جعلها لنا كالمركوب الذلول ، ممكّنة من الاستقرار عليها ، والتصرف فيها ، طائعة غير مانعة ، ومذعنة غير مدافعة ، ﴿فَامْشُوا فِي مَناكِبِها﴾ : في ظهورها وأعاليها ، ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾.

فيا لحركات الأرض من نعمة في ليونتها ونعومتها ، لحدّ ما كانت البشرية تحسها ولما ، ولا تصدقها حتى برهن لها العلم ، وقبله صرحت بها آيات بينات ، منها آية الذلول ، مهما أوّلها المفسرون الأول ، زعم سكون الأرض ، وحتى الآن لا يكاد يصدقها المؤمنون غير المثقفين!.

هذه الوالدة الحنونة ، تنوّم وتعيّش أولادها ، وأفلاذ كبدها ، بحركاتها

الناعمة اللينة ، حركات لولاها لا نصدمت الأرض ومن عليها ، بما لم يكن ليجبرها أيّ جابر.

فالأرض جعلت ذلولا في حركاتها وحرارتها وجرمها وكل ما يصلح للحياة فيها ، وهذه هي غاية الذل ومبالغته المستفادة من صيغة المبالغة «ذلول».

وآية القرار : ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً﴾ (٤٠ : ٦٤) ليست بالتي تسكن الأرض عن حراكها ، بل تقر الأرض في حركاتها ، إذ «القرّ» أصله البرد ، إيحاء بسابق حرارة الأرض وشماسها في حركاتها المجنونة ، فجعلها ذلولا ، ومن ذلّها قرارها : برودتها لحدّ تحنّ لعائشيها وراكبيها أن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه.

ثم نجد آيات : «الكفات» ، و «المهاد» ، «والراجفة التي تتبعها الرادفة» و ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ نجدها تصريحات في حركات الأرض ، كما درسناها وندرسها في طياتها.

فمن أسباب جعل الأرض ذلولا جبالها الرواسي وكما في خطبة لعلي عليه السّلام : «وعدّل حركاتها بالراسيات من جلاميدها» ومنها تبريدها عن حرارتها الزائدة ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً﴾ (٤٠ : ٦٤).

إن هذه الجبال الشاهقة الخشن الملامس ، الصعبة المسالك ، التي جعلت للأرض أثقالا وأوتادا ، وللخلق معقلا ، إنها مع سائر المرتفعات هي مناكب الأرض ، وقد ذللها الله تعالى على شموخها أن نمشي عليها ونستثمرها لصالحنا ، أو نفجرها أو نستفجرها لصالحنا ، ثم الأرض ذلول لنا ، لا ليّنة لا نتماسك عليها ، ولا صعبة لا نقدر على حفرها وزرعها ، ولولا أن الله تعالى جعلها ذلولا لما أمكنت من التصرف على ظهرها ، ولا مثبت قدم عليها ، ولا مسرح نعم فيها ، سبحان الخلاق العظيم!

﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ : أما كانت الأرض قبلنا ذلولا؟ وولادتنا نحن الأناسي من آدم ليست إلا زهاء مائة قرن ، والأرض تعيش وتعيّش العائشين عليها منذ ملايين السنين!؟

الجواب : أن «لكم» لا يخصنا نحن الإنسان من ولد آدم الأخير ، بل تعم كل من يستأهل الخطاب ب «كم» ممن عاش على وجهها منذ الملايين من السنين ، وكما عن الإمام الصادق عليه السلام : إن الله تعالى خلق ألف ألف عالم وألف ألف آدم وأنت في آخرهم.

ف «كم» هنا ، تعني عامة المكلفين العائشين على وجه الأرض ، منذ جعلت ذلولا ، أو ان الخطاب هنا تختصنا تشريفا وتكريما لنا ، كأنما الأرض ذللت لنا ، وقد كانت مذللة لمن سبقنا. فقد أخذت الأرض ـ بجوها ـ تقبل بخار المياه وتبدلها ماء ، وتقبل مياه السماء واختباءها في عيونها ، وإنبات الأرض نباتها ، فإعاشة حيوانها وإنسانها ، وكما نجد عرض التكامل الأرضي في الآيات من فصلت.

إننا ـ لطول ألفتنا بالحياة على هذه الذلول ، وسهولة استقرارنا عليها ، وسيرنا فيها ، واستغلالنا لتربتها ومائها وكلاءها وهوائها ـ نحن ننسى نعمة الله في تذليلها لنا ، والله تعالى يذكرنا إياها ويبصرنا بها في هذا التعبير العبير ، عديم النظير ، الذي كله علم وحكمة وموعظة وذكرى : يوحي ان هذه التي نراها مستقرة ثابتة ، هي كدابة دائبة الحركة متحركة ، رامحة راكضة مهطعة ، لا تبعثر راكبها ، ولا تتعثر خطاها ، ثم هي حلوب : ﴿فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾.

فيا لها من إشارة عابرة في الذكر الحكيم عن مركوبنا ، تحمل ما لم يتحمله العلم على تقدمه البارع ، مدى التأريخ وحتى الآن.

فالأرض ذلول في حركاتها حول نفسها وحول شمسها ، وهي معها حول فلك جماعي تحول حولها المنظومة الشمسية ، بسرعة على ترتيب : ألف ـ خمسة وستين ألف ـ عشرين ألف : ميلا في الساعة ، ومع هذه الركضات المسرعة يعيش عليها الإنسان آمنا دون اضطراب فيها ، ولا انفلات عنها ، ولا دوخة وارتجاج في مخه ، وفي كل هذه الدورانات حكم لا يحصيها العلم ، وإن وصل إلى بعضها.

والله تعالى جعلها ذلولا بآلاف من هذه المواقف الحكيمة الضرورية ، التي لولاها ، أو واحدة منها ، لاستحالت الحياة عليها أو صعبت ، وسوف نرسل البحث الفصل عن طائرتنا الجوية الكفات في سورة المرسلات ، لو ساعدتنا الحياة ، بتوفيق خالق الحياة والممات.

وهل لنا أن نأمن على هذه الأرض ، ولأنها ذلول؟ أما إن ذلتها ليست إلا بما جعلها تعالى لنا ، فإذا شاء يخسف بنا الأرض فإذا هي تمور ، أو يرسل علينا حاصبا!

﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ﴾ :

هل يا ترى إن الله ساكن السماء وما كنها حتى يخسف بنا الأرض منها! كلا! ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ﴾ (٤٣ : ٨٤) ليس له مكان ، لأنه الذي مكّن المكان! وإلهيته تشمل السماوات والأرض ، لا ذاته ، وإنما قدرته وعلمه وقيوميته!

الجواب : أن من في السماء إنما هم المدبرات أمرا بإذن الله ، لا ذات الله ، سبحانه وتعالى عما يصفون ، ومنهم ملائكة يصدرون عن أمره ويفعلون ما يؤمرون.

﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ : يشقها بكم ويغيّبكم فيها ، فإذا هي تمور : تتردد ذهابا وإيابا كالموج : ان يهزها هزا ويرجها رجا ، فهي تمور وتفور ، فتفرقكم في مورها من فورها ، فالذي جعلها ذلولا بعد شماسها ، هو القادر على أن يرجعها شموسا ماردا مائرا.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ : الحاصب : الريح التي تأتي بالحصى والحجارة ، وكما أرسلها على قوم لوط المجرمين : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ (٥٤ : ٣٤) ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ : نذيري؟ كيف حال المنذرين ، المؤمنين منهم والكافرين ، وكيف المنذرون ، فهل هم كما قلتم : في ضلال كبير؟ أم أنتم الأوغاد المناكيد!.

وإذ لم نر حتى الآن مور الأرض وحاصب السماء ، فقد رأينا الزلازل والبراكين التي تكشف عن الوحش الجامح الكامن في الدابة الذلول ، التي يمسك الله بزمامها فلا تثور إلا بقدر ، ولا تجمح إلا ثواني عدة ، يتحطم فيها ما شيدناه ، أو يغوص فيها إذ تفتح أحد أفواهها وتخسف قطعة منها وهي تمور!

﴿أَأَمِنْتُمْ﴾ أمان الغافل الناكر مكر الله ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ﴾ (٧ : ٩٩) ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٦ : ٤٧).

هذا! أما إذا أمنتم إلى الله ورعايته ورحمته ، فهذا من صفة المؤمنين ، لا يقودهم إلى الغفلة والانغمار في غمرة الأرض ومتاعها ، وإنما يدفعهم إلى الحياء من الله ، وأن يرقبوا أعمالهم ، ويربطوا بها أمنهم وآمالهم.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾ : نكيري عليهم بما أنكرت موقفهم كما أنكروني وعاشوا حياتهم نكيرا لي .. فنكيرهم كان انكار نعمة الله بعد ما عرفوها ، وإنكار طاعة الله وعبادته ، وإنكار نذره ورسله ، ونكير الله عليهم أنه ينساهم كما نسوه ونسوا سوء الحساب ، جهنم يصلونها وبئس المآب.

فنكير الله هنا هو الإنكار وما يتبعه من آثار الخراب والدمار ، تصف لهم كيف كان هذا النكير وما أعقبه من تدمير خطير.

فهل بإمكان الإنسان أيا كان أن يكافح نكير الرحمان ويدافع عن نفسه مور الأرض وحاصب السماء ، أو رجفة موضعية بسيطة ، أو حسبانا؟ قد يخيل إلى البعض من العميان المناكيد أن الإنسان هو سيد الكائنات ، وسوف يتمكن من كفاح الحوادث بقوة العلم ، وهذا تكذيب لوعود الله : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾؟

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾.

طير فوقنا حين الطيران ، صافات مبدئيا ، لأن الصفيف هو الباعث الأكثري الأصيل للمسكة والسير في الفضاء ، ويقبض ، كعملية هامشية في الطيران ، قبضا للتهيؤ والإمداد للطيران ، وللراحة ، وللطيران في بعض الأحيان.

أولم يروا ـ فيما يرون ـ من عجائب الخلقة والقدرة الإلهية ، مما يسبح في الفضاء دون عمد كسائر الأنجم بسمائها : ﴿رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾ ومن طائرتنا الأرضية الذلول الكفات السريعة السير والدوران ، كيف تسبح في فلكها مع رفيقاتها السابحات : ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ .. وَالشَّمْسُ .. وَالْقَمَرَ .. وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٣١ : ٣٣).

أولم يروا إلى أمثال هذه الطائرات السابحات؟ فمن هذا الذي يمسكهن إلا الرحمان؟ لا نقول : إنه يمسكها عن السقوط دون سبب طبيعي ، وإنما الأسباب الطبيعية هي أيضا منه وهو يمسكها ويسببها ، كانت ظاهرة لنا بمسبباتها ، أم خفية : سوف تظهر أم لا.

ولقد أخذت البشرية مثال الطير ، واختلق رمز مسكتها وطيرانها في الطائرات بعد أن سقطت ضحايا في دراسة الطيران من الطير [1] ، ابتدأت الخطورة الناجحة في صناعة الطائرات سنة ١٨٩١ م ـ إذ قام (ليليانتال) وراقب الطيور في حركاتها عشرين سنة متوالية ، وقال : إني درست من هذه الطيور أن سير الطيران يتم للإنسان إذا تسنت له قوة رافعة كافية لأن تدفعه بالسرعة

---

(١) منهم رجل ايطالي في بلاط الملك جيمس الرابع الاسكندري في بداية القرن ١٦ م ، وبعد قرن راهب الماني ، ثم مركيز فرنسي في أواسط القرن ١٨ م ، ثم عباس بن فرناس صاحب صحاح الجوهري ، حاولوا الطيران باجنحة من ريش تقليدا ناقصا عن الطير فأخفقوا جميعا.

الواجبة للارتفاع عن الأرض ، وحينئذ يمكنه أن يحوم في الفضاء كما يشاء ، ولكنه مع نجاحه المبدئي أيضا سقط من طائرته فمات سنة ١٨٩٦ ، وبعده ـ وعلى أساس فكرته وتجربته ـ قام شابان أمريكيان هما الاخوان (ويلبور) و (اورفيل رأيت) واستكملا ما تبناه المخترع الأول ، شيئا ما ، فطار أحدهما في الهواء أربعة وعشرين ميلا في ثمان وثلاثين دقيقة ، وهذا مبدأ فتح مملكة الفضاء ، وهكذا إلى أن وصلت الطائرات في سيرها سرعة الصوت!.

أفلم يروا ـ فيما رأوا ـ إلى طائراتهم صافات في جو السماء ، ما يمسكهن إلا الرحمان ، لأنه الخالق أسباب المسكة والطيران ، وخلق عقل الإنسان الذي استطاع به أن يكشف البعض عن رمز المسكة الجوية ، فهل تطير الطائرات وتمسك إلا بالبترول؟ وقد خلقها الرحمان! أو هل بإمكانها الطيران لو لم يخلق الفلز الخفيف المناسب لغزو الفضاء ، أو هل كان بمستطاعه هذا الاختراع لو لم يخلق له مثاله : الطير فوقه صافات ويقبضن! سبحان الخلاق العظيم.

ثم كم فرق بين طير الرحمان وطير الإنسان ، فطير الرحمان يطير بشعوره الذاتي المتصل ، بروح عاقلة فاهمة دون طيار غيره ، وطير الإنسان يطير بشعور منفصل ، بطيار الإنسان ، فيه ، أم في الأرض ، بسياقته المنفصلة. وهذا ليس بإمكانه أخذ البترول في الجو ، وبإمكان ذلك ـ ولو أحيانا ـ أخذ الغذاء والماء في جو السماء! طالما الاثنان من صنع الرحمان ، ولكنما الضعف في طير الإنسان ناشئ عن صنعه وقلة علمه : (وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)!

إن تلكم الخوارق نعيشها في كل لحظة ، مهما أنسانا وقوعها المتكرر ، فالطير في جو السماء ، حالة الصف الغالبة ، والقبض العارضة ، يظل في الهواء ، مشهد رائع ، ومنظر فائق لا يملّه النظر ولا تمليه الفكر ، وما يمسكهن إلا الرحمان ، برحمته التي وسعت كل شيء.

لا ننكر أن ذلك كله ـ على الأكثر ـ لأسباب طبيعته ، ولكن من ذا الذي خلقها وسبّبها؟ ومن الذي رتبها؟ : النواميس التي تكفل آلاف الموافقات ،

وتكلف آلاف المناسبات ، في الأرض والجو وخلقة الطير ، لتتم هذه الخارقة ، وتعم بانتظام دائب.

إنه ليس مسك الكون فقط من خالقه ، فمسكة الكون ، وترتيب الكون ، وتركيب الكون ، وآثار الكون وخواصه ، وما إلى ذلك من مسك ، ليست إلا من الرحمان : ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾.

ليست هنا وهناك فوضى ، دون بصيرة ولا هدف مقصود ، وإلا لا نخرط نظام الكون ، وبطلت قوانينه ، وبطل اكتشاف العلل من المعلولات ، وبطلت العلوم بأسرها!

هل تظن أن إمساك الدواب على الأرض الطائرة ، إنه أسهل من إمساك الطير في جوّ السماء؟ فهل يا ترى أيهما أصعب وأعجب؟ إمساك الطير ، أو إمساكه بما يحمله؟ والأرض طير تحمل البليارات من راكبيها ، أحياء وأمواتا : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً. أَحْياءً وَأَمْواتاً﴾ (٧٧ : ٢٥) كفاتا : تسرع في طيرانها ، متقبضة فيها أحياء ما عليها وأمواتها ، مكافحة قانون الفرار عن المركز ، وسوف يأتيكم نبأ الكفات في سورة المرسلات.

علك تسأل : لماذا القرآن لا يصرح بطيران الأرض ومسكتها في الجوّ ، فيمثل الطير؟ الجواب : انه يمن ـ فيما يمن علينا ـ بكفات الأرض ، منة عابرة ، كيلا تفاجأ بالتكذيب ، لأنه خلاف الحس العام ، فيخص التصريح ، والأمر بالنظر ، بما لا ينكره أي ذي بصر : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ﴾ ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٦ : ٧٩) ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ (٢٤ : ٤١).

جلنا جولات عاطفة عابرة ، كلها عبرة ، مع الأرض الذلول ، والطير الممسك ، ومع الخسف والحاصب ، ولم نجد لنا منها جنودا منفصلة من دون الرحمان ، بل هي والكون كله من جنود الرحمان :

﴿أَمَّنْ هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ ، إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾:

إنهم غرتهم الحياة الدنيا وغرهم بالله الغرور ، فظنوا أن ما نعتهم من الله آلهتهم التي ألهتهم عما يهمهم من متطلبات الحياة ، وجمدتهم على ما غرتهم ، فهل يجدون واقع النصر من جنودهم المزعومة من آلهة متفرقة مفتقرة إلى الله الواحد القهار؟

ثم رزق الله ، المحيط بهم في آفاقهم وأنفسهم ، المرسل من عند الرحمان بقدر معلوم ، فهل من مرسل لهم دونه ، إن أمسك رزقه؟

﴿أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ :

واللجاج في العتو والنفور ـ رغم لزوم الطاعة بوفور ـ إنه عادة كل كفور ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها﴾ (١٦ : ٨٣) ﴿أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (١٦ : ٧١)؟

يا ليتهم ظلوا دون سلب أو إيجاب ، ولم يضلوا هكذا في عتو ونفور ، في طغيان عات ، وإعراض نافر ، كأنهم يكافحون ألد أعدائهم ، وينفرون عمن يخاصمهم حياتهم! فيا لهم من حالة مزرية وقحة حمقاء ، فما لهم كيف يحكمون! وهذه هي مشية المكب على وجهه لا يعرف إلا هواه ، ولا يمشي إلى هداه :

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؟ إنها صفة من يخبط في الضلال ، أو يخرط الظلمات إلى النور ، أهما على سواء؟

الضال الخابط الهابط حياته ، كمن يمشي مكبا على وجهه ، إذ لا ينتفع بمواقع بصره وهو في وجهه ، وإذا كان الوجه مكبوبا على الأرض ، كان ماشيه كالأعمى وأضل سبيلا ، لا يسلك جددا ، ولا يقصد سددا ، فهو أبدا في بدد ، يعثر كل ساعة ، ويخر على وجهه في كل خطوة لاختلال قواه وانقلاب مشيه.

الأعمى الماشي برجليه ، قد يمشي على صراط مستقيم ، أو يمشّى عليه ، إذ لو فقد البصر ، لم يفقد البصيرة ، فهو يمشي بما به يمشى : برجله ، لا على وجهه.

ولكنما العاتي النفور الكفور يمشي مكبا على وجهه ، أفبإمكانه أن يمشي أو أن يمشّى؟ كلا ـ وإنه يظل مرتكسا في حمأة الضلال!.

إنه مثل ما ألطفه وأمثله ، لمن لا يعرف إلا نفسه بهواه ، فليست مشيته في الحياة ، في حركاته وتصرفاته ، في تطوراته وتفكيراته ، ليست إلا بغية الهوى وشهواتها ، فلا يبصر إلا هواه ، ولا يتبصر لهداه ، فهو في خوضه يلعب ، وفي غيه على عيه يتردد ، يمشي دوما إلى نفسه ، فهي غايته القصوى ، دون أن يمشي على صراط مستقيم : إلى الله ومعرفته ، وإلى صالح مجتمعه لمرضاة الله ، فهو كدودة القز ، ينسج حوله في كد ، ويحبس نفسه لصالحه ، ثم يخرقه لكي ينجو عن الخفق ، ولا يستفاد من نسجه لصالح غيره ، إلا أن يبتدره صاحبه ، فيقتله بماء ساخن رغما عليه ، فينتفع من نسوجه غير المخروقة!

هذا الذي يمشي مكبا على وجهه ، حياته مركوسة وقلبه منكوس [1] وهو منحوس ، لا يأتي حياته إلا بركسة ونكسة : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ (١٨ : ١٠٤)

* * *

---

(١) معاني الاخبار للصدوق ، والكافي بالإسناد الى سعد الخفاف عن الباقر (ع) قال : القلوب اربعة : قلب فيه نفاق وايمان ، وقلب منكوس ، وقلب مطبوع ، وقلب أزهر أنور ـ قلت : ما الأزهر؟ قال : فيه كهيئة السراج ، فاما المطبوع فقلب المنافق ، واما الأزهر فقلب المؤمن ، ان أعطاه الله عز وجل شكر ، وان ابتلاه صبر ، واما المنكوس فقلب المشرك ، ثم قرأ هذه الآية ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (٢٣)
قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ
(٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَقِيلَ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنا
فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ
هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ (٣٠)

* * *

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾:

﴿أَنْشَأَكُمْ﴾ : بأبدانكم : ﴿أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها﴾ (١١ : ٦١) وبأرواحكم : ﴿ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ﴾ (٢٣ : ١٤) وبما أن الإنشاء هو الإحداث والتربية ، لذلك يعم إحداث وتربية الإنسان بجزءيه ، كما وأن جعل السمع والأبصار والأفئدة ـ هنا ـ هو إنشاؤها : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ (٢٣ : ٧٨).

وإنشاء الإنسان هكذا وإن كان يشمل السمع والأبصار والأفئدة ، ولكنها خصت هي بالذكر إيحاء إلى أهمية الروح بين جزءي الإنسان ، ثم أهمية هذه الثلاث بين قواها الداركة ، ثم اختصاص الأولين بين الحواس لأهميتها بينها ، كما اختصاص الأفئدة بين المدركات الروحية لأنها أهمها ، كل ذلك : إضافة إلى شمول السمع والأبصار ، أبصار الفؤاد وسمعه ـ أيضا ، ولكنما الفؤاد يختص بقلب الروح فحسب.

نرى في ثلاثة عشر موضعا من القرآن قورن السمع بالأبصار ، قرن المفرد بالجمع! ولماذا؟ طالما الأذن يجمع بالآذان في مواقف الجمع : ﴿أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها﴾ و ﴿فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ﴾ ولا نجد الأسماع ولا مرة واحدة!

الجواب : عله أن السمع مصدر في أصله فلا يجمع ، كما : ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (٢٦ : ٢١٣) ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٥٠ : ٣٧).

وأن السمع ـ غير المصدر ـ قوة في الأذن ، وليس هو الأذن ، ولكل منا سمع في أذنين ، وليس بصر في عينين ، حيث البصر هو العين ، أو منه العين ، فلا يجب إفراده ، فالسماع أو قوة السماع لا يجمع ، إلا أن يعنى به ما للناس أجمع ، كما في القلوب.

وان السمع ـ عله ـ جمع ، أو مفرد وجمع ، كما عن سيبويه ، لذلك نرى صيغة الإفراد كأنه لزام السمع دون أخويه : الأبصار والأفئدة.

ثم السمع أفضل الحسين ، وكما أفرد بالذكر مع العقل : ﴿وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ وإنما الأبصار من مساعدي السمع والافئدة وقد يعم ـ كما هنا ـ سمع الأذن وسمع القلب بأذنه ، كما يبصر ببصره : ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ. أَبْصارُها خاشِعَةٌ﴾ (٧٩ : ٩) ﴿رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا

نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (٣٢ : ١٢) فإن بصر العين وسمع الأذن كان لهم ولكل الحيوان يوم الدنيا ، لا يختصان بيوم تبلى السرائر وتنكشف الحقائق.

كما وأن الأبصار تعم البصر والبصيرة ، بصر العين وبصيرة العقل والقلب والصدر والسر والخفي والأخفى.

والفؤاد كالقلب بتضمين معنى التفؤّد ، أي التوقد ، فالقلب المتوقد بنور المعرفة الفطرية ثم الاكتسابية على أساس الفطرة ، هذا هو قلب الإنسان ، وما به الإنسان إنسان ، دون القلوب المقلوبة الميتة التي لا وقود لها ، أو تتوقد بنيران الشهوات والتخلفات.

نقف هنا وقفة الحائر أمام خادمي الفؤاد : السمع والبصر وما فيهما من عجائب لم يبلغ العلم إلا إلى شيء منها يسير ، بجنب المجهول الكثير الكثير!

إن حاسة السمع تبدأ في القسم الخارجي من جهازها (التليفوني) «الأذن» ولا يعلم أين تنتهي إلا الله! والقسم الداخلي من هذا (التليفون) ، يأخذ بما فيه من «التيه» : الاهتزازات الواقعة على طبلة الأذن ، والتيه يشتمل على نوع من الألية بين لولبية ونصف مستديرة ، وفي القسم اللولبي وحده أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع في الرأس ، وفي الأذن مائة ألف خلية سمعية دقيقة تحير العقول [1].

«ومركز حاسة الإبصار هو العين التي تحتوي على مائة وثلاثين مليونا من مستقبلات الضوء ، وهي أطراف أعصاب الأبصار ، وتتكون الشبكية من تسع طبقات منفصلة ، والطبقة التي في أقصى الداخل تتكون من أعواد

---

(١) مقتطفات عن كتاب : الله والعلم الحديث للاستاذ عبد الرزاق نوفل ص ٥٧.

ومخروطات ، يقال إن عدد الأولى ثلاثون مليون عود ، والثانية ثلاثة ملايين مخروط» [١].

هذه من الهبات العظام التي منحها الإنسان ليشكر ربه فيها وبها ، ولكن : ﴿قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ فقليل منا شكور ، وهذا القليل كذلك قاصر عن أداء القليل من شكره ، فلنعترف بالقصور والتقصير بجنب الله ، عله يعفو عنا بفضله وكرمه.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ :

ذرأكم : أظهركم وأوجد أشخاصكم ، بعد ما كنتم خاملين تحت عموم التراب ، دون أشخاص ولا شخصيات ، ذرء أول ، إظهار أبوينا الأولين وإشخاصهما إلى الوجود ، وذرء ثان مواصلة ذرئنا في الأنسال ، الذراري من الآباء والأمهات : ﴿فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ..﴾ (٤٢ : ١١) : يبرزكم أنسالا في جعل الأزواج فلولاها لم تكن أنسال ، وكما يذرؤ الحيوان ومختلف النبات بالأزواج : ﴿وَما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ﴾ (١٦ : ١٣) كما وأن لذرء النبات والحيوان دخلا جوهريا لذرء الإنسان ، فقد زرعنا الله تعالى كالنبات من الأرض : ﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً﴾ (٧١ : ١٧) وذرأنا أولا وعلى طول الإنسان.

﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ : وسوف تحشر : تجمع ليوم الجمع ـ هذه الأنسال الكثيرة المختلفة ، ذرأكم في البداية ، وإليه تحشرون في النهاية ـ ف ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولى﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ :

فهل يا ترى أية علاقة لمعرفة وقت الحشر بصدق وعده؟ فإذا قال المسؤول :

---

(١) عن كتاب : العلم يدعو للايمان ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكي ص ١١٣.

سوف تحشرون بعد ألف سنة ، فهو صادق! وإن لم يدركان كاذبا! .. فأيّ منا يدري متى يموت ، رغم علمه أنه سوف يموت ، فهل لأحد منا نكران موته لأنه لا يدري متى هو؟.

أو لم يكف لتصديق وعد الحشر الجزاء عدل الله وحكمته ، ولو لم يعد به ، وقد وعد! أم لا يكفي شاهدا على إمكانية الحياة بعد الموت ، تواتر الموت والحياة ، متواصلة متعاقبة على الكائنات؟ مهما جهلنا وقت الحشر!

﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ : أنا نذير بين يدي عذاب شديد ، مبين في إنذاري في لغة الإنذار ، وكيفية الإنذار ، وحجة الإنذار ، لا أملك من موعد الحشر إلا الإنذار له ، وإنما علمه عند الله.

وهكذا تكون أسئلة الناكرين المعاندين للحقائق ، يدخلون أنفسهم في مآزق ويفضحونها ، زعم أنهم ناجحون في هزئهم بحملة الرسالات الإلهية.

وبينما هم يسألون شاكين هازئين متعنتين ، ويجابون عن حتم وجزم ، نراهم يفاجأون بخبر الحشر كأنه واقع ، فيجابون بواقع الجزاء عما يدّعون :

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾ :

فلما رأوا المحشر كما وعدوا به ـ رأوه زلفة : قريبة ـ وكل آت قريب ـ سيئت وجوه الكافرين به ، باديا فيها الاستياء ، ووجدوا جوابهم حاضرا حاذرا في تأنيب : ﴿هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾ : تطلبونه هازئين!.

يا ويلاه! كيف رأوه الآن وهم بعد أحياء ناكرون؟ أقول : هذه قفزة علمية ـ كأنها الواقع ـ يقفز بهم الله من الدنيا إلى قرب الحشر ، إلى أشراط الساعة ، طيا لخط الزمن الفاصل بين البعدين ، فإن الزمن إنما يقوم بالقياس إلى أهله ، الحاكم عليهم ، والمتصرف فيهم ، دون خالق الزمن ، الكائن قبله وبعده ومعه وإنّما يجذب الله الناكرين ، إلى موقف علمه تعالى وموقعه من الحشر ، برفع حجاب الزمن ، بعد ما رفع حجب الارتياب فيه كلها ، مواجهة حالة التكذيب بمفاجأة

شعورية تصويرية كأنها توقفه أمام الواقع ولما يقع ، توقفه على أشرافه وأشراطه فيقال : ﴿هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾! تطلبون هازئين متعنتين!

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنا فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾؟

توحي الآية بالبعض من أمانيهم الكاذبة : هل لنا الخلاص من محمد وحزبه؟ أن يهلكوا فلا نسمع بلاغهم الحار ليل نهار ، عن النشر والحشر ، في دار القرار؟ فجاء الجواب : أن لا صلة لهلاكهم أو رحمتنا لهم بإجارة هؤلاء من عذاب أليم ، فهل إذا انقطع النذير المخبر عن الله ، إذن ينقطع العذاب المخبر به ، فما كيد الكافرين إلا في تباب ، دون انقطاع العذاب!

ثم إنها تربط إجارة الكافرين من عذاب أليم ، ببقاء الرسول هاديا ومبشرا ونذيرا ، فبلاغه ليل نهار هو الذي يجيرهم من عذاب النار! وهذا إيحاء بأن حجة الرسالات هي أقوى الحجج ، لا أنها الحجة وحدها ، فلولاها لم يكن في سائر الحجج برهان يحتج به لعذاب المتخلفين ، فحجة الرسالات تكملة لحجج الفطر والعقول ، وإن كان دونها أعذار للقاصرين والمستضعفين ، فهم ﴿آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ﴾.

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ :

﴿هُوَ الرَّحْمنُ﴾ : رحمة تعم الخلق أجمع ، فكيف تشذ عن المؤمنين بالرحمان ، وهم مختصون بزيادة الرحمة وهي الرحيمية ، فهل يا ترى إن الرحمان الرحيم يهلك المؤمنين بمن فيهم الرسول الأقدس وهو أول العابدين ، يهلكهم لكي يقطع بذلك أخبار الوحي وإنذاره عن الكافرين. ﴿هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ﴾ لا سواه ، ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا﴾ لا على سواه ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ نحن المؤمنين ، أو أنتم الكافرين.

وهنا : أخيرا ـ لا يحتم الضلال عليهم رغم الحتم المبين! ـ ورغم كون الهدى ظاهر البرهان ، وإنما يرجعهم إلى أنفسهم ـ لو بقيت لهم نفوس إنسانية ـ حتى يدبّروا : ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾!.

فهل هذه البراهين تشي بالدمار على أفكارهم الخاوية ، أم على المؤمنين؟.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ﴾؟

.. إن أصبح ماؤكم الظاهر على وجه الأرض ، أو ماؤكم النازل من السماء : إن أصبح غورا : غائرا في العمق غائبا فيه : في عمق الأرض أو أعماق السماء ، فلم تستطيعوا له طلبا ، فمن هذا الذي يأتيكم بماء غيره معين ، ظاهر على وجه الأرض ، مشهود؟ أم إله غير الله يأتيكم به فكيف تأفكون ، وعلى أبواب الضلالة تعكفون!

الماء في كثير من المواضيع ـ ولا سيما هنا ، إذ يلحق ماء الحياة : الرسول الأقدس محمدا (ص) ـ إنه يشير إلى الحياة الروحية ، فلئن أصبحت رجالات الوحي غورا غائبا ، بالموت وانقضاء الوحي ، أم الانعزال عن بلاغ الوحي ، أو فترة الغيبة عن الناس ، فهل إله غير الله يرسل لكم رسلا مبشرين ومنذرين ، ودعاة مصلحين؟.

وهكذا تعني أحاديث الجري والتأويل ، بيانا لمصداق من المصاديق المختلف فيها بين المسلمين ، من الإمام الغائب المنتظر عليه السلام [1] وعلوم

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٨٧ في كتاب إكمال الدين وتمام النعمة عن الباقر (ع) في الآية : هذه نزلت في الامام القائم ـ يقول : ان أصبح إمامكم غائبا عنكم لا تدرون اين هو؟ فمن يأتيكم بإمام ظاهر يأتيكم باخبار السماوات والأرض وحلال الله وحرامه ، ثم قال : والله ما جاء تأويل هذه الآية ولا بد ان يجيء تأويلها.

وفيه عن عيون الاخبار عن أبي الحسن الرضا (ع) قال : لا بد من فتنة صماء صليم : (الداهية الشديدة) تسقط فيها كل بطانة ووليجة ، وذلك عند فقدان الشيعة الثالث من ولدي ، يبكي عليه اهل السماء واهل الأرض وكل حرى وحران : (امرأة حزينة ورجل حزين ،) وكل حزين لهفان ، ثم قال : بابي وامي سمي شبيهي وشبيه موسى بن عمران (ع) عليه جيوب النور تتوقد بشعاع ضياء القدس ، كم من حرى مؤمنة وكم.

الأئمة [١] ، وكما يصرح الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنه تأويل لا تفسير ، على حدّ قوله عليه السلام : إذا فقدتم إمامكم فلم تروه فما ذا تصنعون [٢].

هذا ، اعتبارا أن الأئمة من آل الرسول (ص) هم ـ بعلومهم وبلاغهم ـ استمرارية الرسالة المحمدية (ص) ، فهو الماء المعين النضب العذب النابع الفائض المتدفق ، وهم سواقيه الموصلة له إلى الأمة أجمع! اللهم صلّ عليه وعلى آله الطاهرين.

ـ من مؤمن متأسف حيران حزين عند فقدان الماء المعين ، كأني بهم آيس ما كانوا قد نودوا نداء يسمع من بعد كما يسمع من قرب ، يكون رحمة على المؤمنين وعذابا على الكافرين.

(١) المصدر عن الامام الرضا (ع) «سئل عن قول الله عز وجل ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ ..﴾ فقال (ع) : ماؤكم أبوابكم الأئمة والأئمة أبواب الله ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ﴾ أي : يأتيكم بعلم الامام».

(٢) المصدر علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر (ع) قال : قلت له : ما تأويل قول الله عز وجل قُلْ أَرَأَيْتُمْ ... فقال :

سورة القلم ـ مكية ـ وآياتها اثنتان وخمسون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ن وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ (١) ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ
مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ
فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ
(١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كانَ ذا مالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ
أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾(١٦)

.. تسليات لخاطر النبي الأقدس محمد (ص) أن هتكوه وبهتوه وكل شيء فعلوه مسا بكرامته ، وإنها تحمل التصريح بأعظم المقامات الرسالية والولايات الإلهية ، تختصها به (ص) : أن جاء بما جاء به النبيون وزيادة ، كأنه النبيون أجمع ، وكتابه الكتب وزيادة ..

تبتدئ السورة بنداء الرسول رمزيا ب ﴿ن﴾ علها تعني «النبي» كأن النبوة تختصه وهو مختص بها! وشاهدا عليه هنا الخطاب اللاحق : ﴿ما أَنْتَ ..﴾ ومن تفسير أهل البيت قول باقر العلوم عليه السلام : إن ﴿ن﴾ من أسمائه المذكورة في القرآن [١] ويا له من إيحاء لطيف : أن النبوة تختصه لحدّ أصبحت من أسمائه ، فهو كيانه النبوة ، وكله نبأ الغيب ، لا يحمل من الأرض إلا الجسد ، وهو أيضا تبدّل نورا لحدّ أصبح ألطف من أرواحنا وعقولنا ، ومن أرواح الملائكة! وكما يروى أنه (ص) لم يكن له ظلّ.

نراه يخاطب في القرآن ـ أكثر ما يخاطب ـ ب : النبي ، الرسول ، فهما ﴿ن﴾ لأن النبوة وهي الرفعة ، إنها مرتبة شامخة من الرسالة ، فليس كل رسول نبيا مهما كان نبيئا.

وإذ قد نرى أحاديث عدة أن ﴿ن﴾ نهر في الجنة جعله الله مدادا يكتب به ما هو كائن إلى يوم القيامة وهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها [٢] فهي ترمز إلى موقف النبي (ص) في علمه المكنون ، كأنه النهر المداد الذي نسخت عنه كتابات الوحي كلها ، وهي النعمة الوحيدة ، والكرامة الفريدة التي اختص بها بين العالمين من النبيين والملائكة وكافة الروحانيين!

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٨٧ في الخصال عن الباقر (ع) قال : ان لرسول الله (ص) عشرة أسماء ، خمسة في القرآن وخمسة ليست في القرآن ، فأما التي في القرآن : محمد واحمد وعبد الله ويس ون».

(٢) نور الثقلين ٥ : ٣٨٧ عن تفسير القمي عن الصادق (ع).

ف ﴿ن﴾ هو النبي ، وهو النهر المداد ، فهو النبيون أجمع ، وقرآنه هو الكتب أجمع.

﴿وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ﴾ : قسما بالقلم : آلة الكتابة أيا كانت ، وبما سطر به من وحي على لوح قلبك المنير ، وعلى حد تعبير الرسول (ص) نفسه في الآية : «لوح من نور وقلم من نور يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة» [1] ، وقسما بأقلام أنوار الوحي كلها ، وأقلام الإلهام التي تكتب الإيمان والتأييد في قلوب المؤمنين : ﴿أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ وأقلام الرحمة الرحمانية العامة للعالمين ، وكالأقلام الضوئية والصوتية ، وأقلام التصوير في الأرحام ، وأقلام القضاء والتقدير ، وأمثالها من أقلام تسطر ما يصدر عن مصدر الوحي : تكوينا وتشريعا ، تكليفا وسواه.

ثم الدرجة النازلة من القلم هي أقلام الكتّاب منا ، وهي من أكبر النعم الإلهية ، والكتابة عنصر أساسي في النهوض بمهمة القيادة الصالحة الرشيدة ، يقسم الله هنا ـ ضمن ما يقسم ـ بقلمها بين الأقلام ، فيمن؟ في الأمة التي لم تكن آنذاك تتجه إلى التعلم عن هذا الطريق ، وكانت الكتابة فيها متخلفة نادرة! وفي الدور المقدّر فيه للرسالة الإسلامية : نقل هذه الأمانة الكبرى وما يقوم عليها من مناهج الحياة إلى أرجاء البسيطة!

ففيه تنويه مليح بقيمة الكتابة ، وإيحاء بنفي تهمة الكتابة والاكتتاب عن محمد الأمي : ﴿وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ فدفع تهمة الاستكتاب والاستنساخ واجب مبدئي لهذه الرسالة السامية ، فأميته قبلها ، هي من فضائله ، وإن كان أخذ يكتب ويقرأ منذ الرسالة إلى أن قضى نحبه!

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٥٠ عنه (ص) في قوله تعالى ﴿ن وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ﴾.

قسما بهذه العطية الربانية التي ما لها من فواق ، وهي تشهد لوفور عقلك ورجاحته على عقول العالمين :

﴿ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ : ان النبوة المحمدية وهي أعظم النعم الروحانية الإلهية ، إنها برهان على أنك العقل كله ، فكيف يفترى عليك بالجنون ، فمهما كانت النبوة بذاتها خفية ، ولكن آثارها المسطورة بأقلام الألسن وسواها ، تدل عليها ، فهل يا ترى إن عقل الوحي يجنن؟ ومن رشحاته تكمل العقول الناقصة ، وتتكامل العقول الراجحة! وعلى أضوائه يعرف الغث من السمين ، والخائن من الأمين! .. ﴿ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ : بسببها أو مصاحبتها : ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ فنعمة الوحي لا تصاحب الجنون ولا تسببه.

فهل هذا من حكم العقل السليم : أن نعمة النبوة تسبب الجنون أو تصاحبه ، فهل يا ترى إن التحلل عن وحي السماء يمنع الجنون ويسبب العقل؟ فما نسبة الجنون إلى صاحب الوحي إلا نسبته إلى الموحي! فهل الله أيضا مجنون؟. وما هذا الهراء إلا كالقول : إن صاحب المليار فقير ، وحامل العلم جاهل!

عجبا من هؤلاء الذين كانوا يرون محمدا قبل النبوة أعقل العقلاء ، فلما اتصل عقله بخالق العقل وحيا قالوا : إنه لمجنون ، ولكي ينفّروا الناس عنه.

إن العجب ليأخذ كلّ من درس عن سيرة الرسول (ص) شيئا ، من تقوّلهم هذا عنه : مجنون وهم الذين عرفوه برجاحة العقل بينهم حتى حكموه في رفع الحجر الأسود قبل النبوة بأعوام ، ولقّبوه بالأمين ، ولكنما الحقد يعمي ويصم ويقذف بالفرية دون حساب.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ : غير مقطوع عنك ولا ممنون عليك ، رغم المنة الإلهية في نعمة النبوة على النبيين وعلى الخلق أجمعين ، ولكن أجرك ـ وهو فوق أجور الخلائق ـ لا يمن به عليك ، ولأنك صبرت على الأذى ، واستقبلت كل لظى في سبيل الدعوة ، بخلق عظيم ، وليس عدم المنة عليه لأنه

يستحق أجر الرسالة ذاتيا ، وإنما هو إكرام له ثان بعد الأجر الأبد ، فانقطاع الأجر ينقصه ، والمنة عليه ينغّصه ، وأجر الرسول غير الممنون من الجهتين ، كرامة تختصه دون سواه من حملة الرسالات الإلهية ، وإنه إيناس خاص كتعويض فائض غامر ، عن كل حرمان وجفوة وبهتان يرميه بها المشركون ، فلو حرم عطف المشركين ، فقد زوّد بعطف رب العالمين بما لا مثيل له في ملأ العالمين ، فالله تعالى هو أجره ، ورحماته غير المحدودة هي أجره وهما غير مقطوعين عنه في كافة مراحل حياته.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ لأنك تخلقت بأخلاق الله العظيم وتأدبت بآدابه : فما أحسنه وأحلاه أن تكون خلق الرسول محمد عظيما عند الله ، ولا عظيم فيمن سواه تعالى إلا وهو صغير بجنبه! وما أحراه (ص) أن يستعظمه ربه في خلقه ، ولأنه رباه : «أدّبه فأحسن أدبه ، فلما أكمل له الأدب وانتهى به إلى ما أراد ، قال له : ﴿إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] إذا فخلق الرسول هو منتهى ما أراد الله من أول العابدين ، ولو كان بالإمكان أن يزيد لزاد.

فالرسول محمد (ص) بكيانه ككل ، هو منتهى الرحمة والنعمة الإلهية ، الممكن إيتاؤها لمن سواه ، وما أحلى ما وصفه به سليمان عليه السلام : وكولو محمديم : وكله في غاية المحمودية [2]!

ولتمامية خلقه العظيم ولأنه أفضل أو تمام ما أتى به البنيون ، يقول (ص): إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٨٩ ـ عن الكافي عن الامام الصادق (ع) قال : رواه فضيل بن يسار عنه (ع) وروى إسحاق بن عمار اضافة «وانتهى به الى ما أراد».

(٢) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية).

﴿إِنَّكَ لَعَلى﴾ : لا يقول إن لك خلقا عظيما ، فقد يملك الإنسان أمرا ثم يفقده ، بل ﴿إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ : ف «على» توحي بعلوه على خلقه العظيم ، علوا مؤكدا لا يزول ، كما توحيه حرفا التأكيد «إن ـ ل» فقد مزجت الخلق العظيم ذاته لحد لن تنفصل عنها ، بعصمة وعناية خاصة ربانية ، فلقد كان خلقه القرآن مزيجا بقلبه المنير ، ظاهرا في أعماله بقلبه وقالبه ، فهو هو القرآن الناطق «أنا القرآن والسبع المثاني. وروح الروح لا روح الأواني» فكيف لا تكون خلقه عظيما وقد تجلى الله لسره بأنوار أخلاقه كما يمكن للمكنات ، وقد بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، فليكن هو على تمامها قبل تميمها للناس ، فلم يبق بعد هذه البعثة الأخلاقية سفساف أخلاق أبدا إذ أبان لنا عن مصارفها كلها.

وبما أن مادة الخلق من الخلق ، فلتكن كما الخلق ، كأنها من كيان الإنسان ، مخلوقا معها ، وليست إلا بسعيه الجميل ، بين عنايتين إلهيتين ، فطرة الحق ، وتأييد الله لمن يتبنى الفطرة في استزادة من الخلق الطيبة ، ثم علوه (ص) على هذا الخلق ، كأنه يجعله أعمق من ذاته وأبقى ، كأنه هو الخلق العظيم لا غيره.

وإن سيرة الرسول الأقدس ، المجيدة ، تتجاوب تماما والثناء الفريد ، شهادة من الله ، في ميزان الله ، لعبد الله : أول العابدين ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ تتردد هذه الشهادة الإلهية في الملأ الأعلى بين النبيين والملائكة ، في كلمة لا يعرف مداها وصداها إلا قائلها ومن ألقيت عليه!

وهل يا ترى إن محمدا يفقد توازنه في هذا الثناء المجيد؟ كلا! ولأنه على خلق عظيم ، أو ترى انه تتأرجح شخصيته وتضطرب تحت وقعه ، ويتبهّج به ، وينسحق تحت ضغطه الهائل فيرضى عن نفسه ويطمئن لها وإليها فيلهو؟ كلا! ولأنه على خلق عظيم ، فمن هذا الإنسان الذي يستطيع حمل هذه الرسالة الصعبة ويتحمل أعباءها ووزرها ، إلا محمدا العظيم ، الذي هو على خلق عظيم؟ أجل : انه محمد وحده الذي يرقى إلى هذا الأفق المبين.

ثم نجد لهذه الكلمة اللفتة دلالة باهرة على تمجيد عنصر الأخلاق في ميزان الله ، وأصالته ، كأنه الكل من الحقيقة الإسلامية ، ولذلك يعلن : بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ، كأنما الرسالة المحمدية لا تعني إلا تتميم مكارم الأخلاق.

ليست هذه مبالغة ، طالما الأخلاق تشمل الفضائل العقائدية والأعمالية والأقوالية ، ومن ثم : فردية وجماعية ، ثم بين الإنسان ونفسه ، وبينه وبين ربه ، وبينه وبين مجتمعه ، فهل بعث النبيون إلا لهذه ، طالما اختصت لغة الأخلاق الحسنة بزاوية خاصة منها هي تحسين العشرة؟ وهي السجايا الفاضلة : المدركة بالبصيرة ، ومن ثم : الظاهرة بالبصر.

فللأخلاق معنى عام ، وآخر خاص ، والأول هو المعني من غاية البعثة المحمدية تكميلا.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ. بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ : مهما كنت بصيرا بحالك القدسية ، وانك كل العقل وكلك عقل ، وإن مناوئيك كل الجنون وكلهم مجانين ، فأنت أنت تبصر دونهم ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ : في المستقبل مع بعض ، يبصرون كما تبصر ﴿بِأَيِّكُمُ﴾ العقل ﴿الْمَفْتُونُ﴾ : المبتلى بالجنة ، وبأيكم العقل المتحلل عما يحجبه ، المتفتح بما يشرحه ويكشفه ، فسوف يكون الإبصار مليا يوم الدنيا لمن يبصر ، وعاليا يوم البرزخ إذ يكشف الغطاء ، وأعلى يوم الحشر إذ لا يبقى خفاء ، ولات حين مناص.

إن تقولاتهم المجنونة ليست عن جنون خلقي يرفع التكليف ، إنما بما جننوا أنفسهم وختم الله على قلوبهم : ﴿فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ : فما أجهل من يحسب المهتدي الهادي ضالا ، ويحسب نفسه الضالة مهتديا ، وما أحلى من يعلم الضال عن المهتدي ، مهما أخطأ أحيانا في قدرهما أو مواضعهما ، وما أعظم علم الله بهما وبكل شيء ، إذ لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء! فالضال

عن سبيل الله هو المجنون إذ يتجاهل أو يجهل خيره عن شره ، والمهتدي هو العاقل.

﴿فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ. وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ :

الطاعة المنهي عنها هنا هي مداهنتهم في الدين كما ودوها : ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾ : تداريهم وتماريهم تاركا جدّ الدعوة إلى الملاينة والمصانعة ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ : يمارونك ويدارونك ، بقسمة البلد بلدين ، بمحاولة أنصاف حلول ، وإن هذا إلا مكر يمكرونه دون أن يرجع بالضرر إلا إليك ، لو أنهم أنصفوا كما يعدون ، ولكنهم كاذبون ، فلا تصلح لهم إلا القول : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فليست الديانة تجارة تقبل الالتقاء في منتصف الطريق ، إنها عقيدة تمازج لب الإنسان وعمقه ، والتنازل عنها تنازل عن لب الإنسان ، والهوة بينها وبين الجاهليات ليست بالتي تعبر ، أو تقام عليها قنطرة.

إن الرسول (ص) كان ـ وكان عليه أن يكون ـ ألين الناس وأدهنهم فيما لا يمس من كرامة العقيدة والدعوة ، وهو أصعبهم تصلبا في الدين ، لا يداري ولا يماري أحدا ، وهكذا يجب أن تجابه الجاهليات أبدا ، بالنضال الفصال الذي لا مداهنة فيه ولا دلال ، صمودا صارما واصبا في دين الله ، دون تمحّل فيه ولا تمهّل ، وإنما تنكّل بالأعداء المحاربين ، السافرين في عدائهم والمنافقين ، ولم يكن الرسول يدهن ، وكما توحيه حرف الامتناع «لو».

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ﴾ : تبدأ أنت بالمداهنة والتنازل عن بعض الشيء من شريعة الله : ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ كما يزعمون ويدعون ، وان رزقهم من شريعة الحق هو التكذيب به : ﴿أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ. وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (٥٦ : ٨٢).

﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ. هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ. مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ. عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ﴾ :

نهي ثان يعم كل من فيه هذه الصفات التسع ، وهي رؤوس رذائل الأخلاق ، وقد نزلت بشأن ألعن الشانئين برسول الله : الوليد بن المغيرة ، إذ وقف وقفته العنيدة ضد الدعوة الإسلامية ، وكما نزلت في الآيات في «المدثر» : ذرني ومن خلقت وحيدا .. إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا .. سأصليه سقر .. حملات منقطعة النظير ضد هذا الوحيد في كفره وفسقه .. ثم وتشمل الآيات كل من حذا حذوه في هذه الملعنات ، الصفات التسع الموبقات :

فهو «حلاف» : يحلف كثيرا ، ودون ضرورة ومواربة ، مما يكشف عن كثرة كذبه ، وعدم اكتراسه واحتراسه بساحة الربوبية.

و «مهين» : حقير الرأي والتدبير لا يثق بنفسه ولا يثقون به ، ولذلك يحتاج إلى الحلف الكثير في كل جليل وحقير.

و «همّاز» : عياب طعّان يلوي شدقيه في أقفية الناس ، يعيش همز الناس وكأنه هو وحده بريء.

وفي الحديث : «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس» : شغلا عن همزهم وتعييبهم ، لا عن نهيهم ، بالحكمة والموعظة الحسنة فإنه فرض.

«مشاء بنميم» : يمشي بين المتحابين بعدائهم لبعض ، وبين المتعاندين ، ليزدادوا عداء.

«مناع للخير» : يحاول دائبا لصد سبل الخير على الناس ، وكان للوليد عشرة من البنين وأموال غزيرة ، يهددهم وسائر أقاربه ، من تبع منكم دين محمد لا أنفعه شيئا أبدا.

«معتد» : يجاوز الحق ، ويتجاوز على أهل الحق.

«أثيم» : كثير الإثم : وهو كل مبطئ عن الخير والثواب ، وكأن الإثم أصبح لذاته لزاما لا يستطيع تركه!

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ﴾ : والعتل هو الأخذ بمجامع الشيء وجره بقهر ، والعتل هو كثير الأخذ هكذا ، فهو الآخذ بمجامع الرذائل ، يجرها إلى نفسه وإلى مجتمعه بعنف ، لفظة تخبر بجرسها عن مدى معناها في العتل السوء ، وجره وجمعه : فهو الغليظ الجافي المريد ، الشره المنوع العتيد ، الأكول الشروب الحريص العنيد ، اللئيم «الزنيم» : الذي لا أصل له وهو زائد في قومه ، الدعي الملحق بمن ليس هو منه «زنيم ليس يعرف من أبوه ـ بغيّ الأم ذو حسب لئيم» ويا لها من رذائل قلما تجتمع في شخص واحد ، اللهم إلا وحيدا : ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾! وكل هذه الميوعة والرعونة :

﴿أَنْ كانَ ذا مالٍ وَبَنِينَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ :

أساطيرهم وخرافاتهم ، رغم أنها آيات الله ، تدل بنفسها أنها إلهية وليست بشرية ، ولو من أعقل العقلاء ، فضلا عن الرجعيين الخرافيين!

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ : سنعلمه بعلامة يعرف بها على خرطومه : أنفه ، إذ بلغ في استكباره لحد كأن له الخرطوم ، والفيل يبالي بخرطومه ويفتخر ، وكذلك هذا الزنيم يشمخ بأنفه : ان كان ذا مال وبنين؟

إن خراطيم المستكبرين موسومة بالحق يوم الدنيا ، يعرف وسمتها وصمتها العارفون ثم يوم البرزخ والرجعة [١] والقيامة. تبرز الوصمة وتعلم ، ولكي يعرفهم المحشورون معهم أجمع : ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ﴾.

ولقد وسم الله وحيدا على خرطومه «أنفه» يوم بدر إذا صاب أنفه جراحة فادحة بقيت علامتها كما قيل ، ووسمه الله يوم البرزخ ، وسوف يسمه يوم القيامة شر وسمة ووصمة يعرف بها بين أهل الجمع أنه الوحيد الشرير الأثيم الزنيم.

---

(١) القمي في آية الوسم : قال قال (ع) في الرجعة إذا رجع امير المؤمنين (ع) ورجع اعداؤه فيسمهم بميسم معه كما توسم البهائم على الخراطيم : الأنف والشفتان.

أقول : وهذا من باب الجري على بعض المصاديق المختلف فيها.

﴿إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخافَتُونَ (٢٣) أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْها قالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (٣٠) قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ (٣١) عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ (٣٢) كَذلِكَ الْعَذابُ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾(٣٣)

* * *

مشهد من مشاهد التخلف والتمرد يحمل طرفا من بلوى الدنيا لمن أجمل عن ذكرهم ب ﴿أَصْحابَ الْجَنَّةِ﴾ : بستان ملتف الأشجار ، يجن بعضها بعضا ، لحدّ استحق اسم الجنة التي قلما تعني الدنيوية.

هذا المشهد يصور جانبا من اللؤم البشري : اللااستثناء فيما رزقهم الله من نعمته ، تعاميا عن حقوق الفقراء ، تفانيا في جمع المال لما.

﴿إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ وَلا يَسْتَثْنُونَ﴾.

﴿إِنَّا بَلَوْناهُمْ﴾ : هؤلاء الكفار المتهمين لك بالجنون ، فابتلوا بعذاب الدنيا وبلائها قبل الآخرة [1] ﴿كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ﴾ : البستان الملتف الأشجار ذات الثمار ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ : بالله تعالى حلفا به سبحانه ﴿لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ. وَلا يَسْتَثْنُونَ﴾ : لا استثناء بمشيئة الله في صرمهم ثمارهم مصبحين ، ولا استثناء لحقوق الفقراء بعد صرمهم ، ويا له من حلف خاطئ لا يلزم عليهم شيئا إلا ازدواجية الإثم : بحق الخالق والمخلوق ، فقد قرّ رأيهم هكذا على أن يصرموا : يقطعوا ـ ثمارها عند الصباح الباكر ، مبيّتين هذا الكيد اللئيم إذا ناموا ، ولكي يفاجئوا الفقراء بصرمهم ولا يستثنون لهم شيئا ، فقوبلوا بمفاجأة العذاب الصارم قبل صرمهم ، فصرم الله ثمارهم قبل صرمهم ، ﴿فَطافَ عَلَيْها﴾ : الجنة ﴿طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ : طائف رباني يذكر الغافلين التائهين : أن الصرم بالصرم ، والجرم بالجرم ، جزاء وفاقا! ﴿وَهُمْ نائِمُونَ﴾ كما احتالوا في حرمان الفقراء النائمين.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ : كالمقطوعة ثمارها ، المقطوع عنها كل خير ، كالرملة المنقطعة عن الرمال ليس فيها نبات ، أصبحت كالليل المظلم في سوادها بصرمها ، فقد صرم الطائف الرباني كل خيراتها فأصبحت قفرا لا ماء فيها ولا كلاء ، وكل هذه يشملها الصريم.

﴿فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ﴾ تواصيا في حماس وحرص وحراس ﴿فَانْطَلَقُوا﴾ : مروا متخلفين

---

(١) القمي عن الباقر (ع) في الآية : ان اهل مكة ابتلوا بالجوع كما ابتلي اصحاب الجنة وهي كانت في الدنيا وكانت باليمن يقال له الرضوان على تسعة أميال من صنعاء.

كأنهم يفرون من أسد ﴿وَهُمْ يَتَخافَتُونَ﴾ : تخافتا في الإقدام وفي الكلام ، وتخافتا في وطء الأقدام ، سدا لباب الاطلاع ، وصدا عن دخول المساكين : ﴿أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ﴾ : الذي أسكنه العدم عن حركات الحياة ، فلا يتحرك إلا بغية تحصيل بلغة العيش ولقمته ، فهؤلاء اللئام يحتالون هذه الحيل ، كيلا يفاجئهم مسكين ، ففاجأهم قبل صرمهم صرم من رب العالمين ، فأصبحت كالصريم! ﴿وَغَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ﴾ : غدوا أمام أملهم الوحيد ﴿عَلى حَرْدٍ﴾ : منع عن حدة وغضب ، ممتنعين من تناول الثمر وصرمه إذ وجدوه صريما ، ﴿قادِرِينَ﴾ : لم يمكنهم صرمه وهم قادرون عليه لو كان ، فلم يمنعهم عجزهم عن صرمه إلا انصرامه قبلهم فما ذا يصرمون؟ ، وقادرين على منع الفقراء بهذه الحيلة لولا الصرم الإلهي ، فهم على قدرتهم في الصرم وفي منع الفقراء ، امتنع لهم صرم الثمرة بانتفاء الموضوع! ﴿وَغَدَوْا عَلى حَرْدٍ﴾ منع للمساكين ـ ﴿قادِرِينَ﴾ : مقدرين أنهم سيصرمونها ويمنعونها المساكين ، ﴿فَلَمَّا رَأَوْها﴾ : الجنة ﴿قالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ : عن الصواب في غدوّنا هكذا ، أو ضللنا عن طريق جنتنا! إذ لم تكن تشبه جنتهم ولا أية جنة! ثم نظروا إليها ثانية فتأكدوا أنها هي ، ولكنها ـ ويا للعجب ـ صريمة خاوية على عروشها ، فعدلوا عما احتملوا من ضلال الطريق ، إلى ضلال الصراط ، وهو الحرمان الإلهي عما أملوا : ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ هذا هو الخبر اليقين ، وقد حاقت بهم عاقبة البطر والمكر ، ثم حاق بهم التنديد الشديد من أوسطهم : أعدلهم وأعلمهم في الرأي ، بين مفرطهم ومفرطهم :

﴿قالَ أَوْسَطُهُمْ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لا تُسَبِّحُونَ﴾ : وهنا يفتحون الآذان للناصح وقد فات الأوان ، ﴿لَوْ لا تُسَبِّحُونَ﴾ : ولم يكن منهم من عدم التسبيح إلا ترك الاستثناء في حيلة ومحاولة حمقاء ، فتنزيه الرب تعالى في صفاته ، من لزامه الاتكال عليه ، والاستثناء بمشيئته : ﴿إِنْ شاءَ اللهُ﴾ فعدم الاستثناء بالمشيئة استقلال لمشيئة العبد ، وشركة مع الله في المشيئة المستقلة ، وتنزيهه تعالى فيما سن من أحكام العدل ، وتطبيقه ، ومنه الاستثناء للفقراء ، فعدمه شركة معه في

التشريع ، ومحاولة لعدم تطبيقه ، صدا عن نفاذ حكمه من ناحيتين : عدم استثناء لهم ، وعدم فسح المجال لهذا الاستثناء على أية حال! إذ انطلقوا مصبحين الى حرثهم غادرين ، فرارا عن تحقق حكم الله!

وهنا لم يكن الا الاعتراف بنزاهة الرب وظلمهم أنفسهم : ﴿قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ﴾ : منتقصين حق الفقراء ، وبحق الرب تعالى إذ حاولنا الفرار عن حكمه ، فباغتنا بطائف منه فأصبحت كالصريم.

وإنهم على حد تعبير الرسول الأقدس (ص): قد حرموا خير جنتهم بذنبهم [١].

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ﴾ : كلّ يوجه اللوم إلى الآخر ، قبل أن يوجهه إلى نفسه ، ولكنهم تنبهوا أخيرا أنهم ملومون أجمع ، مهما كان اللوم مزدوجا على من ضل وأضل ، وفردا على من ضل ، أو تماشى مع الضالين كأوسطهم ، فاعترفوا جميعا بطغيانهم : ﴿قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ﴾ : طاغين على ربنا في هذا التدبير الماكر فرارا عن حكمه ، وعلى المساكين فرارا عن دخولهم جنتنا ، وأخيرا طاغين على أنفسنا أن خسرنا الجنة بأسرها : في ظلمات ثلاث! فهل من مجير؟ أجل ـ وما دامت المهلة باقية ولما يأت الأجل ، ومن أوليات الواجبات على التائبين الاعتراف بالذنب ، راجين رحمة رب العالمين ، وقد فعلوا :

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٥٣ عن ابن مسعود قال : قال رسول الله (ص): إياكم والمعاصي ، ان العبد ليذنب الذنب فينسى به الباب من العلم ، وان العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل ، وان العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقا قد كان هيئ له ، ثم تلا رسول الله (ص) ﴿فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ قد حرموا خير جنتهم بذنبهم.

﴿قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ. عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ﴾ :

فالرغبة إلى الرب ـ وفي توبة نصوح ـ هي التي تستجلب توبة الرب على العبد ، ما لم تكن خوف العذاب ، وإنما رغبة الرضوان والثواب ، فالإيمان عند رؤية البأس لا يفيد : ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ﴾ (٤٠ : ٨٥) .. هذا! اللهم إلا إذا كان إيمانا صادقا وإن كان عند رؤية البأس كما في قوم يونس : ﴿فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ﴾ (١٠ : ٩٨).

هذا ـ ولكنما العذاب في أصحاب الجنة كان عليها لا عليهم إلا في جنتهم ، ولكي ينتبهوا ، وقد فعلوا قبل حلول الأجل ، فعلّهم مغفور لهم.

﴿كَذلِكَ الْعَذابُ﴾ : عذاب التدمير والتذكير في الدنيا ، ﴿وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وإنما عذاب الدنيا مهما تفاقم ، نموذج ضئيل عن عذاب الآخرة.

* * *

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ

إِنْ كانُوا صادِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢)
خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سالِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَنْ
يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ
(٤٥) أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧)
فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ
نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِنْ يَكادُ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَما هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ
لِلْعالَمِينَ﴾(٥٢)

* * *

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ : إنها ليست عندية مكانية إذ ليس له مكان ، وإنما عندية من حيث القرب المعرفي ، والثواب ، وكما يوحيها ﴿رَبِّهِمْ﴾ : ربوبية الثواب والمعرفة جزاء وفاقا ، بما اتقوا ، كما المجرمون لهم النار بما طغوا ، وهذا هو الحكم العدل ، وسواه عادل عن الصراط.

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ : برهان عقلي لضرورة المعاد الحساب بصيغة السؤال : أتسوية بين المسلمين لله والمجرمين؟ فنعذب المسلمين كالمجرمين! أو نعفو عن المجرمين كما عن المسلمين ، أو نثيب المجرمين كما نثيب المسلمين ، أو لا نحيي المسلمين كما المجرمون على حدّ زعمهم!.

نستوحي من الآية وأشباهها أن هناك زعما خاطئا من المجرمين. يزعمونهم كأنهم الأصل في المعاد الحساب واللامعاد : ان الله يعامل المسلمين كما يعامل المجرمين سواء : ﴿أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ﴾ (٣٢ : ١٨) ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (٣٨ : ٢٨) كان صناديد يرون وفور حظهم في الدنيا وقلة حظوظ المسلمين فيها ، فقاسوا بها الآخرة قائلين : إن صح انا نبعث كما محمد يزعم ، لم تكن حالنا إلا كحالهم سواء ، أو أحسن ، فخطئهم الله فيه.

ففي قصة الجزاء ضروب شتى من أفكار خاطئة :

١ ـ إن الله سوف يجعل المسلمين كالمجرمين سواء ، فالإسلام هو اللاشيء في حساب الحق! فما يستحقه المجرم فالمؤمن يستحقه سواء أكان اللاحساب ، أم الحساب السوء ، أم العفو ، أم الإثابة ، والمجرمون هم الأصول على أية حال ، وهذا من أضل ما يتقول حول الحساب!

٢ ـ إن الله سوف يعفو عن المجرمين كما عن المسلمين ، بما اختلقوا من فلسفات توحي كأن العذاب لا دافع له إلا الوعد الإنذار!

٣ ـ أو يجعلهم كالمؤمنين في الثواب أيضا : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ (٤٥ : ٢١) .. وما إلى ذلك من تقولات نبحث عنها في طيات الآيات التي تحملها.

فهنا وهناك تأتي الأسئلة الاستنكارية تلو بعض دون جواب ، ولأنه واضح يعرفه كل من له أدنى مسكة :

﴿ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ أبحكم العقل أو العدل يسوى بين الفريقين؟ كلا! ﴿أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾؟ : هكذا حكم خاطئ ، لا يقبله عدل ولا عقل ، ولو كان فهو كتاب مجنون ظلوم يحكم : ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ﴾ : كما تهوون ، ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ﴾ : أن الله حلف لكم بحريتكم في هكذا حكم لا يمضيه عقل ولا عدل؟

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ﴾ : يزعمه عن الله لنفسه. أو عن العقل أو كتاب من الله ، وهو تهكم ساخر عميق ، أنيق بليغ يذيب القلوب حرجا .. وإذ ليس هذا الحكم لا إلهيا ولا بشريا ، فهل هو من شركاء لهم : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ﴾! شركاء لهم عندهم براهين أخرى على هذه الدعوى الزور الغرور؟ أم شركاء يزعمونهم أنهم آلهة من دون الله يسوون بينهم وبين المسلمين؟ أم شركاء يزعمونهم شفعاء عند الله يشفعون لهم في هذه التسوية الظالمة غير العادلة ، فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في دعواهم ، صادقين في كيان الشركاء وصدقهم ، وأنّى لهم ذلك!

فهكذا حكم لا يملك من صنوف البراهين أيا كان ، وإذ لا ينتبهون هنا فسوف يعلمون :

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ. خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سالِمُونَ﴾ :

من عادة الناس أن يشمروا عن سوقهم عند الأمور الصعبة ، التي تتطلب المعاركة ، ويفزع عندها إلى الممانعة ، فتشمير الذيول حينذاك أمكن للقراع ، وأصدق للمصاع ، كذلك وأحرى عند هو الأمر وشدته ، وعظم الخطب وفظاعته ، وعلى حد تفسير الإمام الصادق عليه السلام في الآية : أفحم القوم ودخلتهم الهيبة وشخصت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر شاخصة أبصارهم ترهقهم ذلة

وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم ظالمون [١].

ففي هذا اليوم العصيب هؤلاء الأوغاد يدعون إلى السجود ، استمرارية التكليف ليوم ليس فيه تكليف ، فرعا طبق الأصل وعنه ، فلا يستطيعون السجود ، إذ تركوه يوم الدنيا ، فلا يستطيعونه يوم الدين ، فمستطاع الطاعة وواقعها يوم الدنيا ، مستطاع يوم الدين ، وتركها رغم الاستطاعة هنا ، ترك لها هناك : ﴿وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سالِمُونَ﴾ ففقدوا سلامتهم هناك لتركهم الاستسلام لله هنا ، ومرض اللااستطاعة للطاعة لزمهم ليوم الدين ، ولكي تكون لهم عذابا فوق العذاب : عدم استطاعة الطاعة إذ ظهرت لهم الحقائق كلها! وكما عن الرسول (ص): يؤذن للمؤمنين يوم القيامة في السجود فيسجد المؤمنون ، وبين كل مؤمنين منافق فيتعسر ظهر المنافق عن السجود ويجعل الله سجود المؤمنين عليهم توبيخا وصغارا وذلا وندامة وحسرة [٢].

﴿خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ..﴾ : تغشاهم ذلة بقهر ، ولأنهم لم يذلوا أنفسهم يوم الدنيا طوعا ، فليذلوها قهرا يوم الدين : ﴿وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سالِمُونَ﴾ فالآن وهم مرضى بما افتعلوا ، لا يستطيعون السجود.

وقد يعني الكشف عن الساق كشف الحجاب فظهور الحقائق ، وعلى حد تفسير الرسول الأقدس (ص): «يكشف عن نور عظيم فيخرون له سجدا» [٣] وعن حفيده الرضا عليه السلام : «حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون سجدا وتدمج أصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود» [٤].

فساق المحشر يكشف ، وساق المحشورين يكشف ، وليس لله ساق يكشف ،

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٩٦ في كتاب التوحيد للصدوق عنه (ع).

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٥٥ عن قتادة قال : ذكر لنا أن نبي الله قال :

(٣) الدر المنثور ٦ : ٢٥٤ عن أبي موسى عن النبي (ص).

(٤) نور الثقلين ٥ : ٣٩٥ عيون اخبار الرضا (ع).

رغم المختلقات الزور ، الوثنية والإسرائيلية : ان ربنا يكشف عن ساقه [١] اللهم إلا أن يعني بها ساق الآخرة وحجابها وعذابها.

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ : وعذاب الاستدراج يعم المكذبين بآيات الله : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٧ : ١٨٢).

هل يكذب هذا الحديث ، الذي تصدقه كافة براهين الصدق ، حديث الله وطاعته ومحشره وحسابه؟!

ثم مالك وهذا الكذاب الأشر؟ ذرني وإياه : أنا الخالق الجبار الكبير الكبير ، وهذا المخلوق المستكبر الهزيل الصغير المسكين الفقير ، هذه الهباءة المنثورة! هذا العدم! فما حاله إذا أمام جبروت القهار العظيم.

انا انا استدرجه نحو العذاب بتواتر النقمة ، التي يحسبها له كرامة ، وأمهله على نعمته ولا أهمله : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ (٣ : ١٧٨).

إنه الأمان في ظل النعم المتواترة تلو بعض ، ولكنه الفخ الذي يقعون فيه

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٥٤ عن النبي (ص) «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا».

أقول : وقد خيل الى من لا يعقل انه ساق ربنا سبحانه وكما في الدر المنثور ٦ : ٢٥٥ عن سعيد بن جبير انه أجاب عن سؤال الآية بعد ما غضب غضبا شديدا : ان أقواما يزعمون ان الله يكشف عن ساقه! وانما يكشف عن الأمر الشديد.

وفي نهج البلاغة : انه من وسع عليه في ذات يده فلم ير ذلك استدراجا فقد من مخوفا.

مغرورين ، استدراجا لهم إلى أسوء مصير ، واستنزالا لهم إلى أسفل سافلين شيئا فشيئا بما ينعم عليهم مرة بعد أخرى وهم يزدادون عتوا ونفورا ، يحسبونهم على حق وانهم يحسنون صنعا ، وإلا فلما ذا تواتر النعم عليهم وتوتّرها على المسلمين ، وهذا هو عذاب الاستدراج.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ : والإملاء والكيد المتين من رب العالمين هو من أسباب الاستدراج ، أن يتدرج إلى الأسوء فالأسوء نتيجة الإملاء والإمهال وهذا هو كيد الله المتين ، ليس لأنه ضعيف ، وإنما جزاء كيده بكيد متين لا هوان له ولا علاج ، خلاف سائر الكيد من غيره تعالى ، وعلى حد تفسير الإمام الصادق (ع): «إذا أراد الله بعبد شرا فأذنب ذنبا تبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى به ، وهو قول الله عز وجل : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ بالنعم عند المعاصي [1].

ويا لها من وخزة بعد اخرى ، إلى أن يأخذه الله نكال الآخرة بعد الأولى! وان ذلك بما كسبت يداه وأن الله ليس بظلام للعبيد ، فقد كذبوا من حيث يعلمون ، فالله يستدرجهم من حيث لا يعلمون ، جزاء وفاقا! وانه لشر العذاب يوم الدنيا ، الاستدراج بالإملاء والامهال ، بكيد متين لا مفر عنه ولا منجى ، وكما نرى المكذبين هكذا يستدرجون ، تدرجا إلى العتو والضلال ، على تدرّج النعمة والدلال ، أعاذنا الله منه بحق محمد والآل.

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٩٧ في كتاب علل الشرايع عنه (ع) :

وفي روح البيان ج ١٠ ص ١٢٤ عن أمير المؤمنين علي (ع) «من وسع عليه دنياه فلم يعلم انه مكر به فهو مخدوع عن عقله» وروي ان رجلا من بني إسرائيل قال : يا رب كم أعصيك ولم أنت لم تعاقبني؟ فأوحى الله الى نبي زمانه أن قل له : كم من عقوبة لي عليك وأنت لا تشعر كونها عقوبة : جمود عينك وقساوة قلبك استدراج مني وعقوبة لو عقلت.

﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾؟ : تتمة أسئلة الاستنكار على المجرمين المسوين أنفسهم بالمسلمين : هل تسألهم أجرا على الرسالة وهم مثقلون متثاقلون من مغرمها ، فهم لا يقبلونها أو يقبلون إليها فضلا عن أن يفكروا في أجرها ، وليس أجر الرسالة في حساب الرسول إلا المزيد من تحقيقها وتطبيقها ، دون الأجور المادية وحاشا الرسول عنها! : ﴿قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (٢٥ : ٥٧) فليتخذ الرسول (ص) سبيلا إلى ربه ، ثم أبواب الرسول : ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ (٤٢ : ٢٣) وليس هذا أجرا ، فإن المودة في قربى الرسول تقربهم إلى الرسول فإلى الله زلفى : ﴿قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ (٣٤ : ٤٧) إذا فلا أجر يسأل : لا ماديا ولا معنويا ، إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ، أجر يرجع لصالح المعطي دون المستعطي ، إلا صالح نشر الدعوة وتطبيقها ، المشترك بين أصحابها.

﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً﴾ : فإذ لا مانع من الإيمان عقليا وواقعيا ، ولا دافع إلى الكفر والتكذيب من هنا وهناك ، فلا يبقى من الموانع إلا ثقل الأجر ، وأنت لست بسائله : ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ : ولكي يثقلهم عن الإيمان ثقل المغرم الأجر ، وبدلا من سؤال الأجر ، أنت تعدهم اجر الدنيا والآخرة ، فليس هناك من مغرم يثقلهم عن الإيمان ، ويدفعهم إلى الكفر ، لا ماديا ولا معنويا ، وإنما شهواتهم وحرياتهم في حيوناتهم هي التي تردهم إلى أسفل سافلين وبئس للظالمين بدلا! ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ : فتلك شهودهم الخاطئة المارقة الماردة ، فهل عندهم الغيب غير الخاطئ فهم يكتبون منه هذه التقولات الزور؟ فما لهذا الغيب ـ إذن ـ يغيب عن العدل المعقول ، وواجبه الحفاظ على العقول وتوجيهها إلى المعقول؟ .. كلا فلا شهود يفيدونهم ولا غيب يشهد لهم ، وهم على حالهم المزرية صامدون في التكذيب ، ثابتون على التأنيب ، فلا سلاح يكافحون به إلا الصبر لحكم الله ان يكفيك بأسهم وتعسهم :

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ. إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ. لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ. فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ :

يا حامل الرسالة الخالدة ، عليك ان تصبر في بلاغها ، صبرا صامدا ، دون فشل ولا فرار عمن أرسلت إليهم مهما كلف الأمر ، فاثبت حتى يأتيك امر الله وأنت صامد وهم فاشلون ﴿وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ﴾ : ولا كأي من حملة الرسالات الذين غلبوا على أمرهم وقل صبرهم ، فهذه وأمثالها من تجارب مضت في الأدوار الرسالية وحقولها ، إنها لك زاد ورصيد ، لتكون أنت صاحب الحصاد الأخير ، والزاد والرصيد الأخير ، فتعينك على العبء الثقيل الكبير في هداية البشرية جمعاء ، في كافة القرون والأجيال ، نبراسا تنير به الدرب على المستنيرين ، ومتراسا تكافح به المتخلفين.

فلقد حمل صاحب الحوت ـ يونس بن متى ـ رسالة جزئية مؤقتة إلى قوم خصوص ، فلم يتحمل أذاهم ، وانكفأ إناء صبره فدعى عليهم وخرج من بينهم فحبسه الله في بطن الحوت ، لماذا هذه العجلة في ترك الرسالة ، والمرسل إليهم؟ وكما يروى عن الرسول الأقدس (ص) قوله :

«كان رجلا تعتريه الحدة ، وكان قليل الصبر على قومه والمداراة لهم ، عاجزا عما حمل من ثقل أوتار النبوة وأعلامها ، وانه يتفسخ تحتها كما يتفسخ البعير تحت حمله ..» [1].

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٩٧ في تفسير العياشي عن أبي عبيدة الحذاء عن أبي جعفر (ع) كتب امير المؤمنين (ع) قال : حدثني رسول الله (ص) ان جبرائيل حدثه ان يونس بن متى بعثه الله الى قومه وهو ابن ثلاثين سنة ، وكان رجلا تعتريه الحدة وكان قليل الصبر على قومه والمداراة لهم ، عاجزا عما حمل من ثقل حمل أوتار النبوة وأعلامها ، وانه يتفسخ تحتها كما يتفسخ البعير تحت حمله ، وانه اقام فيهم يدعوهم الى الايمان .

وإلى تفصيل حاله في بعثته ورسالته : ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ. فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ. فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾.

. بالله والتصديق به واتباعه ثلاثا وثلاثين سنة ، فلم يؤمن به ولم يتبعه من قومه الا رجلان ، اسم أحدهما روبيل والآخر تنوخا ، وكان روبيل من اهل بيت العلم والنبوة والحكمة ، وكان قديم الصحبة ليونس بن متى من قبل ان يبعثه الله بالنبوة ، وكان تنوخا رجلا مستضعفا عابدا زاهدا منهمكا في العبادة ، وليس له علم ولا حكم ، وكان روبيل صاحب غنم يرعاها ويتقوت منها ، وكان تنوخا رجلا حطابا يحتطب على رأسه ويأكل من كسبه ، وكان لروبيل منزلة من يونس غير منزلة تنوخا لعلم روبيل وحكمته وقديم صحبته. فلما رأى ان قومه لا يجيبونه ولا يؤمنون ضجر وعرف من نفسه قلة الصبر ، فشكا ذلك الى ربه ، وكان فيما شكى ان قال : يا رب انك بعثتني الى قومي ولي ثلاثون سنة فلبثت فيهم ادعوهم الى الايمان بك والتصديق برسالتي وأخوفهم عذابك ونقمتك ثلاثا وثلاثين سنة فكذبوني ولم يؤمنوا بي وجحدوا نبوتي واستخفوا برسالتي وقد توعدوني وخفت ان يقتلوني ، فانزل عليهم عذابك فإنهم قوم لا يؤمنون ، فأوحى الله الى يونس : ان فيهم الحمل والجنين والطفل والشيخ الكبير والمرأة الضعيفة والمستضعف المهين وانا الحكم العدل سبقت رحمتي غضبي لا اعذب الصغار بذنوب الكبار من قومك ، وهم يا يونس عبادي وخلقي وبريتي في بلادي وفي عيلتي ، أحب ان أتأناهم وارفق بهم وانتظر توبتهم ، وانما بعثتك الى قومك لتكون حيطا عليهم تعطف عليهم سخاء الرحمة الماسة منهم ، وتتأناهم برحمة النبوة ، فاصبر معهم بأحلام الرسالة ، وتكون لهم كهيئة الطبيب المداوي ، العالم بمداواة الدواء ، فخرجت بهم ولم تستعمل قلوبهم بالرفق ، وتسسهم بسياسة المرسلين ، ثم سألتني مع سوء نظرك العذاب لهم عند قلة الصبر منك ، وعبدي نوح كان أصبر منك على قومه وأحسن صحبة وأشد تأنيا في الصبر عندي ، وأبلغ في العذر ، فغضبت له حين غضب لي ، واجبته حين دعاني ، فقال يونس : يا رب انما غضبت عليهم فيك ، وانما دعوت عليهم حين عصوك ، فوعزتك لا انعطف عليهم برأفة أبدا ، ولا انظر إليهم بنصيحة شفيق بعد .

﴿وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ. وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ﴾ (٣٧ : ١٤٨) ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢١ : ٨٨).

إنه أبق إباق العبد من مولاه ، أبق من تكميل الرسالة وتتميم الدعوة ، مغاضبا مع قومه ، فظن ان لن يقدر الله : يضيق الله : عليه في هذا الإباق ، فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم نفسه أن كان من الظالمين : المنقصين في بلاغ الرسالة ، ولولا ان تداركه من ربه نعمة التسبيح للبث في هذا السجن إلى يوم يبعثون ، فنبذه بالعراء لما سبح ، وأرسله ثانية إلى قومه : إلى مائة الف أو يزيدون ، فآمنوا فمتعهم الله إلى حين : ﴿فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ﴾ (١٠ : ٩٨).

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ : حكم الاستقامة في الدعوة : ﴿فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ﴾ (١١ : ١١٢) ﴿فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ (٤٦ : ٣٥) : هذا ـ وحكم الله في هؤلاء الماردين يوم الدنيا ويوم الدين ،

ـ كفرهم وتكذيبهم اياي ، وجحدهم نبوتي ، فانزل عليهم عذابك فإنهم لا يؤمنون ابدا ، فقال الله : يا يونس انهم مائة الف أو يزيدون من خلقي ، يعمرون بلادي ، ويلدون عبادي ، ومحبتي ان أتأناهم للذي سبق من علمي فيهم وفيك وتقديري وتدبيري غير علمك وتقديرك ، وأنت المرسل وانا الرب الحكيم ، وعلمي فيهم يا يونس باطن في الغيب عندي لا تعلم منتهاه ، وعلمك فيهم ظاهر لا باطن له ، يا يونس قد أجبتك الى ما سألت ، انزل العذاب عليهم وما ذلك يا يونس بأوفر لحضك عندي ولا أحمد لشأنك وسيأتيهم العذاب في شوال يوم الأربعاء وسط الشهر بعد طلوع الشمس فأعلمهم ذلك فسر يونس ولم يسؤه ولم يدر ما عاقبته.

أقول : وفيه ان الله رفع عنهم العذاب لما آمنوا ، وسجن يونس في بطن الحوت وكما في الآية ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ﴾ (١٠ : ٩٨).

يوم في حريق الحرب كما حان حينها منذ الهجرة ، ويوم في حريق النار يوم القرار ولا فرار!

﴿وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ﴾ : يونس صاحب السجن الحي السابح في اليم ، ﴿إِذْ نادى﴾ ربه فيه ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ : مكظوم الغضب عن قومه لما عرف خطأه في التعجيل ، وتركه واجب التأجيل ﴿لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ : أن كظم غيظه وغضبه ، ووفقه للتوبة والتسبيح ﴿لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ولكنه سبح ربه وتاب فنبذ بالعراء وهو ممدوح ، فلقد كان بانتظاره عذاب دائب يوم الدنيا : ﴿فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ دون نبذ بالعراء مذموما أو ممدوحا ، لو انه ترك كل الواجب قديما وفي السجن ، ولكنه كان من المسبحين هنا وهناك ، ولقد نجاه تسبيحه أن نبذ بالعراء ، وكان يبقى عليه الذم لو لم يكمل التسبيح بما أنعم عليه ربه من الاعتراف بالظلم ، ومن التوبة النصوح ، وكظم الغيظ ، فنبذ بالعراء ممدوحا ﴿فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ : لتكميل الرسالة : ﴿فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَهُوَ سَقِيمٌ. وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ. وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ﴾ (٣٧ : ١٤٨).

﴿وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾ :

الإزلاق هو إزلال القدم حتى لا يستقر على الأرض ، والإزلاق بالبصر كناية عن غاية المقت والإبغاض عند النزاع والخصام ، كأن هؤلاء الكفار ـ وعند سماع الذكر الذي لزامه التذكير ـ كأنهم من كثرة بغضهم يكادون ليستفزوه من الأرض بأبصارهم الحاقدة ، وليمسوا من كرامته بألسنتهم الناقدة : ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ رغم أن كيانه ذكر للعالمين ﴿وَما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾ وهل يعقل انه بنعمة ربه مجنون ، وهم بنقمته عقلاء ، فما لهم كيف يحكمون؟

(تفسير الفرقان ـ ج ٢٩ ـ م ٦)

ثم وهل للعين تأثير عفوي ، دون محاولة خارجية فيما يراد؟ عله يكون أحيانا ، ولكنه لغير المؤيدين المدركين بالعصمة الإلهية ، فقد كاد الكفار ليزلقوه ولن يزلقوه ، حيث العصمة الإلهية ترقب الرسول الأقدس عن كل محاولة تمس من كيانه الرسالي ، مهما كادوا له كيدا ومادوا عليه ميدا ، وكادوا ليزلقوه بأبصارهم ، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين!

هذا كله ، رغم أن : «العين حق» [(١)] و «العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر» [(٢)] و «أكثر من يموت بعد قضاء الله وقدره بالعين» [(٣)] ، كما يروى عن الرسول الأقدس (ص) تأثيرات نفسانية سيئة تبتدئ بالعين ، وكما لسائر المحاولات الشريرة آثار ، إلا أن يشاء الله غيره ﴿وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾!

﴿وَيَقُولُونَ﴾ قولتهم الكافرة المجنونة : ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ فهل لأنه لا يمشي مماشاهم ولا يهوى هواهم؟ ﴿وَما هُوَ﴾ : قرآن محمد ومحمد القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾ : كل العالمين مهما كانوا في هذه المعمورة أم سواها من كواكب عامرة ، فالعالمون العقلاء هم المعنيون بهذا الذكر ، ولكي يعقلوا عنه الكثير الكثير من متطلبات الحياة العقلية ، ويرفضوا به الكثير الكثير من خرافات الحياة المجنونة المنفصلة عن وحي السماء.

إنها في هذا الوقت المبكر والضيق المستحكم تعلن عن عالميتها ، دون أن

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٥٨ اخرج البخاري عن ابن عباس ان رسول الله (ص) قال :

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٥٨ اخرج ابو نعيم في الحلية عن جابر ان النبي (ص) قال :

(٣) الدر المنثور ٦ : ٢٥٨ اخرج البزاز عن جابر ان النبي (ص) قال :

تكون هذه الصفة جديدة عليها حين انتصرت في المدينة ، وإنما كانت ثابتة في صلب الدعوة منذ بدأت في أيام مكة الأولى ، وكذلك تستمر إلى الأيام الأخرى ، لو أن حملتها لم يهملوها ويمهلوا أعداءها للنيل منها ، إنها لم تعرضها معارضات من دواخلها وخوارجها ، فإن هذه الدعوة مستمرة مستزادة في ذاتها ومعطياتها.

فمهما تقولوا عليها فرية الجنون ، لكنما العقلاء سوف يعرفون مدى عقلها على تقدم العقل والعلم ، ومدى جنون المفترين عليها الزور!

سورة الحاقة ـ مكية ـ وآياتها اثنتان وخمسون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعادٌ بِالْقارِعَةِ (٤)
فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ
لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرى لَهُمْ
مِنْ باقِيَةٍ (٨) وَجاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ
أَخْذَةً رابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَها أُذُنٌ
واعِيَةٌ﴾ (١٢)

* * *

﴿الْحَاقَّةُ﴾ : من أسماء القيامة الكبرى ، ذات الدلالة على حقيقتها وحقيّتها ، دلالة مزدوجة : بصيغة الفاعل وتاء المبالغة ، حاقة بالأدلة والآيات الآفاقية

والأنفسية ، حاقّة لمن يعرفها بثوابها ، وحاقة على من ينكرها بعذابها ، بأحوالها الواقعة وأهوالها ، وحاقة بكل ما يحق عقلا وعدلا في قسطاس الإله العدل المتعال ، تحقّق لكلّ عامل سعيه ، خيرا وشرا ، إظهارا للحق المجهول والمتجاهل عنه يوم الدنيا ، ليوم الدين ، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾؟ سؤال استعظام وإجلال لأمر الحاقة.

﴿وَما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾؟ إعظام ثان لأمرها : إنك ـ وأنت الرسول ـ ما كنت تدري ما هي لولا أن الله عرّفك وأدراك بها!

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعادٌ بِالْقارِعَةِ﴾ : ثمود هم قوم صالح من الثمد وهو الماء القليل الذي لا مادة له ، فهم وعاد قوم هود ألعن حماقى الطغيان ، وقد كذبتا ـ فيما كذبتا ـ بالقارعة ، القيامة القارعة ، التي تقرع الكون وتدكّه ، تضرب الناس بفنون الأهوال وجنون الأحوال ، والسماء بالانشقاق والانفطار ، والأرض والجبال بالدك والنسف ، والنجوم بالطمس والانكدار ببعضه ، فلما كذّبتا بها حقت عليهما القارعة التي تقرعهم بالحق فيما تقرع.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ : بالصيحة الطاغية ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ﴾ (١١ : ٦٨) ، وبالرجفة الطاغية ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ (٧ : ٧٧) صيحة ورجفة خلّفتا صاعقة : ﴿.. فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٤١ : ١٧) ، ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٥١ : ٤٤).

إنهم أهلكتهم قبلكم الطاغية بطغواهم .. طاغية بطاغية : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها﴾ (٩١ : ١١) ولقد اختصرت تلكم الحادثة هنا ـ في الحاقة ـ بحق الأمر الواقع من العذاب : «الطاغية» فائضا بالهول المناسب لثورة السورة ، تطويهم طيا ، وتطغى عليهم بما بغوا وطغوا ﴿فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ﴾؟!

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى. وَثَمُودَ فَما أَبْقى﴾ (٥٣ : ٥١) [١].

﴿وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ﴾ : ﴿صَرْصَرٍ﴾ بالغة في الصّر والبرد ، عاتية : شديدة الهبوب والغلب وعلى حدّ تفسير الرسول الأقدس «ص» : «غالبة» [٢] ، عتت على خزانها. وكما يروى عنه «ص» : «ما خرجت ريح قط إلا بمكيال إلا زمن عاد فانها عتت على خزانها ، فخرجت في مثل خرق الإبرة فأهلكت قوم عاد» [٣] كذلك. وعتت في غلبها عليهم فلم يجدوا عنها محيصا ، وعتت عليهم كما عتوا عن أمر ربهم ، عاتية في كافة مراحلها إلا عتو البغي ، ﴿وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

إنها كانت ريحا عقيما لا تخلّف إلا عقم الحياة بفور الممات : ﴿وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ (٥١ : ٤٢) : ريح عذاب لا تلقح شيئا من الأرحام ولا شيئا من النبات ، وما خرجت إلا على قوم عاد [٤].

﴿سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ﴾ :

هذه الريح الصرصر العاتية العقيم ، سلطت على هؤلاء الأوغاد في مثل هذه الليالي والأيام الحسوم : حسوما بصرصرها ، إذ حسمت وقطعت وأزالت كافة آثار الطغيان وكما تحسم المكواة بكرورها آثار الفوضى في الثياب ، فقد حسمت الريح الصرصر العاتية فوضويين طغاة مكابرين ﴿فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ﴾؟.

---

(١) ذكرت ثمود في ٢٦ موضعا من القرآن مع طغاة كامثالهم ، كما ذكرت عاد ٢٤ مرة.

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٥٩ ـ ابن عباس قال : قال رسول الله (ص) في حديث قال الله تعالى : بريح صرصر عاتية ، قال : غالبة.

(٣) نور الثقلين ٥ : ٤٠١ من لا يحضره الفقيه» قال رسول الله (ص).

(٤) نور الثقلين ٥ : ٤٠١ عن روضة الكافي باسناده الى الباقر (ع) وهو حديث طويل.

وحسوما بتواصلها في أيامها الحاملة العذاب الصرصر ﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ...﴾ (٤١ : ١٦) أيام كأنها في تواليها يوم واحد : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ (٥٤ : ٢٠).

﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى﴾ : في هذه الأيام النحسات ، وفي صرصرها العاتية تراهم ميتين في مصارعهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ﴾ : خالية جوفاء ملقاة على أعجازها. ك «نخل منقعر» : والنخل الخاوية الأعجاز ، المنقعرة المصرومة ، أشبه شيء بالموتى الصرعى.

﴿فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ﴾ : لا حاضرا إذ لا خبر واقع عنهم ، إلا باقية باغية مزرية ، ولا غابرا إذ لم تبق لهم حتى جثثهم : والريح الصرصر العقيم هي التي جعلتهم مندثرين ، إما قذفا لأجسادهم أو رمادهم في اليم ، أو نثرها عبر الهواء. ﴿فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ﴾؟ كلا : لا نفوس باقية ولا آثار من جثثهم الجهنمية ، فقد اجتثوا من جذورهم ، بأنفسهم ونفائسهم : ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ﴾ (٤٦ : ٢٥) ، فلم يبق منهم من يتحدث عنهم ولا حتى قبورهم اللهم إلا مساكنهم الخالية الخاوية .. فيا له من تعبير عديم النظر يرسم لنا مشهد التدمير كأننا الآن نشهده ، فهنا عاصفة مزمجرة ، وهناك ضحايا الزمجرة ، صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية؟.

﴿وَجاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً﴾.

﴿وَجاءَ فِرْعَوْنُ﴾ موسى ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ من فراعنة التاريخ بهوامش الضلالة : ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَجَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً. وَعاداً وَثَمُودَ وَأَصْحابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً. وَكُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ وَكُلًّا تَبَّرْنا تَتْبِيراً﴾ (٢٥ : ٣٩).

وجاءت ﴿الْمُؤْتَفِكاتُ﴾ : الأقوام المفترية على الله ورسله ، كقوم لوط وأضرابهم. جاؤا ﴿بِالْخاطِئَةِ﴾ : الحياة الخاطئة ، بالأفكار والتصرفات الخاطئة ، خطأ متعمدا في حياة جهنمية مريرة.

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ : كتلة الضلالة عصت كتلة الهداية التي تجمعها رسالة إلهية واحدة ، ولأنهم أجمع من إله واحد ، وباتجاه واحد ، مهما اختلفت فروع جزئية من شرائعهم صوريا لا جذريا ، لا فحسب أنهم واحد ، بل وأمتهم أيضا واحدة : ﴿يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ. وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ. فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٢٣ : ٥٣) ، فشخصية الرسل واحدة ، وشخصية الأمم التابعة لهم صدقا واحدة ، مهما كان الأشخاص والأمم عدة ، فتكذيب رسول واحد تكذيب للرسل أجمع ، لأنه تكذيب للرسالة الإلهية : ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ في الاتجاه نحو إله واحد ، ولقد كان نتيجة تكذيب تلك الأقوام الرسالة الإلهية هي الأخذة الرابية :

﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً﴾ عالية ضامرة غامرة تربو على قبيح أعمالهم : ﴿أَخْذاً وَبِيلاً﴾ (٧٢ : ١٦) إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١١ : ١٠٢) كيف لا! وهو ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾.

أجل ـ وانها أخذة تعلوهم كما استعلوا وعتوا عن أمر ربهم ، دون أن تربو على عتوهم ﴿أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فقد ينقص العذاب عن الاستحقاق دون أن يربو عليه ، وإنما الثواب هو الذي يربو على الاستحقاق. بل ولا استحقاق .. إلا مغفرة من الله وفضلا.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ. لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ﴾ لقد طغا الماء في طوفان نوح عليه السلام في طموّ أمواجه وارتفاع أثباجه كالرجل الطاغي الذي علا متجبرا ، وشمخ متكبرا ، طغا الماء على الطغاة ، وكثر على ضبّاطه وخزانه ، فلم يضبطوا مدى الخارج منه كثرة.

فكيف طغا الماء؟ وما هي الجارية؟ وكيف حملتنا ولم نكن وقتئذ وإنما كان أجدادنا؟.

طغا الماء كما أراد الله : ﴿فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ. تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ. وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (٥٤ : ١١).

ولقد سميت سفينة نوح بالجارية لأنها كانت تجري في اليم المحيط ، وتسمى السفن جواري : ﴿وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ﴾ (٥٥ : ٢٤).

وأما كيف حملتنا؟ إنها حملتنا ونحن ذرية في أصلاب آبائنا المحمولين فيها ، فقد حملنا بما حملوا ، رحمة مزدوجة من ربنا : لنا ولهم ، فكما يمن عليهم كذلك علينا وأحرى إذ حملنا ولم نكن شيئا مذكورا ، إلا ذرية ، وهو آية للرحمة والقدرة الإلهية : ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (٣٦ : ٤١) فليست «ذريتهم» ـ وهم الموجودون حين نزول الآية ـ إنها ليست أبناءهم ، كيف ولم يكونوا موجودين وقتذاك فضلا عن أولادهم ، ولا أجدادهم ، لأنهم ليسوا ذرية في أية لغة واصطلاح ، وإنما ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هم أنفسهم إذ كانوا ذرية (اضافة الشيء إلى نفسه اعتبارا بالحالة المسبقة) كما يقال : نطفتك ـ ميتتك ـ جيفتك ، والمعنى فيها أنت حينما كنت نطفة ، وحين تكون ميتة وجيفة كذلك الحال في ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فهم أنفسهم إذ كانوا ذرية في أصلاب آبائهم ، ولئن كان هذا المعنى خفيا في البداية ، فقرينة آية الجارية : ﴿حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ﴾ وكذلك نفس آية الذرية [١] ، فيهما الكفاية التامة لحصر معناها في إضافة الذرية إلى نفسها : ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ حملناهم إذ كانوا ذرية ، وما أحسنه تعبيرا عن الحالة المسبقة الضئيلة للإنسان ، ولكي يتنبه نعمة الله عليه إذ لم يكن شيئا مذكورا.

---

(١) إذ لا يمكن أن يراد منها الأبناء والأجداد.

﴿لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ : لنجعل الجارية التي حملتكم في أصلاب أجدادكم ، نجعلها لكم تذكرة : تذكرة في نعمتها لحملكم ، وتذكرة في جريانها عبر التاريخ بآثارها الخالدة وأنقاضها الباقية بعد جريانها عبر البحر المحيط : ﴿وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (٥٤ : ١٥) : إذ ظلت باقية حتى الآن : ﴿فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ﴾ (٢٩ : ١٥) وبما يحملها من بشارة :

فهي آية في أنقاضها ، وآية في الآيات المكتوبة عليها باللغة السامانية التي تصرح باسم الخمسة الطاهرين من أهل بيت الرسالة المحمدية «محمد (ص). علي. فاطمة. الحسن. الحسين عليهم السلام» وكل ذلك واقع ، فالسفينة آية في غابرها وحاضرها ، في أنها نجاة للمؤمنين من قوم نوح ولذريتهم في الحياة الجسدانية إذ أنجتهم من الغرق ، وفي الحياة الروحانية إذ حملت بشارة الغيب : أسماء الطيبين الذين أقسم بهم نوح (ع) حتى نجاه الله من الغرق.

سفينة نوح والبشارة المحمدية على أنقاضها

: «في تموز ١٩٥١ عثر على قطع متناثرة من أخشاب قديمة متسوسة وبالية ، اكتشفها جماعة من العلماء السوفييت المختصين بالآثار القديمة ، إذ كانوا ينقبون في منطقة بوادي قاف ، مما دعاهم إلى تنقيب أكثر وأعمق ، فوقفوا على أخشاب أخرى متحجرة وكثيرة كانت بعيدة في أعماق الأرض ، ومن بينها عثروا على خشبة مستطيلة الشكل طولها ١٤ سنتيمترا وعرضها ١٠ ، سببت دهشتهم واستغرابهم ، إذ بقيت سليمة غير متناثرة بين الأخشاب الأخرى!.

وفي أواخر ١٩٥٢ أكمل التحقيق حول هذه الآثار الغريبة ، فتبين أن اللوحة وسائر الأخشاب هي انقاض سفينة نوح (ع) التي استوت على الجودي حسب القرآن ، وقد ظلت عليها حتى القرن الحاضر.

وقد شوهد على هذه اللوحة بعض الحروف التي تعود إلى أقدم اللغات ، وللكشف عنها ألفت الحكومة السوفييتية لجنة قوامها سبعة من علماء اللغات

القديمة [١] وبعد ثمانية أشهر من الدراسة لهذه اللوحة والكتابة المنقوشة عليها ، أجمعوا أنها من نفس الخشب الذي صنعت منه سفينة نوح (ع) وأنه وضعها في السفينة للتبرك والاستحفاظ بعد أن تحققوا أن تلك الحروف كانت باللغة السامانية أو السامية : لغة نوح (ع) وقد ترجمها العلماء الروس المعنيون باللغات القديمة إلى اللغة الروسية ، ثم العالم البريطاني (اين ايف ماكس) أستاذ الألسن القديمة في جامعة (مانشستر) ترجمها إلى الانجليزية [٢] ، وهي بالعربية :

---

(١) وهم : سولي نوف ـ أستاذ الألسن القديمة في جامعة موسكو ، و (ايفاهان خنيو) عالم الألسن القديمة في كلية لولوهان بالصين ، و (ميشانن لو فارند) مدير الآثار القديمة ، و (تانمول غورف) أستاذ اللغات في كلية كيفزو ، و (دي راكن) أستاذ الآثار القديمة في معهد لينين ، و (ايم احمد كولاد) مدير التنقيب والاكتشافات العام ، و (ميجر كولتوف) رئيس كلية ستالين» نقلتهم مجلة البذرة النجفية في العددين : الثاني والثالث ـ شوال وذي القعدة :

(٢) ترجمتها باللغة الانجليزية كالتالي :

يا الهي ويا معيني Omy God myhelper برحمتك وكرمك ساعدني Keep myhands with mercy ولأجل هذه النفوس المقدسة And with your holybodies محمد Mohamed إيليا Alia شبر Shabbir شبير Shabbir فاطمة

Fatma They areall biggest and honourables

هم جميعهم عظماء ومكرمون Theworld established for them العالم قائم لاجلهم ساعدني بحق أسمائهم. Help me bytheir names you canreform toright أنت تستطيع ان توجهني الى الطريق الصحيح.

يا إلهي ويا معيني ، برحمتك وكرمك ساعدني ، ولأجل هذه النفوس المقدسة محمد ـ إيليا ـ شبر ـ شبير ـ فاطمة. الذين جميعهم عظماء ومكرمون ، العالم قائم لأجلهم. ساعدني بحق أسمائهم ، أنت تستطيع أن توجهني إلى الطريق الصحيح.

ولقد بقي هؤلاء العلماء في دهشة عظيمة أمام هذه اللوحة بأسمائها حيث توسل بها نوح وبقيت حتى الآن ، واقع التصديق للقرآن ﴿وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ﴾ ، وهذه اللوحة موجودة الآن في متحف الآثار القديمة في موسكو وفي خبر أن المسلمين رأوها من ذي قبل[(١)].

ولما اكتشفت هذه البشارة المحمدية نشرتها المجلات والجرائد المهمة العالمية : الروسية والبريطانية والقاهرية [(٢)].

وإليكم صورة اللوحة الفوتوغرافية باللغة الآرامية كما نشرت في الجرائد والمجلات وبعض الكتب ككتاب إيليا ، وأصل اللوحة موجودة الآن في متحف الآثار القديمة في موسكو :

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٦٠ : عن قتادة في الآية قال : عبرة وآية أبقاها الله حتى نظرت إليها هذه الأمة ، وكم من سفينة غير سفينة نوح صارت رمما».

(٢) ١ ـ مجلة روسية شهرية تصدر في موسكو تشرين الثاني ١٩٥٣ ، ٢ ـ مجلة (ويكلي ميرر) الاسبوعية اللندنية العدد الصادر ٢٨ كانون الاول ١٩٥٣ ، ٣ مجلة (أستار) اللندنية ، كانون الثاني ١٩٥٤ ـ ٤ جريدة (سن لايت) الصادرة في مانجستر ٢٣ كانون الثاني ١٩٥٤ ، ٥ ـ جريدة (ويكلي ميرر) اللندنية في ١ شباط ١٩٥٤ ، ٦ جريدة (الهدى) القاهرية في ٣٠ مارس ١٩٥٣» والمصادر الاربعة الاخيرة نقلت ترجمة العالم البريطاني (ان أف ماكس) أستاذ الألسن القديمة في جامعة مانجستر. ٧ ومن المصادر كتاب إيليا من منشورات دار المعارف الاسلامية بلاهور باكستان برقم ٤٢ ـ اللغة الاردية.

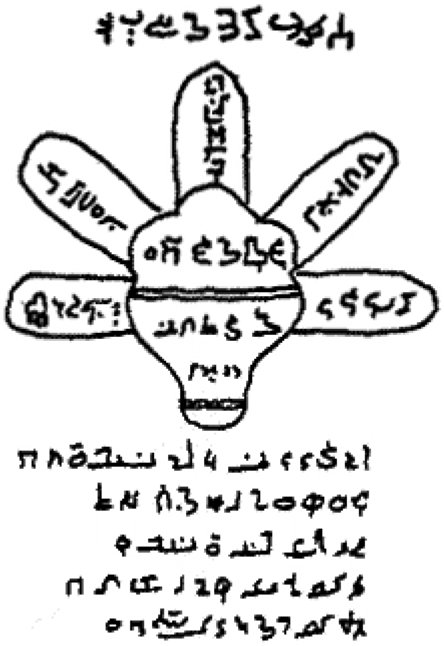

وقد ترجمت كما سبق كالتالي :

«يا إلهي ويا معينى ، برحمتك وكرمك ساعدني ، ولأجل هذه النفوس المقدسة : محمد ـ إيليا ـ شبر ـ شبير ـ فاطمة ، الذين جميعهم عظماء ومكرمون العالم قائم لأجلهم ، ساعدني بحق أسمائهم ، أنت فقط تستطيع أن توجهني إلى الصواب.

ولقد سبق نوحا إدريس النبي عليه السلام في ذكر أسمائهم باللغة السريانية «پارقليطا ـ إيليا ـ طيطه ـ شپبر ـ شپبير [1].

---

(١) التفصيل في كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية).

﴿لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ﴾ الأذن التي تعي الحقائق الناصعة إنها تعي آية سفينة نوح ، بما على لوحتها من آيات ، وأوعى الآذان آذان النبيين ، وأوعاها بينهم جميعا أذن الرسول الأقدس محمد عليه السلام. فحياته وعي للحقائق دون نسيان ، ويخلفه في وعيه الشامل أذن علي عليه السلام. وعلى حد قوله (ص) لما نزلت آية الأذن ، «سألت ربي أن يجعلها أذن علي قال مكحول فكان علي يقول : ما سمعت من رسول الله (ص) شيئا فنسيته» [١] وعن علي (ع): ضمني رسول الله (ص) وقال : أمرني ربي أن أدنيك ولا أقصيك وأن تسمع وتعي [٢]

﴿فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ﴾(١٨)

﴿فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ﴾ هي الأولى من نفختي الإماتة والإحياء والواحدة توحي بنفاذها وسرعتها وشدة مفعولها دون مهل ولا فشل ، نفخة وصرخة تسمع أعماق الكائنات وتصرعها وتمحقها كأن لم تكن ، وعلى أثر هذه النفخة المدمرة :

﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً﴾ : نفخة واحدة تخلق دكة واحدة ، واحدة في عدها ، مزدوجة في شدها ومدها : ﴿كَلَّا إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ (٨٩ : ٢١) : يسمع منها صوت الدكداك : أشد الدقّ الذي يسحق ويبدل الشيء إلى أجزاء دقاق كالدقيق.

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٦٠ ، وقد اخرج في غاية المرام ستة عشر حديثا مثله عن طريق الفريقين.

(٢) رواه ابو نعيم في الحلية والواحدي في اسباب النزول عن بريدة وابو القاسم بن حبيب في تفسيره عن زر بن حبيش عن علي (ع) ورواه في تفسير روح البيان ج ١٠ ص ١٣٦.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ﴾ : واقعة الاماتة والتدمير وتتلوها واقعة الإحياء والتعمير ، ومن الأولى : ﴿وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ ..﴾ ومن الثانية : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ﴾ اعتبرت الثانية كأنها الأولى أو من الأولى لاتصالهما : «يومئذ» إذ دكت الأرض والجبال ووهت السماء.

﴿وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ﴾ : مسترخية بشد رباطها بعد شد قماطها ، فلقد كانت سبعا شدادا : ﴿وَبَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً﴾ (٧٨ ـ ١٢) فهذه السبع الشداد سوف تسترخي وتوهي : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ﴾ (١٤ : ٤٨) تصبح السماء غير السماء مغايرة في الصورة والماهية ، والمادة الاصلية هي نفس المادة ، بانقلابها وانسلاخها عن ناموس العمار الى ناموس البوار.

﴿وَالْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ﴾

إن الملك ـ عند انفراط الكون وتغيره بأرضه وسمائه ـ يخرج عن ميدان النضال الموت إلى الأرجاء : الجوانب ، فرارا من الموت ، إلى تحقيق أمر الله ، بأمر الله ولعلهم ملائكة خصوص ممن شاء الله. إذ يصعق وقتئذ من في السماوات ومن في الأرض : ﴿.. وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (٢٩ : ٦٨) فعلهم هؤلاء الخصوص الذين شاء الله ألا يصعقوا ، ولا سيما إذا كان ﴿الْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها﴾ حالا من انشقاق السماء ووهيها! ويؤيده المروي عن النبي (ص) [1]» أو علهم كمن سواهم ممن هم قيام ينظرون في نفخة الإحياء ، ولكنه يبقى السؤال :

لماذا على الأرجاء؟ أقول : ولكي يحملوا مع العرش ، يحملهم الثمانية ﴿وَيَحْمِلُ

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٠٣ عن ارشاد المفيد عن النبي (ص) قال : ان الناس يصاح بهم صيحة واحدة فلا يبقى ميت الا نشر ، ولا حي الا مات ، الا ما شاء الله. ثم يصاح بهم صيحة اخرى فينشر من مات ...

عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ : الملك الذين هم على الأرجاء «ثمانية» : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ (٤٠ : ٧) فهم المحمولون مع العرش ، ولكي يساعدوا الحملة في تحقيق أمر الله.

فإذ «ليس في طبقات السماوات موضع إهاب إلا وعليه ملك ساجد ، أو ساع حافد [١] فكونهم وقتئذ على الأرجاء ، وباقي السماء منهم خلاء ، ليس إلا أن منهم من صعق في الصيحة فانتهى دوره ومنهم من لحق حملة العرش على الأرجاء ، وهم ممن شاء الله ألا يصعقوا.

ما هو العرش هنا ومن هم حملة العرش؟ :

إن لله عروشا عدة ، منها عرش الخلق والتدبير ، ومنها عرش العلم ، ومنها كما هنا ـ عرش التربية : جسدانية ، ونفسانية روحانية ، يعنى به أعلى المقامات في أعلى الملإ ، يحمله من خلق الله الملأ الأعلى ملائكية وبشرية أم ماذا؟!.

فهو على أية حال ليس عرشا كعروشنا يتكأ عليه ، ثم خلقه يحملونه على عرشه ، فيصبح في ازدواجية الحمل : محمولا مرتين! وإنما العرش خلق من خلق الله يحيط بسائر الخلائق من مصادر الأمر العليا بشأن الكون ، في تدبيره جسدانيا وروحانيا.

فيوم الدنيا ، لعرش العلم الإلهي حملة بين الخلق هم النبيون وأهلوهم المعصومون ، ولعرش التدبير حملة منهم ومن الملائكة المدبرات أمرا بإذن الله ، والله خالقهم وخالق العرش ، وهو من ورائهم محيط.

لقد ذكر العرش في واحد وعشرين موضعا من القرآن والكرسي في واحد ، منها آيات استوائه تعالى على العرش ، حينما كانت المادة الأولية دون أرض ولا سماء : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ

---

(١) نهج البلاغة عن علي عليه السلام.

عَلَى الْماءِ﴾ (١١ : ٧) ومنها ما في استوائه عليه بعد ما خلق الأرض والسماء : ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى. لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَما تَحْتَ الثَّرى﴾ (٢٠ : ٦) عرش الالوهية والملك المطلق ، ومنها ما يعنى به عرش التدبير : ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ (١٠ : ٣) ومنها عرش العلم : ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٥٧ : ٤) .. وما إلى ذلك من عروش تناسب وساحة الالوهية والربوبية ، والحامل الأول والأخير لهذه العروش هو الله تعالى ، وقد يحملها من خلقه من يشاء ، يحملونه باذنه وكما يريد من مصالح الخلق ، وكما في الحملة الثمانية :

آيات ثلاث تحمل ذكر الحملة الثمانية ، ثانيتها : ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٣٩ : ٧٥) تعني العرش يوم قيامة الإحياء والحساب.

وآخرها : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ﴾ (٥٠ : ٧) وهي كذلك تعني يوم الحساب ثم عرش الحاقة يمتاز بأمور عدة : منها ذكر العدد «ثمانية» ومنها اختصاصهم بيوم الحساب ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ﴾ فهل لأنهم أقل منهم يوم الدنيا فزادوا يوم الدين ، أم كانوا أكثر فقلوا؟

ثم الملائكة الحافون حول العرش ليسوا كلهم حملة ، فمنهم محمولون ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ ولا ان الحملة هم الملائكة فحسب ، كما أن آيتي الحمل لا تختصانه بهم : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ﴾ فمن هم الثمانية؟ وهل كانوا يوم الدنيا أقل أو أكثر؟.

(تفسير الفرقان ـ ج ٢٩ ـ م ٧)

نقول : هنا عرش قبل خلق السماوات والأرض ، وعرش بعدهما يوم الدنيا وعرش يوم الدين ، كل حسب ما يتطلبه الخلق من حاجاتهم إلى الله فيما يصدر من لدنه تعالى ، ولعل لكل عرش حملة ، وآية الحاقة تصريحة لحملته يوم الدين «ثمانية» وتلويحة لهم يوم الدنيا ، لا ندري الآن عدتهم.

ثم الثمانية يوم الدين : هل هم أشخاص أم أصناف ثمانية؟ أم طوائف ثمان ، تأنيث العدد يوحي أنهم أشخاص ، إذ الطوائف ثمان لا ثمانية! ولا بد للأصناف من دلالة زائدة ، وإذا كانوا أصنافا فلا دليل أنهم كلهم حملة العرش.

وبما أن العرش هو المقام العلي الذي ترجع اليه أزمة جميع التدابير التكوينية والتشريعية ، فلتكن فيه جميع الوقائع والحوادث ، إلا ما يستثنى لله تعالى ، الخاص بساحة الالوهية والربوبية ، فليس العرش الذي تحمله ثمانية ، هو الذي استوى عليه الرب ، إنما قدر منه يقدر على حمله أصفياء من خلقه لتحقيق أمره فيكونوا على مستوى عظمة العرش ، ومعنى الحمل للعرش.

فحملة عرش التربية والعلم هم العلماء الربانيون من الأنبياء المرسلين والملائكة الكروبيين ، حملة الوحي إليهم ، والمدبرين أمر الخلق بأمره.

وبما أن القيامة فيها خلاصة النشأة الأولى وزيادة ، فليكن حملة العرش فيها أكثر منهم يوم الدنيا ، ويصدّق هذا الإيحاء ، إضافة إلى «يومئذ» الدال على اختصاص العدد بيوم القيامة ، يصدقه المروي عن الرسول (ص): يحمله اليوم

أربعة ويوم القيامة ثمانية [١] وروايات عدة أخرى تحصر الثمانية بيوم القيامة كالمروي عن الصادق عليه السلام قال : حملة العرش ـ والعرش العلم ـ ثمانية : أربعة منا وأربعة ممن شاء الله» [٢] لو عني ب «منّا» الحملة البشر ، أو حملته يوم الدنيا.

وبالنسبة لهؤلاء الأربعة لو نظرنا من زوايا عدة إلى نبوات عدة أصيلة كان الأربعة هم «نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد (ص)» فإن موسى والمسيح لم يحملا إلا رسالة واحدة هي التورات ، فهما إذا واحد [٣].

ولو نظرنا إلى القمة المقسّمة على حملتها في الرسالة المحمدية الشاملة للرسالات كلها ، المضيئة عليها كلها ، كان الأربعة هم «محمد وعلي والحسن والحسين» [٤] وعلى أية حال هؤلاء هم حملة العلم والتربية الإلهية تحقيقا وجزاء.

وعن الإمام أمير المؤمنين علي (ع) [٥] : إذ سأله الجاثليق فقال : اخبرني عن الله عز وجل

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٦١ ـ ابن جرير عن ابن زيد قال : قال رسول الله (ص) : وفي التفسير الكبير (ج ٣٠ ص ١٠٩) عن النبي (ص): «هم اليوم اربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله باربعة آخرين فيكونون ثمانية».

(٢) نور الثقلين ٥ : ٤٠٦ عن الصادق (ع).

(٣) راجع كتابنا «المقارنات العلمية وتفسير سورة الجن في هذا الجزء».

(٤) نور الثقلين ٥ : ٤٠٦ عن تفسير القمي قال : حملة العرش ثمانية : اربعة من الأولين واربعة من الآخرين ، فاما الاربعة من الأولين فنوح وابراهيم وموسى وعيسى ، واما الآخرون فمحمد وعلي والحسن والحسين ، ومعنى يحملون يعني العلم.

(٥) نور الثقلين ٥ : ٤٠٥ ـ عن اصول الكافي عدة من أصحابنا عن .

يحمل العرش أو العرش يحمله؟ فقال : الله عز وجلّ حامل العرش والسماوات والأرض وما فيهما وما بينهما وذلك قول الله عز وجلّ : ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ قال : فأخبرني عن قوله ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ﴾ : فكيف ذاك؟ وقلت : إنه يحمل العرش والسماوات والأرض! فقال أمير المؤمنين عليه السلام : «إن العرش خلقه الله من أنوار أربعة : نور أحمر منه احمرت الحمرة ونور أخضر منه اخضرت الخضرة ، ونور أصفر منه اصفرت الصفرة ، ونور أبيض منه ابيض البياض ، وهو العلم الذي حمّله الله الحملة ، وذلك نور من نور عظمته. فبعظمته ونوره أبصر قلوب المؤمنين ، وبعظمته ونوره عاداه الجاهلون ، وبعظمته ونوره ابتغى من في السماوات والأرض من جميع خلائقه إليه الوسيلة بالأعمال المختلفة ، والأديان المتشتتة ، فكل شيء محمول يحمله الله بنوره وعظمته وقدرته ، لا يستطيع لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياتا ولا نشورا ، فكل شيء محمول والله تبارك وتعالى الممسك لهما ان تزولا : والمحيط بهما من شيء ، وهو حياة كل شيء ونور كل شيء ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، قال له فأخبرني أين هو؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام هو هاهنا وهاهنا وفوق وتحت ومحيط بنا ومعنا وهو قوله : ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا فالكرسي محيط بالسماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، وذلك قوله : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ فالذين يحملون العرش هم العلماء الذين حمّلهم الله علمه ، وليس يخرج عن هذه الأربعة شيء خلقه الله في ملكوته ، وهو الملكوت الذي

ـ احمد بن محمد البرقي رفعه قال : سأل الجاثليق امير المؤمنين (ع) فقال له : أخبرني عن قوله : ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ﴾ فكيف قال ذاك ، وقلت : انه يحمل العرش والسماوات والأرض! قال (ع): ...

أراه الله أصفياءه وأراه خليله فقال : ﴿وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ وكيف يحمل حملة العرش الله؟ وبحياته حييت قلوبهم ، وبنوره اهتدوا إلى معرفته».

أقول : علّ الأركان الثلاثة الأول هي مقادير التقدير والتدبير والإبرام في سائر الكائنات تكوينا ، والركن الرابع هو زاوية العلم : تشريعا وتكوينا وما أشبهها.

ثم الأربعة الآخرون يوم القيامة ، علهم من الملائكة الكروبيين الخصوص ، أو أنهم هم لا سواهم ، إذ لو كانوا من الحملة يوم الدنيا لانتفى دورهم يوم الدين!

وهؤلاء المكرمون الثمانية ـ أيا كانوا ـ هم فوق الخلائق أجمع ، ويحملون عرش الرب فوقهم اجمع : ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ﴾.

وعلهم ـ كما احتملنا مسبقا ـ ثمانية صفوف أو صنوف ، فلتشمل كافة حملة الرسالات الإلهية ، وحملة أمر الله تعالى : يوم الدنيا ويوم الدين ، منقسمين إلى صفوف أو صنوف ثمانية ، وانما ذكرت الروايات اولي العزم من الرسل لأنهم القمة فيما يحمّلون ، والائمة فيما يحملون.

وأخيرا ما أروعه وأعمقه حديثا عن العرش يروى عن الصادق عليه السلام ، إذ يسأله حنان بن سدير عن العرش والكرسي فقال : ان للعرش صفات كثيرة مختلفة ، له في كل سبب وضع في القرآن صفة على حدة ، فقوله : ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يقول : رب الملك العظيم ، وقوله : ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾ يقول : على الملك احتوى ، وهذا علم الكيفوفية في الأشياء ، ثم العرش في الوصل مفرد عن الكرسي لأنهما بابان من أكبر أبواب الغيوب ، وهما جميعا غيبان ، وهما في الغيب مقرونان ، لأن الكرسي هو الباب الظاهر من الغيب الذي منه مطلع البدع ، ومنها الأشياء كلها ، والعرش هو الباطن الذي يوجد فيه علم الكيف والكون والقدر والحد والأين والمشية وصفة الإرادة وعلم الألفاظ والحركات والترك وعلم العدد والبدء ، فهما في العلم بابان مقرونان ، لأن ملك العرش سوى

ملك الكرسي ، وعلمه اغيب من علم الكرسي فمن ذلك قال : ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ، أي : صفته أعظم من صفة الكرسي ، وهما في ذلك مقرونان ، قلت : جعلت فداك ، فلم صار في الفضل جار الكرسي؟ قال عليه السلام : إنه صار جاره لأن علم الكيفوفية فيه وفيه الظاهر من أبواب البداء وانيتها وحد رتقها وفتقها ، فهذان جاران أحدهما حمل صاحبه في الصرف ، وبمثل صرّف العلماء ، وليستدلوا على صدق دعواهما ، لأنه يختص برحمته من يشاء وهو القوي العزيز [1].

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ﴾ : تعرضون على الله بشهود الأعمال ، عرضا حاضرا حاذرا مشهودا ، بعد ما كنتم معروضين عليه يوم الدنيا غير مشهودين ، ثم ذلك عرض للحساب ، وهنا عرض العلم ، وفي ذلك العرض الشهادة الحساب ﴿لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ﴾ : خافية النيات والعقائد والأعمال والسرائر ، مهما حاولتم في اخفائها ، إخفاء عن الله؟ كلا! ﴿وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا﴾ (١٨ : ٤٨) ﴿يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ (٤٠ : ١٦) بارزون لأنفسهم وسواهم ، فكيف يخفى على الله منهم شيء ، ولا تخفى عليه خافية!.

وما أخطره هول المطلع والعرض وما أفظعه وأصعبه ، ألا إنه ليوم عصيب أعصب من دك الأرض ومور السماء : وقوف الإنسان عريان الجسد ، عريان النفس ، عريان الضمير ، عريان الحاضر والغابر ، عريان الآمال والأعمال ما ظهر منها وما استتر ، أين؟ امام تلك الحشود الهائلة من خلق الله ، وامام عظمة الله وجلاله! ألا انه حقا لأمر أمرّ من كل أمر وأدهى ، فليحسب له الإنسان حسابه ، وليعدّ له عدّته ، سبحان الغفار العظيم!

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُها دانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ

---

(١) التوحيد للصدوق باسناده عن حنان بن سدير :

يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ (٢٦) يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ (٢٧) ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ (٣٥) وَلا طَعامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخاطِؤُنَ﴾(٣٧)

يوم العرض الأكبر إذ يظهر لأهل الجمع كل ما ستر، يؤتى الأخيار والأشرار كتبهم: كتب الأعمال، فالحساب، فالسقوط أو النجاح، كتب تتناسب في التدليل على مواقف أصحابها، ولعلهم قبل الكل تؤتاهم كتب الشريعة:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ﴾: تدليلا على أنه ناجح بما عاش يمين الحياة بيمين الكتاب الإلهي على ضوء تطبيقه ﴿فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ﴾: يقولها في فرحة غامرة بين الحشر تملأ الفرحة كيانه، وتظهر على لسانه هاتفا أهل الجمع: ﴿هاؤُمُ﴾: هاكم ﴿اقْرَؤُا كِتابِيَهْ﴾: كتاب الأعمال والحساب والنجاح.

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ﴾.

والظن هذا أعم من ظن القلب الذي يساور يقين العقل الذي يدفع للصالحات فإن من يقين العقل ما لا يدفع للصالحات فضلا عن ظنه. وأعم من ظن العقل، فإن من المحشرين من يدخل الجنة بلا حساب ومنهم من يدخلها بحساب، فهو يظن نفسه من الآخرين متهما نفسه تخضعا لله، فإذا هو من الأولين وكما عن الصادق عليه السلام في ظن الشك الممدوح [1]، وعن أمير المؤمنين (ع) في ظن اليقين [2] ولفظ الآية يتحملهما

---

(١) ور الثقلين ٥: ٤٠٧ القمي في الآية قال الصادق (ع) كل امة يحاسبها امام زمانها. الى قوله. فيعطوا أولياءهم كتابهم بيمينهم فيمروا الى الجنة بلا حساب .. فإذا نظر أولياؤهم في كتابهم يقولون لإخوانهم: ﴿هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ﴾.

(٢) المصدر في الاحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (ع) واما قوله: وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها يعني: تيقنوا انهم داخلوها، وكذلك قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ﴾ واما قوله للمنافقين: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ فهو ظن شك وليس ظن يقين».

معا حيث الظن يشملهما هنا لفظيا ومعنويا : اني أيقنت لقاء الحساب وظننت انني ادخل الجنة بحساب ، فإذا بي أدخلها بلا حساب! ، وتشمل الآية أيضا من يدخل الجنة بحساب فيختص بالوجه الأول.

فهذا الكتاب يحمل حسابي بعلامة النجاح ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ﴾ : عيشة بالغة في أنها مرضية لحد كأن الرضا أدغمت في ذاتها فأصبحت راضية ، كما يقال : شعر شاعر وليل ساهر وسحر ساحر ، مبالغة في كمالها وجمالها ، راضية يوم الدين كما كانت راضية يوم الدنيا : صورة طبق الأصل ، وتفضله هناك لظهوره تامة فيها ، ولمزيد الرحمة الإلهية المضافة إليها.

﴿فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ﴾ : عالية في المكان والمكانة ، وفي الرحمات الجسدانية والروحانية «فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» ﴿قُطُوفُها دانِيَةٌ﴾ : أثمارها التي تقطف دانية إلى طلابها ، لا تتكلف القيام ولا التوسل بأية وسيلة.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ﴾ : اكلا وشربا هنيئا سائغا لا تنغيص فيه في الحلقوم ، وذلك بما اسلفتموه من الصالحات في الأيام الماضية : أيام التكليف يوم الدنيا.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ﴾ : علامة السقوط ﴿فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ﴾ : فانه عذاب فوق العذاب وقبله ﴿وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ﴾ فانه يدخل النار بحساب ، ودراية الحساب أيضا قبل العذاب عذاب فوق العذاب ، فإتيان الكتاب بالشمال عذاب ، وعرفان الحساب عذاب ، ثم بعدهما واقع العذاب بقدر الحساب.

﴿يا لَيْتَها﴾ : القارعة المسبق ذكرها ﴿كانَتِ الْقاضِيَةَ﴾ : علي ، الماحقة لوجودي بعد الموت فحسب ، دون أن تتلوها قارعة العذاب بعد صيحة الإحياء في حياة الحساب ، وهي تشبه مقالة الكافر : ﴿يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً﴾.

﴿ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ﴾ : مالي وما ، لي : ما ادخرت من أموال ، وما كنت

املك من طاقات جسدانية ونفسية كنت احسبها تغنيني ، ومن أعوان وأنصار تكفيني ، كل هذه ما أغنت عني يوم الفقر الأكبر ، الذي لم أحسب له حسابا.

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ﴾ : فلا ماله بقي ولا ما له وقد هلكا ، ولا السلطان والقدرات فما بقي لها نفع ، فسلطان الطاقات ، وسلطان الأعوان والصداقات ، وسلطان الجاه والمال كلها كانت قوى وهمية وواهية ، انها هلكت وبقيت لي فقط سيئات الأعمال ، وليس المآل الا أمر الله المتعال :

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ : كما غل نفسه يوم الدنيا باغلال الشهوات ، واستغل معطيات الحياة كلها للحيوانات ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ : أوقدوه نارا شديدة التأجج ، فبوقوده تتأجج فيحرق حوامش الضلالة ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ﴾ : الغل الأكبر بعد الغل المسبق قبل الجحيم ، والسلسلة السبعون تسلكه ، وبعد ماذا؟ بعد ما يصدر من العلي الأعلى الأمر بأخذ هذه الحشرة الصغيرة المكروبة المذهولة ، فيبتدر لتحقيق أمر الله الملائكة الغلاظ الشداد ومعهم من معهم من المنتدبين للتنفيذ ، تدور السلسلة حوله فتقيدة ، ولو كان هناك مجال لأصبحت السلسلة ملايين الأمتار لتسابق النادبين في سلكه بالسلسلة ، لكنما المغلول محدود هكذا ، وأمر الله محدد بالسبعين ، عله مقصود لحده ، وعله كناية عن طوله ومده بالكثرة الكثيرة : و «لو أن حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعا وضعت على الدنيا لذابت الدنيا من حرها» [(١)] ولماذا هذا العذاب الشديد؟ ﴿إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ﴾ : كأن كيانه بشرّه أصبح تأبيا عن الإيمان بالله «كان» مستمرا معاندا دائبا ﴿لا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ﴾ الذي ترى عظمته في الخلق أجمع ، وفي ضمير هذا الصغير! وأقل جزاء له هذا العذاب الشديد.

﴿وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ﴾ : فقد قطع حبلا من الله إذ لم يؤمن به ،

---

(١) نور الثقلين (٥ : ٤٠٩) الحديث ٤٤ : عن محمد بن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد الله (ع).
وفي الصافي ص ٥١١ روى نفس الحديث عن القمي عن الصادق (ع).

وحبلا من الناس إذ لم يحرض على طعام المسكين : لا خير فيه لنفسه ولا لسواه فأصبح صفر اليدين عما يفلح الإنسان يوم الدين ، لا ايمان بالله ينجيه ، ولا رحمة على عبادة تغنيه ، إذ تركهما إلى الاضداد ، فأصبح أسيره بما قدم.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ﴾ ﴿إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً. جَزاءً وِفاقاً﴾ (٧٨ : ٢٥) والا ﴿شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٠ : ٤) و ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ (٢٢ : ١٩) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ﴾ (٢٧ : ٦٧) ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ﴾ الا ما يحمّه من عذاب أليم ، فهو يستحم في الجحيم ، رغم ما كان له يوم الدنيا ، فحميمه ينقلب عليه عدوا : ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٤٣ : ٦٧) ولو بقي له حميم ، ف ﴿لا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾ (٧٠ : ١٠) ، فالذي كان يحم له ويستحم يوم الدنيا ، سوف يبرد عليه يوم الدين ، ولأن حمّه كان على غير هدى ولا تقوى ، وانما على ضلال وطغوى ، فيوم تبلى السرائر وتنكشف الضمائر وتستقر الحقائق ، في هذا اليوم العصيب تتبدل هنا الحمّ الخاطئ إلى برودة ، كأنهم لا يعرف بعضهم بعضا ، اللهم إلا عداء وبغضا!.

﴿وَلا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ وهو من الضريع الذي يضرعه ويعذبه ، بدل ان يلذه ويشبعه ، والغسلين : غسالة أهل الجحيم من قيح وصديد ، وهو يلائم قلبه المقلوب الخاوي من الإيمان بالله ومن الرحمة لعباد الله ﴿لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخاطِؤُنَ﴾ : خطأ معمدا معاندا.

﴿فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ (٣٨) وَما لا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾(٥٢)

﴿فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ. وَما لا تُبْصِرُونَ﴾ اللّاقسم هنا عام يشمل

الكائنات كلها ، إذ لا تخلو مما تبصرون وما لا تبصرون ، منعطفا إلى حقيقة ناصعة في ذاتها ومعطياتها : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فالقرآن بذاته شهادة على مصدره الرسالي الإلهي ، دون حاجة إلى براهين منفصلة عنه تدل عليه ، فاللاقسم هنا تأديب وزجر للمرتابين ان يفكروا في القرآن نفسه فيستدل كلّ بزاويته الخاصة التي تهمه ، إذ القرآن معجزة خالدة في كافة جوانبه وزواياه ، فليجل جال بصره وليقصر ناظر نظره إلى القرآن نفسه هل يرى فيه شعرا أو كهانة وسحرا ، إلا تنزيلا من رب العالمين ، تلمس فيه ربوبيته العالمية.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ : قول رسول لا يقوله إلا عن مرسله دون أن يتقول عليه الأقاويل ، وهو كريم ليس على غيب الوحي بضنين ، هو واسع صدره متفتح قلبه ، لا يخون أمانة الوحي كالسماء ذات الرجع لا تخون ﴿وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ. وَالْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ. وَما هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ (٨٦ : ١٢) إنه أمين كريم ليس كيانه في حياته إلا الرسالة الإلهية وبلاغها.

﴿وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (٣٦ : ٦٩) يبين بذاته أنه ذكر وليس شعرا وخيالا موزونا ، رغم ما يتقولون عليه دون برهان انه شاعر : ﴿بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ﴾ (٢١ : ٥) ﴿وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ (٣٧ : ٣٦) ﴿أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ (٥٢ : ٣٠) هل هو شاعر؟ ﴿وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ ... إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٢٦ : ٢٢٤) فقد ينشد الشاعر عن إيمان وصدق ، وأحيانا كثيرة عن الخيال واللاإيمان ، وهما مشتركان في زخرفة المعنى بموسيقى القول ، ما يزيد المعنى لمعانا لو كان صادقا ، وما يريه حقا لو كان باطلا ، وحاشى الرسول الكريم أن يزخرف الوحي بما ليس منه! ولماذا؟ فهل ليزيد في نضارة القرآن ، وهو فوق القمم في فصاحة التعبير وبلاغة التنسيق! ..

ثم لا نجد أيا من أوزان الشعر وأوهامه وأساطيره في هذا الذكر المبين ،

فكيف يتقول على قائله : انه شاعر ، أو عليه : انه شعر ، أهكذا كذب واضح وفرية فاضحة؟.

إن هذا القرآن ليس شعرا ولا نثرا نتعوده ، إنما هو بدع في التعبير ، عديم النظير ، لم يصدر ولن يصدر من أي مصدر إلا الله ، ولأنه خاتمة الوحي ، فريد في موسيقاه ، فريد في معناه ، يوحي من كل زواياه ، انه ليس بقول بشر ، ولا أي مصدر غير الوحي ، منهج منقطع النظير ، تفرد به اللطيف الخبير ، وبين كتابات الوحي أيضا ، فضلا عما سواها ممن سواه!.

إن المذاهب الأدبية أجمع ، والمذاهب الفكرية أجمع ، والمقاييس الموسيقية أجمع ، إنها كلها ومعها كافة المذاهب طوال التاريخ ، هي فاشلة أمام المذاهب التي سلكها القرآن ، منهزمة في صراعها العنيد الشديد ، يعرف بذلك أهلوها شاءوا أم أبوا ، وإنما يلقون دعايات يلغون فيها ويزخرفونها ، علهم يضلوا جهالا كأمثالهم ، ولكنما العلماء العقلاء لا يضلون.

فليست القولة الجاهلة : إنه قول شاعر ، إلا نتيجة عدم الإيمان ، لا أن لهم برهانا على ما يتقولون ﴿فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ﴾!

﴿وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ﴾ يؤخذ عن الجن والشياطين ﴿قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ﴾ فلو كان قول كاهن لم يرد فيه شتم الشياطين الذين يؤخذ منهم في الكهانة ، ثم اناقه القول وعمق المعنى يحيده من أن يكون من غير الله ، بل قليلا ما تذكرون حقائق تعرفونها من أصولها.

﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ : تنادي بهذه الحقيقة الناصعة آياته البينات فربوبيته العالمية باهرة فيها ، ظاهرة لمن يتدبرها ويتذكرها وأراد الإيمان.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ﴾ : الأكاذيب ... ﴿لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ...﴾.

لا هو فحسب ، بل هذه السنة الإلهية ثابتة في رسله : ان لو تقولوا لفضحهم

وأخزاهم ـ ولن يتقولوا ـ يخزي المتقول لكيلا يخزي الوحي والرسالة الإلهية ويضل الناس فتكون حجة لهم على الله ، كما لو لم يبعث رسولا بل وأقوى : فالعقل هنا يستقل بما يوحيه النقل من ضرورة الأخذ بيمين القدرة الإلهية. من يتخلف من الرسل عن الرسالة الإلهية.

بشارة توراتية بحق الرسالة المحمدية :

تصرح التوراة ـ فيما تصرح ـ من عشرات البشارات بحق الرسول الأقدس محمد (ص) هنا بوجه عام ـ بعد تخصيصه بالذكر ـ أن المتقول على الله يؤخذ بأخذة قوية إلهية تفضحه كما في الأصل العبراني التالي :

(١٧) نبي أقيم لهم : (بني إسرائيل) من أقرباء أخيهم ، كموسى وأضع كلامي في فمه لكي يبلغهم جميع ما آمره به (١٧).

(١٩) وأي انسان لم يطع كلامي الذي يتكلم به باسمي فإني أحاسبه عليه (١٩).

(٢٠) وأي نبي تجبر فقال باسمي قولا لم آمره أن يقوله أو تنبأ باسم آلهة أخرى فليمت (٢٠).

وخي تومر بيل بابخا إخاه ندع إت هدابار أشرلوء ديبرو ادوناي أشر يدبر هنابئ بشم ادوناي ولؤيهيه هدابار ولوء يابوء هوء هدابار أشر

لوء ديبرو ادوناي بدادون ديبرو هنابئ لوء تاغور ميمنو (٢١ ـ ٢٢) :

فان قلت في نفسك كيف يعرف القول الذي لم يقله الرب (٢١) فإن تكلم النبي باسم الرب ولم يتم كلامه ولم يقع فذاك الكلام لم يتكلم به الرب بل لتجبره تكلم به النبي فلا تخافوه (٢٢).

هذه الآيات البينات تبشر أن الله تعالى وعد العالم أن يقيم نبيا كموسى من أقرباء أخوة بني إسرائيل ، فإخوتهم بنو عيص كما تقول التورات (تثنيه ٢٨ : ٨) فأقربائهم هم بنو إسماعيل. فهو الرسول الأقدس محمد الاسماعيلي الذي هو كموسى في استقلال شرعته ، لا المسيح الذي هو تبع لموسى في شرعته.

ثم تتهدد الآية (١٩) هؤلاء الذين يتخلفون عن هذا الرسول العظيم ، ثم تعزيزا وتثبيتا لموقفه الرسالي ـ ومعه سائر المرسلين ـ يحكم بالموت : الموت الروحاني وموت الدعوة ، على المتجبرين المتقولين على الله الأقاويل (٢٠). ثم الآية (٢٢) تأتي بميزان لصدق مدعي النبوة انه وقوع كلامه كما يخبر [1].

والقرآن يصدق هذه الآيات أن :

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ أخذنا منه الرسالة والوحي واسترجعناه منه بيمين القدرة ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ : قطعا لوتين الوحي حيث لا رجعة فيه ، وقطعا لوتين العقل إذ يقول ما يفضحه مما يطارده العقل ، موتا مزدوجا يفضحه أمام العقلاء الناابهين ، فليس يعني به وتين الجسم ، وهو عرق رئيسي في القلب يمد شبكة العروق في الجسم ، وإنما وتين قلب الروح الممدود به شبكات الروح.

---

(١). تجد تفصيل البحث حول الآيات في كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية.

كما الموت المهدد به حسب التورات ليس موت الجسم فانه لا يخص الكاذبين ، وكثير منهم يعيشون حياة الكذب طويلا ، وإنما هو موت الروح الرسالية بأن يتبين كذبه في فلتات لسانه وصفحات وجهه وسقطات تصرفاته ، وفي تناقض أقواله وتهافت أحواله ودحض حججه في محكمة العقل والفطرة.

فكما ان يمين القدرة الإلهية هي التي وفقته للرسالة وعصمته عن الضلالة ، كذلك هي التي تسترجعها لو تخلفت عن جهات اشراعها! ولكن حرف : ﴿لَوْ﴾ تحيل على الرسول الأقدس (ص) تقوّل الأقاويل ، كما العقل يحيله إحالة مزدوجا : أن الله اصطفاه وهو يعلم مستقبله كما علم ماضيه ، وانه يعصمه عصمة لأمانة الوحي وكرامة الرسالة ، وما استرجاع المناصب إلا نتيجة جهل الناصب وضعفه ﴿وَاللهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ﴾ : لا يحجزه أحد عما يريد ، وهو الحاجز عما نريد.

﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ : الذين يتقون الجهل والتجاهل والعناد ، فهم المتذكرون بهذه الذكرى ، وأما الذين كفروا معاندين فهي عليهم عمى!. وهم في ضلالهم يعمهون.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾ : لهذه الرسالة السامية ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ : ان تكذيبها حسرة عليهم يوم الدنيا ويوم الدين ، لأنها تملك من براهين الصدق ما لا يملكه سواها :

﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ : ان القرآن ونبي القرآن ، إنه لحق اليقين ، لا علم اليقين فحسب أو عين اليقين ، فحق الوحي القرآني حق اليقين ، ذاته اليقين : لا ريب فيه هدى للمتقين ، فبامكان من يعيش قلبه القرآن ، ويسري في وتين قلبه روح الإيمان وفي نياطه القرآن ، فيعيش القرآن قلبه ، بامكانه أن يعرج إلى أعلى معارج

اليقين : حق اليقين ، فعلم القرآن كما يحق هو علم اليقين ، وعينه عين اليقين ، وحقه حق اليقين! عميق في الحق وعميق في اليقين كاعمق ما يمكن.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ : سبحه باسمه الحق عما لا يليق به ف ﴿لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها﴾ وسبح كتابه باسمه عن أن يكون شعرا أو كهانة أو أي تقوّل ، فربوبيته العظيمة لائحة في طياته ، بارزة في آياته ، والسلام على من اتبع الهدى ، وجانب الردى.

سورة المعارج . مكية . وآياتها أربع وأربعون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ (١) لِلْكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ (٢) مِنَ اللهِ ذِي الْمَعارِجِ (٣)
تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً (٥)
إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (٦) وَنَراهُ قَرِيباً (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ
(٩) وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ
(١١) وَصاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤)
كَلاَّ إِنَّها لَظى (١٥) نَزَّاعَةً لِلشَّوى (١٦) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعى﴾ (١٨)

﴿سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ لِلْكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ﴾ فمن هذا السائل؟ ولماذا سأل العذاب؟ وهل نزل عليه ما سأل؟

تقول كثير من روايات الفريقين إن السائل هو النضر بن الحارث الفهري [1] : «انه لما شاع قصة الغدير في البلاد أتى ابن الفهري رسول الله (ص) فقال : يا محمد! أمرتنا عن الله بشهادة ان لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله (ص) وبالصلاة والصوم والحج والزكاة فقبلنا منك ، ثم لم ترض بذلك حتى رفعت بضبع ابن عمك ففضلته علينا وقلت : «من كنت مولاه فعلي مولاه» فهذا شيء منك أم من الله؟ فقال رسول الله (ص) والذي لا إله إلا هو ان هذا من الله ، فولى ابن الفهري يريد راحلته وهو يقول : اللهم ان كان ما يقول محمد حقا فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، فما وصل الى راحلته حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره فقتله. وحينئذ نزلت الآية ﴿سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ﴾ [(وفي شرح الأخبار) نزلت : ﴿أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ﴾[2]].

أقول : مكية السورتين قد تنافي الروايتين اللهم الا ان تكونا نازلتين بعد الغدير مسجلتين في سورتيهما النازلتين قبل الغدير وكم له من نظير!.

---

(١). الدر المنثور (٣ : ١٨١) : أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ، وابن جرير عن عطاء ، وفي : (٦ : ٢٦٣) اخرج الفريابي وعبد بن حميد والنسائي وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس وابن المنذر عن زيد بن اسلم وابن جريح ، وابن أبي حاتم عن السدي ، وفي بعض الروايات انه الحارث بن علقمة ، وفي بعض : نعمان بن الحارث.

(٢) ذكره ابو عبيد والثعلبي والنقاش وسفيان بن عيينة والرازي والقزويني والنيسابوري من إخواننا ، في تفاسيرهم ، وأصحابنا كذلك اجمع.

والقرآن يذكر السائل هنا والسائلين : ﴿وَإِذْ قالُوا اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ [١] فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ. وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٨ : ٣٢) ﴿وَقالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ﴾ (٣٨ : ١٦) ﴿أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٢٦ : ٢٠٤).

وقد يكون السائل في المعارج غير السائلين في سواها كيانا وسببا ، وقد يكون منهم ، ولكنه عجل قطّه : نصيبه بسؤاله ، قبل يوم الحساب ، والباقون أجلوا ليوم الحساب ، عله لكون الرسول أمانا ما دام فيهم أو يستغفرون ، أو لأنهم استغفروا ، وانما أصيب واحد منهم ذكرى لهم لعلهم يحذرون.

وعلى السؤال لم يكن ليختص بهامة الغدير ، فقبلها هامات أتم وأعم ، كالأصول الإسلامية التي كانوا ينكرونها ، إذا فالروايات المفسرة لها بقصة الغدير هي من باب الجري والتطبيق ، أو أنها من ضمن ما سألوا له العذاب ، كما تظافرت به الروايات.

ثم السائل هنا ـ الذي أبهم عن اسمه ـ انما سأل العذاب الواقع تحديا على الحق وعلى وقوع العذاب ، توهينا للرسالة والمرسل ، فلقد كانت الحقائق الإسلامية عسيرة الإدراك والتصديق على من عاشوا الخرافات والأساطير والهرطقات ، وقد لقيت منهم معارضة نفسية عميقة ، فكانوا يتسمعونها بكل دهشة واستغراب ، وينكرونها أشد الإنكار ، متحدين الرسول بألوان التحديات ولو تعرضوا للخطر ، كهذا السائل الغبي! :

﴿سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ لِلْكافِرينَ﴾ : إنه سأل ما لم يكن بحاجة الى سئوال لأنه واقع للكافرين والسائل منهم.

﴿بِعَذابٍ واقِعٍ لِلْكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ﴾ : واقع للكافرين ليس له دافع من الله ،

للكافرين فقط ليس له دافع ، واما غيرهم فلهم دوافع عنه من توبة وغفران وشفاعة واضرابها من دوافع العذاب.

﴿مِنَ اللهِ ذِي الْمَعارِجِ﴾ : سأل من الله ، بعذاب من الله ، ليس له دافع من الله ﴿ذِي الْمَعارِجِ﴾ الذي له معارج الرحمة ومعارج العذاب ، يعرج خلقه في أيّ منهما يوم الدنيا ويوم الدين ، ولكنما الأغبر الغبي يسأل العذاب ، لأنه في تباب ، وذاته تباب ، وكيانه عذاب.

وان حق المعارج لله هو معارج الرحمة ومعارج الحساب :

﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ : فما هذا اليوم؟ هل هو يوم القيامة؟ فلا نهاية له! أم هو يوم من أيامها؟ فما هي تلكم الأيام؟ أم من أيام الدنيا ، فهذا خرق لنظام الكون! ولا تعرج الملائكة والروح عن مناصبهم الى الله والدنيا قائمة ، وانما ذلك ليوم الدين إذ تقطعت الأسباب وقضي الأمر ورجعت الكائنات كلها الى الله كما بدأت.

ان اليوم حسب القرآن ـ وفي وجهة عامة ـ يعنى منه مطلق الزمان ، من واحد الزمان كما نعرف وفوق ما نعرف ، ومن مجموعة الزمان ، وبينهما متوسطات.

فمن واحد الزمان إلهيّا ما فيه شأن الخلق من الله العلي القدير : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (٥٥ : ٢٩) يعنى كل آن ليس فوقه آن ، فان الشأن الإلهي لا يخلو منه أقل آن ، فلا بد أن يعنى هنا بالآن أقل الآنات في حساب الله.

ومنه اليوم النهار مقابل الليل : ﴿سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ (٦٩ : ٨) ﴿فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (٢ : ١٨٥).

ومنه اليوم : بليلة ونهارة : ﴿فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ﴾ (١١ : ٦٥).

ومنه يوم خلق السماوات والأرض : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ..﴾ (٩ : ٣٦) .. وهو مجموعة زمان خلقهما ، وقد عدت في آيات ستة أيام : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ (٧ : ٥٤).

منها يومان لخلق الأرض ، ويومان للسماوات السبع ، ويومان علهما : لخلق الدخان السماوي وخلق الأنجم في السماء الدنيا ، أم ماذا؟ سوف نوافي بحثه في الآيات من فصلت وان المعني من اليوم هنا الدور.

ومن اليوم ألف سنة مما تعدون : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٣٢ : ٥) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٢٢ : ٤٧).

ومنه خمسون ألف سنة مما تعدون ، ﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً﴾ لنرى ما هو واحد الزمان الربوبي وما هو الألف والخمسون الف؟

أقول : انه ليس اليوم الألف ولا اليوم الخمسين الف هو الزمان المنطبق على الحدين ، وإلا كان حق التعبير في الف سنة وفي خمسين الف سنة واليوم زائد ، ولكان ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ زائدا ، لأن الزمن اليوم : الالف والخمسين الف لا يخصه.

إذا فليكن المعني من اليوم واحد الزمان بحساب سرعة السير الملائكي في آية المعارج ، وسرعة نفاذ التدبير الإلهي نازلا من السماء وراجعا إليها في آيتي الحج

والسجدة ، وعلى سير المعراج للنبي الأقدس هو كسير المعارج وعلى حد قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : «انه أسري به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى مسيرة شهر ، وعرج به في ملكوت السماوات مسيرة خمسين الف عام في أقل من ثلث ليلة حتى انتهى الى ساق العرش [١]» وهذه المسيرة هي في واحد الزمان ، لا في ثلث الليل.

فهل إن واحد الزمان في سير المعارج ثانية في حسابنا المألوف؟ أم ٠٠٠ ، ٥٠ / ١ منها في حساب أدق وهو الزمن الالكتروني [٢] ٠٠٠ ، ٥٠ ضعف الزمن الأرضي؟ أم أقل منها في دقة ثانية : ان نحسب كل دورة الكترونية سنة ثم نقسمها بحساب الثواني [٣] ، أم وأقل منها أيضا لأن الزمن في حساب الله يختلف عما عندنا.

ثم الخمسين الف هل هو حساب السنين الضوئية؟ التي هي ـ على أقل التقدير ـ ١٨٠ مليون ضعفا بقياس السير العادي؟ أم فوق الضوئية وعلى حساب أكثر السرعة في سيرنا المتصور المقدر؟.

ثم المسافة الى العرش ، الى السدرة المنتهى ، ليست مسيرة يوم هكذا ، انما هذا قياس السرعة الملائكي وفي معراج الرسول (ص) في واحد الزمن الربوبي ،

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤١٣ في كتاب الاحتجاج للطبرسي روى عن موسى بن جعفر عن آبائه عن الحسين (ع) ان امير المؤمنين قال ـ وقد ذكر النبي (ص) ـ :

(٢) لان الالكترون يدور حول شمسه البروتوني في الذرة ٠٠٠ ، ٥٠ مرة في الثانية الارضية.

(٣) إذ ان كل دورة الكترونية وهي ٠٠٠ ، ٥٠ ثانية ارضية ، تعتبر سنة الكترونية ، إذا نقتسم هذه السنة كذلك الى الثواني ، فكل ثانية منها نعتبرها واحد الزمن الربوبي في سير المعارج.

والرسول اجتازها في أقل من ثلث الليل ـ أربع ساعات ـ وهل تعرجها الملائكة والروح في نفس الوقت أم أكثر؟ لا ندري!

وحسب الحساب الدقيق الذي نعرفه حتى الآن تصبح المسافة المجتازة في المعارج ، في واحد الزمن الربوبي ـ كالتالي :

٠٠٠ ، ٥٠ ـ الثانية الالكترونية x٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٢٠٠ ، ٤٣

بتحويل الثانية الالكترونية بحساب ٠٠٠ ، ٥٠ / ١ منها : سنة ، الى ٠٠٠ ، ٥٠ ضعفا ثم بحساب سرعة الضوء تضرب في ٠٠٠ ، ٣٠٠ والنتيجة :

٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٨٠٠ ، ٦٤ هذا المقدار هو السير المعارجي في واحد الزمان الربوبي كما نعرفه ، ولكنه بحساب الله أكثر بكثير ، لأن واحد الزمان هو واحد الحركة في المادة الأولية وليست هي الالكترون حتى نحسبه بحسابه ، ثم انه في ثلث الليل : أربع ساعات يصبح العدد المسبق مضروبا في / ٨٦٤٠٠ ، فالسير المعراجي أيضا يصبح : / ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٧٢٠٠ ، ٥٧٨ ، ٥ ضعفا بالنسبة لسيرنا في ٠٠٠ ، ٥٠ سنة : ، والحاصل ان اليوم المعراجي والمعارجي هو واحد الزمان الذي هو من مظاهر واحد الحركة ، وإذا كان سير الرسول (ص) في معراجه في واحد الزمان قدر خمسين الف سنة مما نعده ، ولا سيما إذا عددناه حسب السنين الضوئية حينئذ يفلت حسابه عن عدّنا وتصورنا [1].

وأما ان هذه السرعة الهائلة تخلق حرارة هائلة تذوب وتتحول فيها العناصر الى أبسطها ، ثم الى كم؟ لا ندري ، فكيف عرج الرسول هكذا سليما ورجع

---

(١) من قوله تعالى : تعرج ، نستوحي أن هذا السير انما هو بحساب سرعة العروج لا زمنه ، في كانَ مِقْدارُهُ اي مقدار السير في سرعته لا في زمنه.

سليما؟ فالجواب. ان المعراج خارقة إلهية خرق فيها الكثير من القوانين الطبيعية العادية ، كما النار أصبحت بردا وسلاما ، فلتكن معجزة عدم تحول الجسد المحمدي الى غيره ، كمعجزة أصل المعراج الى الأفق الأعلى قلبا وقالبا ، وتكملة البحث تجدها في النجم والإسراء إنشاء الله تعالى.

﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[1] : الى عرشه ، والى قمة الكون وكاهله ، لا الى ذاته المقدسة ، فليس له تعالى مكان! وانما الى حول العرش كما شرحناه مسبقا في الحاقة ، ولأنهم قضوا ما كان عليهم يوم الدنيا ، ومضوا فيما أمروا وقضي الأمر فإلى الله ترجع الأمور ، وليقض بينهم الحق : ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٣٩ : ٧٥).

الملائكة والروح ـ وهو أعظم منهم وليس منهم بقرينة قرنه بهم [2] ـ انهم يعرجون هكذا للعرض والحساب ، وكما المكلفون أجمع يعرضون على الله ، سواء.

﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً﴾.

الصبر : منه عليل كليل ومنه عظيم جميل جليل ، فالجميل منه ممدوح والعليل مقدوح ، والجميل ما يجمل صاحبه وسواه ، بتحمل المكاره والأذيات في سبيل الله لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ، كما حدث أمر الله الجليل لهكذا صبر جميل

---

(١) ان اختلاف حساب الزمن لا يختص بالزمن الربوبي والخلقي ، فان العلم اليوم أثبت الاختلاف بين زمن الأرض وسائر العوالم السماوية ، والكتاب والسنة أثبتا اختلاف زمن الدنيا عن البرزخ وهو عن المحشر.

(٢) راجع سورة القدر في ج ٣٠ ـ ص ٣٨٢.

لأهله الصالحين. فهو من عزم الأمور : ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤٦ : ٣٥) ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٦ : ١٢٦) ، صبر ابتغاء وجه الله : ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ... أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (١٣ : ٢٢) و ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١٦ : ٤٢) ومن هؤلاء الأئمة الدعاة الى الله : ﴿وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا﴾ (٣٢ : ٢٤) فمجال الصبر هو ان يكون ابتغاء وجه الله واتكالا على الله ، ورضى برضى الله ، وانتظارا لحكم الله : ﴿وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ﴾ (١٠ : ١٠٩) : وكما صبر يعقوب عليه السلام إذ قال : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ﴾ (١٢ : ١٨) ولكن الرسول الأقدس عليه أن يجمع في سبيل تنفيذ هذه الرسالة الخالدة ، يجمع صبر أولى العزم وهممهم : ﴿فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ (٤٦ : ٣٥).

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَراهُ قَرِيباً﴾ : فهم يرون العذاب الواقع يوم الحساب ، ويرون الحساب : بعيدا عن العقل والواقع ، ونراه قريبا حسب العقل والواقع بحكم العدل ، وكل آت قريب! ثم عله قريب حلوله أيضا : ﴿وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ (٣٢ : ٦٣) وكيف لا وقد جاء أشراطها؟! ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها﴾ (٤٧ : ١٨) فبيننا وبين الساعة أقرب مما بيننا وبين بداية الخلقة لو انها القيامة الأولى ، أو من بداية خلقنا أو خلق كوننا الحاضر ، لو أنها غير الاولى ، فقد مضى ـ على اية حال ـ اكثر الزمن وبقي اقله ، وكفاه قربا للساعة ، فلئن يشك الرسول الأقدس في قربها فهو بحساب آخر : ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ﴾ (٢١ : ١٠٩) : قربا أو بعدا بالنسبة لزمن نزول القرآن ، لا قياسا الى ما قبله ، وعلى هذا القياس : ﴿وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (٤٢ : ١٧).

فهنا للساعة قرب مؤكد بحساب العقل والعدل ، ومؤكد بحساب الواقع

قياسا إلى ما مضى ، ومجهول لأنه في علم الغيب قياسا إلى ما يأتي : أبعد سنة أو آلاف أو ملايين؟ لا ندري.

وإذا كانت الساعة قريبة فهي تسلي النبي في صبره الجميل على الأذي ، إذ يرى من هنا كيف يجب على مناوئيه أن يصبروا على اللظى ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوى. تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾.

فأمره بالصبر ، وقرنه بقرب الساعة ، هما تثبيت لقلبه المنير على ما يلقى من عنت المناوآت ، فهو ضروري لثقل العبء ووعثاء السفر وبعد الطريق وغور النضال ، حفظا لهذه النفوس النفيسة وجعلها متماسكة راضية ، متمسكة بحبل من الله ، موصولة بالهدف البعيد ، متطلعة إلى أبعد الآفاق.

ومن مشاهد هذا اليوم الرهيب العصيب في أغوار النفس ومجالي الكون أنه : ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ. وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ﴾ هذه الحرب المعلة الشعواء تجعل من السماء مهلا ومن الجبال عنها ، ما يبرهن على انهزام تام للكون أجمع! تحت رحمة الواقعة القارعة والطامة الكبرى ، ويومئذ يتذكر الإنسان ما سعى.

والمهل هو دردي الزيت المغلي وهو ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ : فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ﴾ (٥٥ : ٣٧) وهو المهل بعينه ، وعلّ منه عكر القطران والفضة المذابة ، فالمهل ـ أيا كان ـ لا يمهل ولا يهمل وإنما يغلى ويغلي ، وهذه من الحالات المستقبلة للسماء ذات الرجع ، وعلّه إلى حالتها الأولى الدخانية.

ومن المهل المعادن المذابة ، فهل الأجرام السماوية مؤلفة من معادن منصهرة إلى الدرجة الغازية الدخانية ، وعلى حد تعبير علماء الطبيعة والفلك؟ فترجع إلى نفس الحالة في رجعها ، أم إن السماء كلها مخلوقة من غازات أولية ، مهما انقلبت

إلى معادن وسواها من السماويات، كما القرآن يقول، فتنقلب إلى ما كانت وفي أوساط الطريق إلى المهل؟ : دردي الزيت؟ فهذا أتم وأعم، ولم ينظر العلم إلا إلى زاوية منه محدودة.

والعهن هو الصوف المصبوغ وعله هنا صبغتان : صبغة أولى هي من الجبال أنفسها فإنها ألوان : ﴿وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ﴾ (٣٥ : ٢٧) وثانية هي من أثر الدكة الواقعة التي تحمرّ منها عين السماء وكلها عين! ثم هذا العهن ينفش : ﴿وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾.

فيوم السماء والمهل والجبال العهن، سوف يصبح الإنسان عهنا ومهلا، سواء.

﴿وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾ : سواء كان له حميم كالأخلاء المؤمنين، أولم يكن : ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ﴾ (٦٩ : ٣٥) كغير المتقين. ف ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فلقد زال التساؤل بين الأحمة وسواهم، ف ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ﴾ و ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (٨٠ : ٣٧) فكيف يسأل حميم حميما ولماذا؟ والسائل والمسؤول كلّ في شأنه الشائن أم سواه! وسواء أكانت حمّة القرابة أو الصداقة أم أيا كان، أجل! ولأنهم كلهم في همّ شاغل، فلقد قطع الهول المروّع جميع الوشائج وتعطلت الأسباب ورجعت الأمور إلى الله لا تتعداه إلى سواه ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (٤٤ : ٤١) فلا هناك تساءل استخبار عن أحوال، ولا شفاعة ولا أيا كان من أي ولأي صالحا أم طالحا إلا من أذن الله أن يشفع أو يشفّع له دون سؤال.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ : يعرّفونهم فيعرفونهم تماما، فعدم التساءل من عدم المعرفة لوقعة الطامة، ولكنهم يعرفونهم بعد ما جهلوهم، ولكنما المتقون سوف يتساءلون واما المجرمون :

﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ. وَصاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ. وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾.

فهذه المعرفة في يومهم العصيب لا تغنيهم إلا أملا ليس بواقع ، يأمل الكل على تحسر : لو يفتدي ويستبدل من عذاب يومئذ بمن يملك أمره ومن لا يملكه ، لو يفتدي بأعز الناس عليه ، ممن كان يفتديهم بنفسه يوم الدنيا ، فهو يبتدئ في زعم الافتداء من بنيه الى صاحبته وأخيه ، وهم الأحمّة الأقارب ، ثم الى فصيلته : أمه التي فصل عنها وفصلت هي عنه وهي مع ذلك تؤويه ، ثم الى جماعة فصيلة عنه تؤويه عن مهالكه ، مما يجعلهم كالأحمة ، ثم يبلغ به هذا الأمل المحال الى الافتداء بغير الأحمة والفصائل والى من في الأرض جميعا لكي ينجيه ، فلهفته على النجاة في هوله الحائل بينه وبين عقله ، انها تفقده الشعور ، صورة للهفة الطاغية والفزع المذهل تجننه وتخبطه لهذا الحد : ان لو يفتدي بمن في الأرض جميعا ، مما يصور لنا ثقل العذاب الهائل الذي يفقد الشعور عن أهله أو يضطرهم الى هذه الآمال المجنونة الفوضى!.

كلا! ليس هنا دافع من عذابه ولا فدية مالية : ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدى بِهِ﴾ (٣ : ٩١) ولا فدية نفسية ولا ما في الأرض جميعا من نفس ونفيس : ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ (١٣ : ١٩) ولو كان لهم ما تقبل منهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ (٥ : ٣٦) وليست الفدية المنفية تختص بالذين كفروا : ﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (٥٧ : ١٥) ، ولأن الفدية من الرشوة وليس في حكم الله رشوة ، وأنها ظلم بحق المفتدى به ، وسماح عمن يستحق العذاب وكلاهما خارجان عن نجد الصواب.

﴿كَلَّا إِنَّها لَظى ، نَزَّاعَةً لِلشَّوى ، تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ، وَجَمَعَ فَأَوْعى﴾ :

﴿كَلَّا﴾! ليست جهنم مما تقبل الفدية ، ف ﴿إِنَّها لَظى﴾ : لهب خالص يتوقد ويلهب عن كفر خالص ، من وقودها الكفار الذين يصلونها موقدين

﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوى﴾ تقتلع بشدة واعتماد ، للشوى : جلدة الرأس والكوارع والأطراف ما عدا المقتل لكيلا يقتل ، فهي تنزع ما شوته وأحرقته ثم ترجع هي جلودا غيرها ، فهي هي وهي غيرها باختلاف الصورة والمادة : ﴿كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ﴾ (٤ : ٥٦).

ولأنها لظى : لهب خالص متوقد من أنفسهم الجهنمية ، لذلك ليست لتقبل بدلا وفدية ، وانما تدعو وقودها لا سواه ، فهل يا ترى ان النار تدعو وقود غيرها؟ كذلكم هؤلاء الذين هم حطب جهنم ووقودها لا تدعو نارها إلا إياهم ولا ترضى بسواهم ، اصطحاب العلة والمعلول!.

﴿تَدْعُوا﴾ : تجذب الى نفسها دون رادع ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحق ﴿وَتَوَلَّى﴾ دعوة لإيقادها وصليها : ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى. لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى ، الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (٩٢ : ١٦) ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعى﴾ جمع المال للإيعاء دون فائدة شخصية ولا جماعية ، ودون تفهّم ووعي لعوائدها ، وانما ايعاء للأموال كأنها هي الغاية ، تبديلا للوسيلة الى الغاية ، ثم تجميدا للغاية ، وتوقيفا لرحى الإقتصاد والحركة العمالية والتجارية ، فهؤلاء خطر على البشرية مادية ومعنوية ، وهم وقود لنيران الضلالات والفشل والبتل الاقتصادي ، فلذلك لا تقبل منهم فدية ، وانما يدعون الى ما كانوا جزاء وفاقا.

فمن الناس من يقبل الى الحق بكلا جزئية : نفسانيا وجسدانيا ، ومنهم من يقبل بجزء ويدبر بالآخر ، ومنهم من يدبر بجسمه ويتولى بروحه عن الحق وهو ﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ فالإدبار عمل الجسم ، فكيانه المادي تأخير وتأخر عن الحياة المادية لإيعائه الثروات ، والتولي عمل القلب إذ يعرض به عن الحق ، فهو بقلبه وقالبه معرض عن الله الى اللهو ، فهو أشر الخليقة ، يصلى النار الكبرى وهو وقودها وهي زبانيته!.

﴿إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً
(٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ
(٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ
رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (٢٩)
إِلاَّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ
هُمُ العادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ
قائِمُونَ﴾(٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (٣٤) أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ (٣٥)

﴿إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾ جزوعا حريصا جبانا ضعيفا لا يصبر : و ﴿خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً﴾ (٤ : ٢٨) و ﴿خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (٥ : ٥٧) : مني يعجل حين صدورها ، فيعجل المخلوق من هذا العجل في صدوره ووروده ، فهل ان كونه هلوعا صفة ذم؟ وكيف يخلق الله مذموما ثم يذمه كأنه من خلق الإنسان! وقد ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾! (٣٢ : ٧)؟!.

نقول : إن هلع الإنسان فيه جهتان : خير كما في تكوينه ، وشر إذا عامله الإنسان بغير وجهه ، فالصالحون يهلعون الى الصلاح والإصلاح كما المصلون حسب الأوصاف المسرودة في هذه الآيات ، والطالحون يهلعون ويهرعون الى الطالحات ويتغافلون عن الحسنات ، فالصالح يتبنى الهلع المخلوق هو عليه لصالحه ، يتبناه لاستكماله ، والطالح يتبناه لشقوته ، فلا يرجع الذم إلا الى كيفية معاملة الإنسان في هلعه ، وكما يمدح على حسن عمله في هلعه: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ...﴾!

مبدئيا لا بد للإنسان ـ في سبيله الى الاستكمال ـ ان يكون هلوعا : حريصا لنفسه ، جزوعا بمس الشر لكي يفر منه ، منوعا عن الخير لكي يجلبه إليه ويمنع من يمنعه عنه ، ولكنما هلع الإنسان هذا لم يخلق إلا لصالحه ولصالح مجتمعه ، دينا ودنيا وعقبى ، فليصرفه الى ما صرفه الله اليه ، فليهلع إذا مسه شر في

دينه ، وليمنع من يمس من كرامته إذا مسه خير ، وليهرع مجدا مجاهدا في سبيل الله ، ولكي يتلمع في حياته المجيدة المشرفة بلمعان الإيمان.

فالمستثنون المصلون هنا لم يستثنوا عن أصل الهلع ، الذي هو من خلق الله [1] وانما عن طيش الهلع وفساده وحريته في حيونة الحياة ، وفيما إذا قيد بقيود الشرع والعقل ، واهتدى بهداية السماء ، أصبح هلعه المخلوق لصالحه كاملا لامعا.

﴿إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾ : هذا بيان الواقع في خلق الإنسان ، ﴿إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ وهذا تنديد بالهلوع كيف يصرفه ويتصرف فيه لغير وجهه ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ وهذا تبجيل للهلوع على تصرفه الجميل ان يصرفه في سبيل الصلاح والإصلاح.

فالإنسان بطبعه الاولي ، المتحلل عن وحي السماء ، الهابط الى أرض الشهوات ، هذا الإنسان يصرف نعم الله في نقمه ، ويبدل نعمة الله كفرا ، فيحل نفسه في دار البوار ف ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ ولا يدفع خسره ، ولا يبدل عسره الى يسره إلا التمسك بحبل من الله ، والرباط العقائدي والعملي بوحي الله ، لا كلمة تقال باللسان ، ولا شعائر تعبدية ـ فقط ـ تقام ، انما حالة نفس ومنهج حياة تعيش الإنسان ككل ويعيشها الإنسان.

فالإنسان بما خلق هلوعا ، وقبل الاستضاءة بوحي السماء : إن هلعه يرجع به الى ضلال :

---

(١) والا أصبح الخالق للهلوع غير الخالق لغير الهلوع ، او ان الخالق الواحد خلق البعض هلوعا مذموما ، والبعض الآخر غير هلوع ممدوحا ، وهذه قسمة في الخلق ظالمة ، ومس من كرامة العدالة الالهية.

﴿إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً﴾ يتألم للذعته ، ويجزع لوقعته ، ويحسب انه دائم لا كاشف له ، سرمدا مضروبا عليه ، لا يتوقع تغييرا ، ولا يرجوا من الله تحويرا ، ولا لنفسه من أسر الشيطان تحريرا ، ومن ثم يأكله الجزع ، ويمزقه الهلع ، ولا يفكر : عله شر أصابه كردة فعل من شره هو ، فليمسك شره لكي يأمن بأسه ، بدل ان يجزع ، أو أنه شر أصابه من الأشرار في سبيله الى ربه فليصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنه الذين لا يوقنون : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللهِ﴾ (٢٩ : ١٠) أو أنه امتحان من الله ليستكمله بما يمسه من الاتعاب ، يمتحنه بها دون امتهان ، فلما ذا يجزع؟ أو أنه شر أصابه من ظالمه وهو قادر على دفعه فليدفعه بما منحه الله من نعمة القوة ، فلما ذا يجزع؟ أم لا طاقة له به فليصبر وليحتسب عند الله عناءه ويطلب منه جزاءه ، فلما ذا يجزع؟ وعلى أية حال ليس الجزع إلا من الجهل واللاإيمان وعدم الوثوق بالله ، واللاحساب فيما يجزع به.

﴿وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ : يمنعه عن غيره كأنه ملكه من كدّيده ، فيحتجنه ويختزنه لنفسه ، وكأنه إله نفسه ورازقها ، فما يصيبه من خير ليس رزقا من الله يمتحنه فيه ، وانما من نفسه يحتجنه ، وهذه هي الفكرة الخاطئة القارونية المادرة : ﴿قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (٢٨ : ٧٨). ولنفرض انه منك وإليك ، فلتكن كريما بما عندك لا تبخل فيه ، لو انك أنت الذي حصلته بلياقة ولباقة! ولكنه ليس منك ولا لك ، وإنما امانة سمي ملكا وأنت مستخلف فيها ، لا مخول تعمل فيها ما تشاء : ف ﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٥٧ : ٧).

فكيف لا تدرك حقيقة الرزق ودورك فيه ، ولا تتطلع منه إلى خير عند ربك ، خاويا قلبك من الشعور ، تهرع وتهلع إلى نفسك ، كأنك أنت فقط ولا مرزوق سواك؟!

﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ...﴾ : فهم منقطعون عن شر الهلع الى خيره ، وليس من

الاستثناء المنقطع ، فإنهم أيضا ممن خلق هلوعا ، أجل ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ ولكن لا كل المصلين ، فكثير منهم يهلعون كمن قبلهم من المذمومين ، وانما المصلين : ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ ...﴾ والذين هم على صلاتهم يحافظون. أولئك في جنات مكرمون :

إنما الصلاة تذكر ـ فيما يذكر هنا من الصفات المنجية ـ مرتين : أولا وآخرا ، مرة بدوامهم عليها ، وأخرى بحفاظهم عليها ، رعاية لها مرتين : في كمها وكيفها ، وهذه هي الصلاة التامة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر : ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وهي التي تدفع لعامة الخيرات ، وقد ذكر أهمها مع ما ذكر من ترك الفحشاء ، بين البدء والختم من ذكري الصلاة :

من الحفاظ على حق السائل والمحروم ، والتصديق بيوم الدين ، والإشفاق من عذاب الرب ، والحفاظ على الفروج ، وللأمانات والعهود ، والقيام بالشهادات : أركان سبعة للايمان تتوسط بين دوام الصلاة والحفاظ عليها ، فالسبعة هي الدين ، والصلاة هي عمود الدين! عمود في البداية وعمود في النهاية!.

ومن نظائر هذه الآيات ما في سورة المؤمنون [(١)] : وإليكم تعريفا بهذه الخصائل الثمان ، وعلها تفتح علينا أبواب الجنة الثمان :

١ ـ «الصلوة» : ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ﴾ : دواما عليها لأوقاتها ، لا دواما فيها فانه ليس فرضا ولا بالإمكان الدوام فيها ، وانما عليها ، مما يوحي بالسلطة الكاملة لهم لأداء الصلوات المفروضات في أوقاتها.

---

(١) قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون. والذين هم للزكاة فاعلون. والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون (٢٣ : ١١) (تفسير الفرقان ـ ج ٢٩ ـ م ٩)

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ﴾ : فهم يحافظون على شرائطها وأجزاءها ، على ظاهرها وباطنها ، وعلى سائر الواجبات فيها ولها ، فيقيمونها على وجهها ، لا يأتونها كسالى وسكارى ولا مثقلين متثاقلين ، بل خاشعين ﴿وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ﴾.

فالصلاة هي صلات للعبد بربه ، وانفصال عن المحدود من هذا الوجود الى اللامحدود من خالق الوجود ، يتجرد فيها مقام الربوبية ومقام العبودية في صورة معينة معنية ، والدوام فيها هو الصلة المستمرة التي لا يقطعها كسل ولا فشل ولا بتل ، فانها ليست لعبة توصل أحيانا وتقطع أخرى ، وانما صفة الدوام صورة تمثل دوام العبودية والربوبية وكما في الحديث : لا تترك الصلاة بحال ومن الدوام على الصلاة إتمامها إذا شرع فيها وكما يروى عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : خذوا من العمل ما تطيقون فان الله لا يمل حتى تملوا وكان أحب الأعمال الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما دووم عليه وان قل ، وكان إذا صلى دام عليها ، قال الله : ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ﴾(1).

٢ ـ الحق المعلوم : ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ : هذا الحق ليس هو الزكاة ، فانها لا تختص بالسائل والمحروم ، ولا انها واجبة على كل من سوى السائل والمحروم ، والآية تفرض فرض حق معلوم للسائل والمحروم على غيرهما ، تعلقت بما له الزكاة أم لا ، دفعها أم لا ، فهذا من صفات المتقين : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ... وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (٥١ : ١٩) وكما يروى عن الامام الصادق عليه السلام : ان الله تعالى فرض للفقراء في أموال الأغنياء فريضة لا يحمدون بأدائها وهي الزكاة ، بها حقنوا

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٦٦ ـ اخرج ابن حيان عن أبي سلمة عن عائشة عنه (ص) :

دماءهم وبها سمّوا مسلمين ، ولكن الله تعالى فرض في أموال الأغنياء حقوقا غير الزكاة فقال سبحانه وتعالى : ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ فالحق المعلوم غير الزكاة ، وهو شيء يفرضه الرجل على نفسه في ماله ، يجب عليه ان يفرضه على قدر طاقته وسعة ماله ، فيؤدي الذي فرض على نفسه ان شاء في كل يوم وان شاء في كل جمعة وان شاء في كل شهر [1]».

و ﴿حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ يوحي : انه لأهليه شاء أم لم يشأ ، فليس له أن يصرفه لنفسه أو غير السائل والمحروم ، ولا له أن يعتبره فرعا وفي هامش النفقات ، بل هو أصل كغيره من أمواله المصروفة في حاجياته الضرورية ، فهما ـ إذا ـ شريكاه في أمواله ، عليه أن يدفع الحق المعلوم إليهما دون منّ ولا أذى.

وعليه أيضا ان يدفع الحق المعلوم منذ حصول المال : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٦ : ١٤١) فحق المذكورات ثابت يدفع يوم حصادها ، سواء أكان زكاتا كما في النخل وبعض الزرع ، أم غير الزكاة كما في غيرهما ، وعلى حد ما يفتي الفقهاء ، انه ليس فيها زكاة ، فليكن الحق الواجب هنا غير الزكاة ، وكما في صحيحة معاوية بن شريح في خصوص الزرع عن الامام الصادق عليه السلام : «في الزرع حقان حق تؤخذ به وحق تعطيه ، أما الذي تؤخذ به فالعشر ونصف العشر ، وأما الذي تعطيه فقول الله عز وجل : ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ﴾ يعني من حصدك الشيء بعد الشيء ، الضغث بعد الضغث.

و ﴿حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ : يعلمه صاحب المال وصاحب الحق ، فصاحب المال يعلمه كما يقتضيه الضمير الانساني المؤمن العطوف ، يقرر نصفا أو ثلثا أو ما نقص

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤١٦ عن الكافي في الصحيح ، ومثله مع اختلاف يسير في الألفاظ ما رواه القمي عنه (ع) وما في الكافي عن الباقر (ع).

أو زاد كما يستطيع ، وصاحب الحق يعلمه بما يعلم من صاحب المال أو من نفس المال أو أيا كان.

﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ : للسائل محروما وغير محروم ، لحق السئوال ، فهو موضوع الحكم في السائل لا الحرمان ، والذي بذل من ماء وجهه أكثر بكثير من الذي يأخذ!

وللمحروم سائلا كان أم غير سائل ، محروم عن المال ومحروم عن السئوال ، أو محروم عن لقمة العيش ومع السئوال ، كل ذلك لحق الحرمان ، أو ومع السئوال ، فالسائل المحروم أسبق على أحدهما ، والمحروم أسبق على السائل غير المحروم وان تأخر هنا في الذكر ، وعله رعاية للوزن : ﴿حَقٌّ مَعْلُومٌ ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.

ومن المحروم ﴿لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ... يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ (٢ : ١٧٣) فطالما السائل يبرز حاجته بسؤاله ، فكيف تبرز حاجة المحروم غير السائل؟ فعلى صاحب المال أن يفتش صارما دقيقا رفيقا علّه يجد محروما هكذا فينفق عليه بلا منّ ولا أذى ، فما دام حق المحروم في ماله معلوما ، لا يحق له التأخير عمن هو محروم ، طالما السائل هو يفتش عن صاحب المال ، وهكذا يجب ان يكون المؤمنون الأخوة يستخبر بعضهم عن بعض ، عله يجد ذا حاجة مدقعة مفقرة ، لا أن يكون هلوعا ، إذا مسه الخير منوعا ، يفر عن مظان الحاجة والسئوال ، وإذا حوصر به ينكر أنه ذو مال.

٣ ـ التصديق بيوم الدين : ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ : لا تصديقا عقائديا لا يظهر في الأعمال ، وانما الذي تصدقه الأحوال والأعمال ، تصديق يشفقه من عذاب ربه:

٤ ـ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ : والإشفاق عناية مختلطة بخوف ، إذا عدي بمن كما هنا ، فمعنى الخوف فيه أظهر ، عكس ما إذا عدي بفي : ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ﴾ فالخوف مع الرجاء ، من عذاب الرب ، هو

من لوازم التصديق بيوم الدين ، ولا يأمن عذاب الله إلا الكافرون :

﴿إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ : لا واقعا ولا شعوريا ، لمن له الحساسية المرهفة ، والرقابة اليقظة ، والشعور بالتقصير في جنب الله ، والخوف من تقلب القلب وتفلته.

٥ ـ العفاف : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ ، إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ﴾ :

حفظ الفروج : ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ (٢٤ : ٣٠) والحفظ للفروج ، كما هنا وفي «المؤمنون» فحفظ الفرج عن ان ينظر اليه أو يلمس أو يفعل به ، والحفظ له عن أن يعمل به ما يرغب منه ويترقب له ، ومن التوليد وان كان دون لقاح ، كأن يؤخذ من نطفته فتزرق في رحم محرّم عليه : من المحارم ومن المحرمات ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت ايمانهم.

فمن التعدي ألا يحفظ فرجه ولفرجه عمن وراء الأزواج والإماء ، في أي من رغبات الفرج أو ما يترقب منه إطلاقا ، كأن يسمح لزرق نطفته في أرحام غيرهن سواء لذوات البعل العقيمات أم للبنات العذارى أم محارمه ، فان الاستيلاد من أصول ما يرغب من الفروج ، دون اختصاص بالوطئ واللمس والنظر.

وآية التحريم أيضا تعم دلالة على التحريم : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَبَناتُكُمْ ...﴾ (٤ : ٢٣) إذ إن المحرم منهن ليس ذواتهن ، وإنما ما يرغب منهن كنساء لا كأناسيّ ، إنما كنساء ، من النظر واللمس والوطء والاستيلاد ، بأية طريقة حصلت.

لا نجد إطلاقات في الكتاب والسنة تلمح الى حلية زرق النطفة ، فلا سند لتحليله ، وهنا إطلاقات تمنع كما هنا وفي آية التحريم ، والآيات التي تمنع عما وراء الأزواج وما ملكت الايمان ، والصور المتصورة من زرق النطفة كالتالية :

١ ـ زرقها في الأزواج بلقاح أو سواه ، ولا بأس بالثاني عند الضرورة وإلا فالأحوط تركه ، ويلحق بهما الولد إطلاقا وفي كافة الأحكام.

٢ ـ زرقها في أرحام المحارم نسبيا أم سببيا وهو حرام قطعا سواء بلقاح أم سواه ، ولا يجوز للغير زرقها في أرحام محارم اصحاب النطفة ، إذ منع عن المحارم إطلاقا ، وفي لحوق الولد بصاحب النطفة تردد ، والأشبه عدم اللحوق للحصر المستفاد من الحديث «الولد للفراش وللعاهر الحجر» والعهر من الموانع وليس المانع الوحيد ، إذ ان الفراش هو الدافع الوحيد للحوق ولا فراش هنا.

٣ ـ زرقها في أرحام النساء الأغارب ، سواء العذارى أم ذوات البعل ، وان كان البعل عقيما ، ولا يلحق الولد هنا بالبعل قطعا وفي لحوقه بصاحب النطفة تردد أشبهه العدم لما تقدم ، إلا عند الشبهة فيلحق.

كل ذلك لإطلاق المنع عما وراء الأزواج ، الشامل للاستيلاد ، بل هو أهم ما يرغب من النساء كنساء ، ويجوز كل شيء بالنسبة لهن كبشر لا كنساء ، فالممنوع معاشرتهن أو الاستفادة منهن فيما يرغب منهن كنساء وأهمه الاستيلاد.

ومن المؤيدات هنا ما عن الصادق عليه السلام قال : «ان أشد الناس عذابا يوم القيامة رجلا أقر نطفته في رحم يحرم عليه [1]» والإقرار يعم اللقاح المنفصل وهو الزرق ، والمحرم هو القرار الحرام سواء أكان بفعل صاحب النطفة أم سواه.

وعن الرسول الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم قوله : «لن يعمل ابن آدم عملا أعظم عند الله

(١) وسائل الشيعة ج ٧ ص ٢٣٩ ب ٤ محمد بن يعقوب عن علي بن ابراهيم عن أبيه عن عثمان بن عيسى عن علي بن سالم عنه (ع) ورواه الصدوق في عقاب الأعمال عن علي بن احمد بن عبد الله عن أبيه عن جده احمد بن أبي عبد الله عن أبيه عن عثمان بن عيسى ، ورواه البرقي في المحاسن مثله.

عز وجل من رجل قتل نبيا أو إماما أو هدم الكعبة التي جعلها الله قبلة لعباده أو أفرغ ماءه في امرأة حراما [(١)]».

أقول : وهذا يعد من اغتصاب الفرج : «وقد سئل ابو جعفر الباقر عليه السلام عن رجل اغتصب امرأة فرجها ، قال : يقتل محصنا كان أو غير محصن [(٢)]».

ثم الأزواج تعم الدائمات والمنقطعات وملك اليمين عينا أو منفعة ، كالامة الموهوب وطئها مع شروطها.

وهكذا يريد الله للجماعة المسلمة أن تكون عفيفة ، تلبي دوافع الجنس دون فوضى ترفع الحياء ، قائمة على أساس الأسرة الشرعية ، فيها يعرف كل ولد والديه يغلق كافة أبواب الفجور والاتصالات الجنسية الفوضى ، في حين يفتح أبواب الزواج وملك اليمين على حدودهما الشرعية.

٦ و ٧ ـ الأمانة والعهد : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ﴾ : أماناتهم الإلهية كالعقل والتكليف لكافة العقلاء ، وعلوم الشريعة لحملة الرسالات والأمانات البشرية كالأموال المؤتمنة والأعراض المعروضة كأمانات.

وعهدهم : الذي عاهد إليهم الله : ﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ﴾ «والذين يعاهدون الله ، وما يعاهدون عليه الناس وإن كانوا كافرين ، إلا إذا أخلفوا فلهم أيضا أن يخلفوا ﴿وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ﴾ (٨ : ٥٨) ﴿فَمَا اسْتَقامُوا

---

(١) المصدر محمد بن علي بن الحسين عنه (ص) ورواه في الخصال عن محمد بن الحسن عن سعد عن القاسم بن محمد عن سليمان بن داود عن غير واحد من أصحابنا عن أبي عبد الله (ع) قال : قال النبي (ص).

(٢) المصدر ب ٨ ج ١ محمد بن يعقوب عن علي بن ابراهيم عن أبيه وعن محمد بن يحيي عن احمد بن محمد جميعا عن ابن محبوب عن أبي أيوب عن بريد العجلي قال : سئل ابو جعفر (ع) ... أقول : والاغتصاب يوحي بان المرأة كانت ذات بعل ، فالمغتصب يقتل محصنا ام غير محصن.

لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ (٩ : ٧) فالمبدأ الأصيل في العهد أن يوفى به إلا أن يخلف المعهود له فيخلف عليه جزاء وفاقا.

إن رعاية الأمانات والعهود تبدأ من رعاية الأمانة الكبرى التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ، فهنا وفي آيات عدة يأمر الله الإنسان الهلوع أن لا يحمل الأمانة خائنا فيها ، بل يؤديها ويراعيها.

٨ ـ القيام بالشهادات : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ﴾ : قياما بالشهادات الإلهية لحملة الرسالات ، التي هي شهادات إلهية ، وقياما بالشهادات البشرية تلقيا وإلقاء لها ، أن يتلقوا الشهادات لكي يلقوها إذا ما دعوا ، ولا يقعدوا ويسكتوا عنها ﴿وَلا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا ما دُعُوا﴾ (٢ : ٢٨٢).

فحدود الله تقام بالشهادات ، والتخلفات عن شريعة الله تعرف بالشهادات ، والحفاظ على حقوق الناس وأعراضهم وعقائدهم تعرف بالشهادات ، فلا بد من قيام الشهادة لله والقيام بها ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ﴾ حتى تقام وتنفذ شريعة الله.

فهذه أبواب ثمان إلى جنة الرضوان ، إلى حياة سليمة مسلمة يوم الدنيا ويوم الدين ، بها يكافح هلع الإنسان السيء ، فيبدل إلى هلع صالح في تحصيل المحامد ، وتبنّي الحياة الجديدة المجيدة ، ولقد كرّرت فيها الصلاة دواما وحفاظا عليها ، قبل السبعة وبعدها ، كأنها المحافظة على هذه السبعة ، ولكي لا تتبدل أبوابا جهنمية ، وهذا هو الحق يقال : الصلاة عمود الدين إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها ، فغير المحافظ وغير المداوم على صلاته لا تأتي منه هذه الخيرات السبع ، وإن أتت فهي صور مجردة عن معانيها المعنيّة ، وطالما فرّعت هذه السبعة على الصلاة ، نعرف أنها من نتائج الصلاة القائمة والدائمة المحافظ عليها : ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ ... وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ﴾ :

﴿أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ : جنات مزدوجة : نفسية وجسدانية ،

بعضها مع بعض دون فراق ، فالكرامة في الجنات جنة روحية ، إضافة إلى سائر الحظوظ الروحانية ، ونفس الجنات حظ جسداني.

﴿فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلاَّ إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ﴾(٤٠) عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ﴾ (٤٤)

﴿فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ ما لهم على كفرهم بالله ويوم الحساب وبرسالتك ، قبلك : عندك حافّين بك ، مهطعين : شاخصين بأبصارهم إليك : ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ : شخوصا بأعينهم إليك بغضا وعدوانا وكفرا وطغيانا.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ عِزِينَ﴾ : جماعات في تفرقة إذا كانت من عزة ، وعلى حدّ المروي عن الرسول الأقدس (ص) [1] أو : متبصرين إن كان من عزاء ، أو

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٦٦ عن عبادة بن انس قال دخل رسول الله (ص) المسجد فقال مالي أراكم عزين : حلقا حلق الجاهلية ، قعد رجل خلف أخيه ، وعن جابر بن سمرة قال : دخل علينا رسول الله (ص) المسجد ونحن حلق متفرقون فقال : مالي أراكم عزين.

بالأحرى : جماعات متصبرين عليك في شخوصهم إليك بأبصارهم ، متفرقين في تصاميمهم السامة ضدك ولأن مبادئهم الضالة متضادة على ضلالها! ومتفرقين في تجمعاتهم حسب عادة الجاهلية.

وقد يطمع كل امرئ منهم ـ على كفره ـ أن يدخل جنة نعيم ، أرجاء أن لو كانت واقعا ، أو استهزاء بالرسول والذين آمنوا معه ، والهزء هنا يلمح من التنديد بنكرانهم حياة الحساب : ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾!

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ : تلمح الآية أنهم طمعوا ، ولكونهم كافرين نلمح انه طمع استهزاء ، وقد ورد انهم كانوا يقولون : إن كان الأمر على ما قال محمد فان لنا في الآخرة عند الله أفضل مما للمؤمنين كما أعطانا في الدنيا أفضل مما أعطاهم فلقد كان طمعا منهم هازئا ، لا رجاء بإيمان وتصديق.

﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ : كلا : لا يدخل امرؤ منهم جنة نعيم ، كلا : وليس كما يزعمون أن لا حياة بعد الموت ولا حساب ، ف ﴿إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ : من نطفة قذرة لم تكن شيئا مذكورا ، فخلقناهم منها في أحسن تقويم ، وليس بعثهم أصعب من خلقهم أول مرة ، بل هو أهون : ﴿أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٥٠ : ١٥).

ولقد قرأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم الآيات ثم تفل على كفه ووضع عليها إصبعه وقال : يقول الله : ابن آدم! أنى تعجزني؟ وقد خلقتك من مثل هذا حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين ، وللأرض مثل وئيد ، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة!» (١).

﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ. عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ : لا حاجة إلى القسم ، وحتى برب المشارق والمغارب ،

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٦٧ ـ اخرج البيهقي في شعب الايمان عن بشير قال : قرء رسول الله (ص) هذه الآية ..

فبدون أي قسم بأي برهان ـ لأن أقسام القرآن براهين ـ إن القدرة الإلهية ظاهرة باهرة على ان له تبديلكم خيرا منكم ، أفلم يبدل النطفة إنسانا في أحسن تقويم؟ فله تبديل الخير أيا كان ، في الدنيا أن يذهبكم ويأتي بخلق جديد : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ (٣٥ : ١٦) أو خيرا منهم في حياة الحساب ، بتبديل أجسادهم هذه إلى ما هي خير منها وأخلص وأثبت وأبقى كما هو الحق في حشر الأجساد : ﴿وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ﴾ (٥٦ : ٦١).

فله التبديل إلى خير أيا كان ، إلى خير في نفسياتهم كأن يبدلهم بمؤمنين ، أو خير في أجسادهم كأن يبد لهم بأمثالهم ، بأجساد لهم كاجسادهم ، مماثلة من جهة ، وخيرا منها من جهة ثانية لكون الأجساد المعادة أخلص وأنقى فهي أبقى. ﴿بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ﴾ : هنا لك مشارق ومغارب كما هنا وفي الأعراف : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها﴾ (٧ : ١٣٧) ولكنما الاولى تعم مشارق الأرض ومغاربها ، والثانية تخص الأرض ، وفي الصافات المشارق فقط : ﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ﴾.

وهناك المشرقان والمغربان : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (٥٥ : ١٧) أو المشرقان فقط : ﴿حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (٤٣ : ٣٨).

وهنالك المشرق والمغرب : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ (٧٣ : ٩).

فكيف التوفيق بين هذه الثلاث في مشرق الشمس ومغربها؟.

أقول : المشرق والمغرب هما الجهتان المتقابلتان بما فيهما الأخريان : الشمال

والجنوب ، فبما أن شروق الشمس يكون دائما من جهة مهما تحولت فيها ، وكذلك غروبها ، لذلك وحد كل منهما في آيات.

واما المشرقان والمغربان فلأسباب عدة : منها ضم الجهتين الفرعيتين الأخريين إليهما ، الشمال في إحداهما والجنوب في الأخرى ، تغليبا للأصيلتين في التعبير ، ومنها أن لكل نصف من كرتنا الأرضية مشرق ومغرب خاص هما المشرقان والمغربان ، ومنها أن لكل من الصيف والشتاء ، للشمس فيه غاية ارتفاع وغاية انخفاض هما المعنيان ، وفيما إذا ذكر أحدهما كما في الزخرف : ﴿بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ فالمقصود المشرق والمغرب تغليبا للمشرق ، تفضيلا للشروق على الغروب.

ثم المشارق والمغارب ، ففي المطلق منهما يعني ـ فيما يعني ـ المشارق لكل الشموس والنجوم الشارقة ، وكذا المغارب ، وفيما اختصا بالأرض فمشرق كل يوم ومغربه يدور على عدد أيام السنة ، وعلى حدّ المروي عن علي عليه السلام لهما ثلاثمائة وستون مشرقا وثلاثمائة وستون مغربا ، فيومها الذي تشرق فيه لا تعود فيه من قابل» [(١)] ، وأكثر من ذلك ، لكلّ أفق للشمس على أرضنا شروق وغروب ، وبموجبه كان التكليف في أوقات الصلاة حسب أوقات الشروق والغروب للآفاق كما في الحديث : أنت مكلف لمشرقك ومغربك.

ومما توجيه هذه الآيات هو كروية أرضنا ، وإلا لم يكن لها إلا مشرق ومغرب واحد.

﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ﴾ : ليس الأمر بحاجة إلى قسم ، وإنما التلويح بذكرهما يوحي بعظمة الخالق وسعة قدرته ، إذ يشرق الأرض ويغربها حسب تدبير زمني محسوب بالآنات أثناء دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس ، فهو أيضا المشرق للأبدان بأنوار الأرواح ، والمغرب لها بإزهاقها ـ سواء.

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٢٠ في كتاب معاني الاخبار رفعه اليه (ع) : ورواه في الاحتجاج عنه (ع) مثله.

﴿إِنَّا لَقادِرُونَ عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ : وكما بدلنا نطفهم خيرا منها إذ جعلناها في أحسن تقويم ، كذلك سوف نبدل أجسادهم البالية خيرا منها ، ما يناسب الخلود ، بتخليصها من بواعث الأمراض والأعراض المؤدية إلى الموت ، لحد لا يقضى على أهل النار فيموتوا ، ﴿لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ ومن خيرها أنها البدن الأصيل متحللا عن الزوائد من أبدان آخرين أو غيرها ، إذ إن في إحيائها مع غير أبدانها إبطالا لإحياء الآخرين وجزائهم الجسداني ، واحياء الزوائد من غير الأبدان لغو لا يفيد ، لأن الهدف من إحياء الأجساد إيصال الجزاء إلى أرواحها العاملة بها ، ويكفيه البدن الذي عاشه طوال حياة التكليف أو حياته كلها.

ومن خيرها انها رقيقة كأنها الهواء أو أخف والطف ، وعلها الطينة التي خلقت منها ، وعلى حد المروي عن الامام الصادق عليه السلام حين «سئل عن الميت يبلى جسده؟! قال : نعم ، حتى لا يبقى لحم ولا عظم إلا طينته التي خلق منها فانها تبقى مستديرة في القبر حتى يخلق منها كما خلق أول مرة» (١).

وعل الآيات في خلق الأمثال يوم المعاد ، ترمي إلى هذه الأبدان الروحانية الصافية البراقة ، تذوق نعم الله في جنته ، أم نقمه في ناره : ﴿وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ﴾ (٥٦ : ٦١) نحن السابقون على القدرات لا مسبوقون على أن نبد لكم أمثالكم وهو الخلق الجديد : ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو مثل الخلق القديم في الصورة ، لا عينها ، لاستحالة اعادة المعدوم ، وهو مثله في الجسم لا عينه في كله ، وانما كحالة تجردية كالبدن البرزخي ، وكالنور ، ومصدره البدن الذي عاشه حياته أو حياة التكليف.

وكذلك الآيات في مثل الخلق الجديد انه كالبدء : ﴿كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾

---

(١) نبدل تطلب مفعولين ثانيهما مذكور وهو أمثالكم فالأول هو «كم» وهو الخلق الجديد.

(٧ : ٢٩) ﴿كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ (٢١ : ١٠٤) ولقد بدأنا بالنطفة فليعدنا بنفس النطفة التي خلقنا منها أول مرة ، ثم لا حاجة إلى الزوائد يوم المعاد ، فانها بين ما لا تنفع ، وما تضر ، وسوف نفصل البحث عن كيفية الحشر معمقا في مناسبتها الأخرى.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ : فإذ لا تنفع هؤلاء المناكيد الأوغاد ، أيّة حجة وذكرى ، فذرهم على ما هم فيه خائضون من نكران الحق والهزؤ به ، وذرهم يلعبوا بمغريات الحياة الدنيا ، حتى يلاقوا اليوم الموعود ، البادئ بما بعد الموت يوم البرزخ ، ثم إلى يوم الحشر ، ويعتبران يوما واحدا اعتبارا بانقضاء التكليف وابتداء الجزاء بالموت [١].

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ : هنا يختص يوم القيامة بالذكر من يومي الجزاء ، لأنه الأصل والبرزخ كتهيئة.

في هذا اليوم يخرجون بأجسادهم من أجداثهم : قبورهم ، مسرعين ، كأنهم يسرعون إلى نصب منصوبة أعلاما لمن لا يعرف الطريق.

﴿خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ﴾ : ﴿خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ (٥٤ : ٧) ﴿خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ (٤٢ : ٤٥) ومن الرهبة ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ. أَبْصارُها خاشِعَةٌ﴾ (٧٩ : ٩) فأبصار العيون والقلوب تخشع واجفة ، ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ : تشملهم بقهر ﴿ذِلَّةٌ﴾ وتغشاهم ، ﴿ذلِكَ﴾ اليوم العصيب الرهيب ﴿الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا﴾ طوال الرسالات وطول حياتهم ﴿يُوعَدُونَ﴾ عنه وهم ناكرون ، وقد كانوا يرتابون فيه ويكذبون به ويستعجلون.

---

(١) ولا يعنى هنا خصوص الحشر إذ لا يعقل استمرارية الخوض واللعب اليه ، حيث الدنيا بما فيها تنقطع بالموت وبه تقوم القيامة الصغرى ، و «حتى» تفيد استمرارية الخوض واللعب ـ تأمل.

سورة نوح ـ مكية ـ وآياته ثمان وعشرون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١) قالَ يا
قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ
وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قالَ رَبِّ إِنِّي
دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلاَّ فِراراً (٦) وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ
جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ
جِهاراً (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً
(١٠) يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ

جنَّاتٍ وَيجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً (١٢) ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً (١٤) أَلَمْ
تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً
(١٦) وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَيُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً (١٨) وَاللهُ جَعَلَ
لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً (٢٠) قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا
مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَساراً (٢١) وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (٢٢) وَقالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا
تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ
ضَلالاً (٢٤) مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصاراً (٢٥) وَقالَ
نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا
إِلاَّ فاجِراً كَفَّاراً (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَلا
تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَباراً﴾(٢٨)

* * *

اولى الرسالات الفذة الإلهية يحملها أول الخمسة من اولي العزم من الرسل ، نوح عليه السلام ، وقد ذكر بدعواته وما لاقاه بسببها من قومه ٤٣ مرة في القرآن ، منها مدى دعوته: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالِمُونَ﴾ (٢٩ : ١٤). وهو اللبث الرسالي لذكره هنا بعد الرسالة ، وقومه هم بنو الجن والإنسان كافة [1] كما في اولي العزم كافة ، ولذلك حق له ان يدعو على من على الأرض من الكافرين : ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً﴾ فلو لم تشملهم دعوته لم يحق له هكذا دعاء شامل ، ومن لطيف الأمر في دعوته الاليفة الرحيمة طوال قرونه العشرة ان القرآن يعتبره أخاهم : ﴿إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ (٢٦ : ١٠٦) فانها اخوة لهم فيما سوى الايمان : ان نشأ في البيئة التي نشأوا فيها فلم يتأثر بضلالها ، وعاشرهم ودعاهم إلى الله كأخ رحيم ، إلى ان تأكد بالوحي ان لا خير فيهم وفي أنسالهم ، فانما هم شر خالص : ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً﴾ فقد صبر على اذاهم المتواصل طول الدعوة علّهم يؤمنون ، فهل يصبر إذا انقطع الأمل وتفاقم العناد منهم في ضلالهم ضد الدعوة والمؤمنين بها ، إنه صبر على الظلم والضيم وعلى انتقاض شريعة الله وانتقاص دعوته ، ولا يرضاه العقل والعدل!

الشريعة الأولى

هل إن شريعة نوح عليه السلام هي الاولى فلم تكن قبله شريعة من الدين مع أي من النبيين؟ ام كان الوحي إليهم يحمل تقوية الأحكام العقلية دون أن يحمل احكاما شرعية؟ ام لم يكن قبل نوح أنبياء؟ لا سبيل إلى الأخير والأولان هما الأوليان.

فإن القرآن لا يذكر من شرائع الدين إلا خمسا محتصرة : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٢١ عن الباقر (ع) فاما نوح فانه أرسل الى من في الأرض بنبوة عامة ورسالة عامة.

أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (٤٢ : ١٣) ﴿إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ...﴾ (٤ : ١٦٢).

واصحاب الشرائع الخمس هم اولوا العزم من الرسل : عزم لهم في استقلال شرائعهم وثباتها إلى شريعة أخرى تنسخها تكميلا لها : بعثوا إلى شرق الأرض وغربها وجنها وأنسها [١] وعزم لهم في سبقهم الأنبياء إلى الإقرار بالله [٢] وثباتهم على عهد الله المعهود إليهم : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (٢٠ : ١١٥) وعزم لهم في الصبر على ووعثاء السفر واتعاب السفارة الإلهية : ﴿فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ (٤٦ : ٣٥) فقد عزموا على الصبر مع التكذيب لهم والذي [٣] فهم «الذين دارت عليهم الرحى» [٤] رحى الوحي بشرائع الدين.

فهم عظماء ثابتون في عزمهم في أنفسهم وعهودهم وشرائعهم وكتبهم ، وليس منهم آدم وإدريس قطعا ، فلم يحملا إذا شريعة من الدين ، وانما احكاما عقلية مؤيدة بوحي النبوة ، فشرائع الدين بحملتها الأصول ، ودعاتها الفروع : النبيين الأتباع ، إنها ابتدأت بنوح بعد ما كان الناس أمة واحدة في الضلالة ، ولانقطاع دعوة النبيين عنهم ، عائشين في الفترة بين إدريس ونوح ، كما بين آدم وإدريس : ﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢ : ٢١٣) ﴿وَما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٠ : ١٩).

---

(١) ج ١١ بحار الأنوار ص ٣٣ ح ٢٥ وح ٦١ عن الصادق (ع).

(٢ ، ٣). ج ١١ بحار الأنوار ح ٣٠ عن الباقر (ع).

(٢ ، ٣). ج ١١ بحار الأنوار ح ٣٠ عن الباقر (ع).

(٤) كما في أحاديث عدة.

كانت الوحدة سائدة بين الناس قبل الرسالات ، فهل يا ترى انها وحدة في الهدى دون رسالة إلهية ، ولم تتحقق الوحدة الدينية مع الرسالات؟ كلا ، انهم كانوا ضلّالا أجمع ، لعدم شرايع الدين وقتذاك ، وتحللهم عن شريعة العقل المؤيد بوحي السماء.

ومهما كانت الضلالة سائدة على البشرية قبل شرائع الدين ، فانها ضلالة عن تقصير وقصور ، قصور زال بشرائع الدين ، وتقصير في التحلل عن شريعة العقل الوحيد ، أو عقل الوحي التي حملتها غير اولى العزم من غير أصحاب الشرائع ، كآدم وإدريس ، يوحي بذلك ما يحمله نوح في مستهل رسالته :

﴿إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ :

فإذا لم تكن قبل نوح أية شريعة قاطعة للعذر ، داعية إلى الحق ، فما هو العذاب الأليم الذي يهددهم به نوح عليه السلام : ﴿أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ﴾ فلولا الإنذار من نوح ـ ايضا ـ لكان يأتيهم عذاب اليم ، ولكن الله يكمل حجته وإنذاره بأول شريعة من الدين ، بعد ما ثبتت الحجة بشريعة من العقل ، فشرائع العقل بالوحي وسواه ، وشرائع الدين ، هما متناصرتان في اثبات الحجة ومزيدها على الناكرين ، والقرآن يشير إلى رسل قبل نوح : ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَجَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ (٢٥ : ٣٧) ولو لم يكن رسل قبل نوح لما صدق تكذيبهم لجمع الرسل ، واقله اثنان أو ثلاثة ، وفي المروي عن الباقر عليه السلام انهم كانوا عشرة [(١)].

فلا تخلوا ـ إذا ـ الفترات الرسالية ، من حجج بالغة ، الفترة قبل شرايع الدين (بين آدم وإدريس وبينه وبين نوح) وبين شرائع الدين (كما بين المسيح

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٢١ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى محمد بن الفضل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر (ع): كان بين آدم ونوح عشرة آباء كلهم أنبياء.

ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم) مهما كانت الحجج ابلغ وأقوى في غير الفترات الرسالية ، فإنما يداقّ الله الناس في الحساب على قدر ما أوتوه ، كما يقتضيه عدله وحكمته البالغة.

ونوح عليه السلام يحمل في مستهل الدعوة وفجر الرسالة ، الدعوة إلى أصول ثلاثة هي خلاصة الأساس في الرسالات الإلهية كلها ، مهما افترقت في التخطيط والتفريع والعمق والبساطة والشكليات المناسبة لكل جيل :

﴿قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ عن عذاب الله في الدارين ، ان تركتم هذه الأصول ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ : مبين لجذور الإنذار وأسبابه ، مبين عملا واقعا جزاء ترك الشريعة ، ومبين كذلك من هنا نتائج تطبيقها.

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ : فعبادة الله وحدها ، وكأوّل الفرائض ، هي منهج كامل للحياة ، تشمل التعرف إلى ألوهيته والعمل لعبوديته ، وانها الصلة الوحيدة العريقة بين العبد والمعبود ، وينبثق نظام الحياة عنها ، وهي تشمل توحيده في سائر شئون الالوهية ، وتطبيق الواجبات الشرعية تجاهه تعالى.

﴿وَاتَّقُوهُ﴾ : تقوى الله في عبادته فلا يعبد معه سواه ، وفي طاعته فلا يطع معه سواه ، وفي حرماته فلا تهتك ، انها هي الضمانة الحقيقية لاستقامة الإنسان على الثبات في عبادته ، وعدم التلفت والتفلّت عنه أو الالتواء في تطبيقه.

﴿وَأَطِيعُونِ﴾ : وطاعة الرسول أولا وأخيرا هي الوسيلة الوحيدة للتعرف إلى عبادة الله وتقواه المقصودة الصالحة ، إذ لا تعرف إلا بالوحي ولا سيما الذي يحمله اولوا العزم من الرسل الذين دارت عليهم الرحى.

وهكذا نجد البرامج الرسالية طوال عهودها ، تحمل هذه البنود البناءة كأصول الدعوة بالإنذار والتبشير ، ثم الفروع تتبناها مهما اختلفت باختلاف المصالح والبيئات ، وليبلوهم الله تعالى فيما آتاهم : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً ... لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٥ : ٤٨).

والشرائع هي شرائع الدين وهو واحد برغم اختلافها في شكلياتها ، فالدين هو الطاعة لله الواحد القهار ، مهما اختلفت صورها وسيرها : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (٤٢ : ١٣) أقيموا الدين الواحد في شرائعه ، فالدين واحد والامة واحدة : ﴿إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٢١ : ٩٢).

فهل توجد شريعة من شرائع الدين لا تتبنى ـ كأصول ـ هذه الثلاثة؟ والشاذة عنها أو عن واحدة منها ليست شريعة إلهية أو هي محرفة.

ونتيجة هامة عامة تنجم عن اعتناق هذه الثلاثة اضافة إلى سائر نتائجها الدنيوية والاخروية أمران :

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

غفر الذنوب ـ بعضها لا كلها ـ فان «من» يوحي بالتبعيض ، وهذا البعض ليس إلا مما سلف في زمن الكفر : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨ : ٣٨).

والبعض المغفور هو الحقوق الإلهية المضيعة زمن الكفر ، وذلك بشرف الإيمان ، واما البشرية الضائعة فلا تغفر بالإيمان ، انما بالإصلاح وإرضاء أصحابها ، مناسبة الحكم والموضوع ، فان الإيمان بالله ليس ليضيع حقوق الناس.

وليس من العدل والحكمة في التشريع غفران الذنوب الآتية بسند الإيمان السابق ولو دام ، فان الإيمان لزامه الدفع للصالحات ، لا أن يغفر صاحبه إذا تخلف عنها إلى الطالحات ، ولزام الغفران هكذا الغاء التكاليف الإلهية بسبب حصول مبدء التكليف ودافعه : الإيمان.

اجل : ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ (١٤ : ١٠) ﴿يا قَوْمَنا أَجِيبُوا

داعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ (٤٦ : ٣١) وفيما يوحي بالغفر العام فهو بين مخصّص بهذه الآيات ، وخاص بالذنوب وهي الصغائر المكفرة بالإيمان وبترك الكبائر ، ومذكور فيه بواعث الغفران فيحدد بحدودها كما توحيه : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَأُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦١ : ١٣).

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ : وهو المحتوم الثابت الذي لا يؤخر ، وقبله الأجل المعلق على بواعث وحوادث للموت ، سواء من صاحب الأجل. مخيرا أم مسيرا ، ام من غيره ، ام من الله ، وكل من الله دون منافاة لخيرة الخلق.

والتأخير عن الأجل المعلق ببواعثها إلى الأجل المسمى المحتوم قد يكون نعمة ليكسب صاحبه فيها مزيدا من الإيمان والعمل الصالح ، كما هنا ، جزاء الحسنى بالحسنى ، وكما في آيات تترى : ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (١١ : ٣) ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (١٤ : ١٠).

وقد يكون نقمة لا تكسب إلا إثما وعذابا مهينا : ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ (٣ : ١٧٨).

كما ان من التعجيل عن الأجل المسمى نعمة كمن يقتل في سبيل الله ، ومن يعجل في موته كيلا يفوت عنه ما حصل من صالح ، ولا يكسب في المستقبل ما يخسره من طالح.

﴿إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ : وهذا التعليل يحمل بشارة وإنذارا ، بشارة لمن آمن فيؤخر إلى الأجل المسمى ليكمل ، وليس بمؤخره لولا إرادة الله ، فان اجل الله لا يؤخر ، لا محتومه إطلاقا ، ولا معلقه إذا جاء ، فلا مؤخر له إلا الله ، وليس هو بمؤخره رحمة إلا لمن تاب وآمن. ويحمل

إنذارا لمن بقي على الكفر ، فان أجله المعلق إذا جاء لا يؤخر إلى المسمى.

فهنا الأجل كلا الأجلين ، وكون المعلق اجل الله اعتبارا بان الموت لا يتحقق إلا بإرادته مهما توفرت بواعثه ، وان الحياة لا تبقى إلا بإرادته مهما توفرت عواملها ، فله التأجيل إلى الأجل المسمى فإذا جاء لا يؤخر قط ، وله التعجيل عن المسمى ، فإذا جاء لا يؤخر إلا باذنه ، إذا فلا منافاة بين عدم تأخير اجل الله ، وأنه يؤخره إلى المسمى.

فلا يحسبن احد ان اجله بيده ، او ان له تأجيل أجله أو تعجيله ، انما له تقديم دوافع الموت قبل أجله المحتوم ، ثم إذا شاء الله أماته ، وله تقديم دوافع التأجيل إلى المسمى كالايمان ، وقد يشاء الله تأجيله ان كان لصالحه.

﴿قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً﴾.

عرض نموذجي لما بلغه نوح من رسالات الله ، وما لاقاه وعاناه من قومه طوال الدعوة مع ما كان منه من صبر على ألوان الأذى طوال الف سنة إلا خمسين عاما : ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغى﴾ (٥٣ : ٥٢).

هذه الدعوة كانت متواصلة ليل نهار دون ملل ولا كلل ولا خلل ، دون أن يمله عدم الاجابة ، أو تكلّه مواصلة الأذى ، يعرضها نوح في نهاية الأمد الطويل من دعوته ومستهل دعائه عليهم بعد الإياس من خيرهم والتأكد من شرهم ومن في أصلابهم.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً﴾ : هل لأن دعوته كانت قاسية يفر منها؟ ام لأنها كانت ناقصة لا تحمل حججا تقبلها الفطر والعقول؟ ام لأنهم هم كانوا اظلم واطغى ، ودعوة الحق لا تزيد دعاة الباطل العنيدين إلا ضلالا بما يصرون في عتوهم ونفورهم ونكيرهم للحق الصراح : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً﴾ (١٧ : ٨٢) إذ يخسرون فيها الدعوة والداعي ويبدلون الرحمة عذابا وخسارا : ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللهُ مَرَضاً

﴿وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٢ : ١٠) وانما زيادته بظهوره عند ظهور الحق ووفوره عند نكيره.

إنه لا بد للدعوة الحق من زيادة ، إما في الهدى ، أو في الضلال ، وأما ألا تؤثر لا إثباتا ولا نفيا؟ فلا! ولا بد من مواصلة الدعوة ليل نهار واثباتا للحجة تنويرا للمهجة لكي تصبح نورا للمهتدين ونارا على المعتدين جزاء وفاقا.

إنهم كانوا يفرون عن دعائه وعن اجابة الحق ، ولكن نوحا لم يكن ليذرهم يفرون إلا ويلاحقهم أينما كانوا ، فما استطاعوا بالفرار بعدا عن دعائه ، لذلك احتالوا حيلا أخرى ليفروا عن سماع الحق في فرارهم على قرارهم ، بملاحقته إياهم :

﴿وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً﴾ :

إصرار تلو إصرار واستكبار ، إصرار الداعية على دعوة الحق في محاولة دائبة ، وتحيّن الفرص لتبليغهم إياه ، وإصرارهم تجاهه في ادبار واستكبار كأنهم يدعون إلى الموت! وهو يدعوهم إلى الحياة ، ليغفر الله لهم ذنوبهم ويحييهم حياتا طيبة!.

ظلوا في محاولة عنيدة بغيضة كيلا يسمعوا نوحا ولا يروه بطريقة صبيانية حمقاء ، بسد الآذان عن سماع الحق ، وستر العيون عن رؤية داعية الحق ، برد الثياب ، وهذا منتهى الضلال.

لقد جرّب نوح كافة الأساليب في دعوتهم علهم يهتدون ، وهم قابلوه بكافة أساليب التمرد والعصيان وظلوا معاندين.

فمن حيث الزمن : الف سنة إلا خمسين عاما ، وفي مواصلة دعاءهم ليل نهار ، وفي ملاحقتهم حالة الفرار لم يخل مجالا ، وفي كيفيتها : إسرارا ثم إعلانا ، ثم إعلانا وإسرارا :

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً﴾ : فقد يوحي بسابق الإسرار ، وهو بطبيعة الحال

مستهل الدعوة : فلو ابتدأت جهارا واجهت حملة جماهيرية قاضية ، فلا بد من الإسرار أولا كي تجد جوا صالحا وركيزة تتركز عليها الدعوة في المارقين.

ثم إذا واجهت قبولا ولو قليلا ، ام لم تواجه ، فالإعلان ، علّها تثير عطف الجماهير وتحرك فكرهم وتنير فطرهم عل فيهم من يقبل ويقبل.

ثم أخيرا لا بد من الجمع بين الإعلان والإسرار ، كلّ في مجاله المناسب وجوّه اللائق :

﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً﴾ : إسرارا ليدخل شغاف القلوب وعل القابل يقبل فيلحق دون خجل من الجماهير العنيدة ، وإعلانا لتعزيز كلمة الحق ، ولتظهر القابليات على رؤوس الأشهاد ، ولقد حملت الدعوة ـ فيما حملت ـ ترغيبهم بالحق فوعدتهم بمتطلبات الحياة الدنيا ، رغم انها ليست دار جزاء ، وتحريكا لعقولهم وعواطفهم وضمائرهم ، وتنديدا بهؤلاء الذين قلوبهم قلوب الشياطين فلا يعرفون أو يفهمون كلمة الحق!:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً﴾ : لا يذهب استغفاركم هباء ، لأن الله تعالى غفار في سنته الإلهية منذ بدء الخلق ، فاستغفروه لأنه ربكم : المالك المدبر لكم ، ولأنه معدن الغفران : ﴿إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً﴾.

ومن آثار غفرانه في الدنيا انه يفتح لكم بركات من السماء والأرض :

﴿يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً﴾ : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٧ : ٩٦).

هذه البركات الموعودة هي مما تنتج عن الإيمان والتقوى وليزيدوا من الصالحات ويعيشوا بركات ، ولكنها ليست دائما ناتجة عن الصالحات كالتي توفر على الكفار إملاء وامهالا ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ، فهي إذا دركات لهم وليست ببركات ، وكما نشهدها اليوم في دولتين كبيرتين موسع عليهما في الرزق ، ممكّن لهما في الأرض : أمريكا الرأسمالية المستعمرة ، روسيا الشيوعية المستحمرة ،

والدرك الأسفل في الأولى هبوط المستوى الأخلاقي إلى اشر دركات الحيوانية ، والحياة كل الحياة قائمة فيها على اغراءات المال ، وفي الثانية تهدر قيمة الإنسان الروحية إلى أسفل دركات ، ويسود التجسس ويعيش الناس في وجل دائم من المذابح المتوالية ، وليست هذه أو تلك حياتا انسانية ، ولا تعد بركاتهم إلا دركات! : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ (٦ : ٦).

وآية المدرار والإمداد بالأمطار الغزيرة والأموال والبنين توحي انهم كانوا في نقصان منها كلها ، فمما يزيدها عليهم مجانا ودون عمل دنيوي ، هو الاستغفار من الذنوب ومواصلة الطاعات ، إلا أنه ليس حتما في كل الظروف والمجالات ، فقد تكون هناك عوائق نجهلها ، أو نحن نعملها ، وإنما الاستغفار لو خلي وطبعه يستتبع بركات من السماء والأرض كضابطة عامة تقبل الاستثناءات ولا سيما بالنسبة للأفراد ، فالحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد ، فما من امة قام فيها شريعة الله واتجهت اتجاها حقيقيا لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبئ عن خشية الله إلا فاضت فيها الخيرات ونزلت عليها البركات من الأرض والسماوات ، وكما الآيات تحمل هكذا وعد للأمم لا للأفراد : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ. وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ﴾ (٥ : ٦٦) إذا فالقاعدة امية لا فردية وإن كانت تعم الأفراد أحيانا.

والتقوى الجماهيرية بطبيعة الحال تقي جماهيرها عن التورط في دركات الحياة ، وتخلق جوا سليما سالما متحللا عن التطاولات المسببة للفوضويات ، وتبني صرحا عاليا لرغد الأمن والعيش لمن يتقي الحرمات واللاأخلاقيات ، مما يؤهل لنزول مزيد البركات كنموذج فعلي للجزاء ، وتمام الجزاء ليوم الجزاء : ﴿وَيا قَوْمِ

اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (١١ : ٥٢).

وإرسال السماء مدرارا لا يخص ماءه المدرارا المكثار ، إنما بركات السماء ككل ، من نور شمسها وحرارتها ورياحها وأشباهها.

والإمداد بالأموال والبنين ليس دائما إلى خير ، فمن الأموال ما لا تمدّ وإنما تمد في خسار وبوار ، ومن البنين من لا يمدون إلا في غي وطغيان ، ومنهما ما يضر دينا ودنيا ، فالإمداد الموعود فيهما هو الذي يأخذ بيد الإنسان إلى صالح النشأتين ، ويدفع عنه تبابهما.

«فرحم الله امرءا استقبل توبته واستقال خطيئته وبادر منيته» [1].

وأكمل الاستغفار ـ على حد تعريف أمير المؤمنين عليه السلام إنه «درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان : أو لها الندم على ما مضى والثاني العزم على عدم الرجوع اليه أبدا والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله عز وجل أملس ليس عليك تبعة والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالاحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول : استغفر الله».

﴿ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً﴾ : وأصل الوقار ثبوت ما يكون به الشيء عظيما ، من الحلم والعلم اللذين يؤمن معهما الخرق والجهل ، ومن القدرة التي تؤمن عن العجز ، وأشباهها التي تثقل الكائن وتخرجه عن الخفة ، وبصيغة أخرى العظمة المطلقة.

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٢٣ عن نهج البلاغة بعد قوله (ع) وقد جعل الله سبحانه الاستغفار سببا لدرور الرزق ورحمة الخلق (مستشهدا بالآية) ...

والرجاء ظن يقتضي حصول ما فيه من المسرة ، وكذلك هو خوف عما يؤهل المخافة ، فأنتم أنتم الأوغاد المناكيد ما لكم : تقطعون عن ربكم وحتى أمل الخير ، أمل الوقار والعظمة ، كمن يتأكد من ربه اللاوقار فيفر منه وممن يدعو اليه ، وإذا أنتم تعتقدون وقاره فلما ذا لا تخافونه ، رغم أن وقاره وعظمته ، تصميمه وحكمته ، عطفه ورحمته ، علمه وقدرته ، وكل مظاهر ألوهيته وربوبيته ، إنها ظاهرة في خلقه لكم وللكون كله لو أنتم تشعرون ، فهو الذي يجب رجاء وقاره وتوقيره : أن تخافوه لأنه الوقار كله ، والوقور يخاف لعدله وقدرته ، وأن تأملوا من وقاره خيرا ، فانه يؤمل فضله لرحمته ، وأن تأملوا من أنفسكم له وقارا فتعبدوه وتوقروه وتعزروه. فقد يعتقد الإنسان ربوبية الله ولا يوقره جهالة وعصيانا ، وقد لا يوقره ارتيابا في ربوبيته مع احتمالها ، وقد لا يرجو ـ أيضا ـ وقاره ، كأنه متأكد انه ليس إلها ، وهذا أحط دركات الكفر بالله ، رغم ظهور آياته في الآفاق والأنفس!.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً﴾ فلكلّ من اشخاصكم أطوار ، ولكم أجمع أطوار ، مما تنتفي عنه الصدفة العمياء ، والخلق الفوضى :

فمنها الأطوار الجنينية من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى الهيكل إلى الخلق الكامل وإلى إنشاء الخلق الآخر «الروح» فتبارك الله أحسن الخالقين.

ومن الأطوار الجنينية نفسها أن الجنين يشبه لأول مرة حيوان الخليّة الواحدة ، ثم بعد فترة يمثل شبه الحيوان المتعدد الخلايا ، ثم شكل حيوان مائي ، ثم حيوان ثديي ، ثم المخلوق الإنساني ، وإدراك هذه الأطوار الثانية ، مهما كان بعيدا عن قوم نوح ، فانه قريب إلينا كما كشف عنه العلم حديثا ، والقرآن كتاب كل الأزمان.

ومن الأطوار الأخرى بعد الخلق هي أطوار الحياة الدنيا ، من كونكم طفلا وإلى الشيخوخة ثم إلى الأجداث وقد تجمع هذه الثلاثة آية الخلق والبعث : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَ

مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ..﴾ (٢٢ : ٥) ومنها أطوار الحالات الجسمية والنفسية والألوان وأشباهها.

ثم الأطوار الرابعة هي الجماعية ، فالقطاعات البشرية ترى مختلفة في الألسن والعادات والأشكال والأحوال ، وليتعارفوا : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾ (٤٩ : ١٣).

فهذه الأطوار المقصودة في الخلق ، الدائبة فيه ، مما يجعل العقلاء الأحرار يأملون ويخافون ويرجون لله وقارا ، لأنه الخالق ، وهو المدبر لا سواه ، وهو الرحمان الرحيم والمنتقم ، فما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا؟! ، والخلق المتطور يدل على الخالق المطوّر ، والتطور المتناسق اللامتفاوت دليل على وحدة المطور ، فكما لا خالق سواه ، كذلك لا مدبر ولا مطور إلا إياه ، فليرج وقاره على اية حال.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً﴾.

هل الرؤية المسؤل عنها هنا هي الحسية؟ أم العلمية التجريبية؟ أم بالوحي؟ وكيفية السبع الطباق مجهولة حتى الآن!

بديهي انها ليست رؤية حسية حين الخلق إذ لم يكونوا موجودين عنده : ﴿ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ﴾ (١٨ : ٥١) ولا بعد الخلق ، كيف والعيون المسلحة حتى الآن لم تصل إلى عمق السماء الأولى ، سماء الأنجم ، فضلا عن واقع أو كيفية السبع الطباق ، وفضلا عن الإنسان زمن نوح عليه السلام!

وكذلك الرؤية العلمية على ضوء العلوم التجريبية لم تتحقق حتى الآن.

وأما رؤية المعرفة الدينية من طرق الوحي فهي وان كانت حاصلة لقطاعات

من البشر المعتنقة وحي السماء ، ولكنها علم الواقع عن السبع الطباق بالوحي ، لا كيفية خلقها ، إذا فما ذا تعني الآية ، لا سيما والمخاطبون ـ وهم الكفرة من قوم نوح ـ لم يكونوا ممن يعتنق وحي السماء ليعرفوا ذلك بالوحي!.

والحل أن معرفة كيفية خلقة السبع الطباق ليست بمستطاع الإنسان أيا كان ، إلا من يوحى اليه فيريه الله ملكوت الكون كما أراه ابراهيم ﴿وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (٦ : ٧٥).

فلتكن الرؤية المسؤل عنها معرفة واقع السبع لا حقيقتها وملكوتها ، ولا سبيل إليها أيضا إلا عن طريق الوحي ، حيث العلم التجريبي قاصر حتى الآن عنها وحتى عن المعرفة الشاملة بالسماء الأولى ، فالآية توحي انه كان هناك وحي قبل نوح ، بالإمكان أن يتعرف به إلى أمثال هذه البدائع الكونية ، طالما كان قوم نوح مكذبي الوحي ، حين كان عليهم تصديقه ، لمزيد المعرفة بالله عبر التعرف إلى عظمة الخلقة.

أو أن الخطاب لا يخصهم ، وإنما المخاطبون هم الذين يخاطبون بوحي القرآن منذ نزوله وحتى القيامة ، فهؤلاء يمكنهم معرفة السبع الطباق ، بتصديق الوحي أم بالمحاولات العلمية التوسعية ، وان لم يصلوا بها حتى الآن.

أو أن رؤية السماء ـ أية رؤية كانت ـ هي في الواقع رؤية السبع الطباق سواء عرفوا السبع بما تعرف ، أم لم يعرفوا ، فلا أقل من رؤية هذه الأجواء الواسعة ذات القناديل البراقة الكوكبية والنجومية ، فليعتبروا بها ، بالسبع أم الجو الممتد مدّ البصر.

فمهما كانت الرؤية قاصرة عن السبع ، ولكنها ليست لتجعل واقع السبع غير واقعها ، فلينبّه الناظرون ـ ولو بأمثال هذه الآيات ـ ان ما يرونه فوقهم هو السبع الطباق ، والقرآن كما يخبرهم بها ، يحركهم نحو معرفتها والاستدلال بها على قدرة بادئها.

ولقصور الرؤية المتحللة عن الوحي : هنا يجعل القمر فيهن نورا والشمس

سراجا وهاجا ﴿وَجَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً﴾ (٧٨ : ١٣) كل ذلك رغم آلاف الأقمار والشموس في سماء الأنجم ، وعلها في سواها أيضا.

فبما أن المخاطبين هنا ـ فعلا ـ هم سكنة الأرض ، وان كان معهم غيرهم ، ولا نور قمريا ولا سراج شمسيا لهم في هذه السماوات ، إلا هذا القمر وهذه الشمس لذلك يقول : ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ، وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً﴾ أي جعلها لكم ، كما جعلها لغيركم من سكنة الكرات طالما لهم أقمار النور والشموس السراج ، مما يبرهن أن الشمس الضياء والقمر النور هما في السماء الأولى : سماء الأنجم ، لا فوقها : ﴿تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾ (٢٥ : ٦١).

والشمس السراج توحي أن نور القمر مكتسب منها ، ودليلا واقعيا حسيّا على أنه ليس له نور من ذاته ، وصول البشر إلى سطح القمر ، بينما تأكدت الاستحالة على أي المخلوقات الوصول إلى كوكب الشمس ، فلولا الشمس لكنا في ليل داج دائب ، فالقمر ليس سراجا ، وإنما نور كما يستعمل لغرفة النوم ليلا و ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ (١٠ : ٥).

فالقمر إذا ليس سراجا ولا ضياء بذاته ، إنما هو الشمس سراجنا وضياؤن ا الوحيد في كل الأفلاك ، مهما كان في سماء الأنجم وسواها شموس وأقمار لمن سوانا من سكنة الكرات.

﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَيُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً﴾ :

هل الإنسان من نبات الأرض؟ أجل ولأنه نبت منها كسائر النباتات مهما اختلفت كيفية الإنبات ، فلنبات الإنسان من الأرض وسائل طائلة تخرجه من صدق نبات الأرض عليه فيما يطلق ، فلا يصح السجود عليه لعدم صدق الأرض عليه ولا نباتها ، مهما كان نابتا منها. فصدق الاستعمال والتعبير إيحاء بحقيقة كونية لا يصدق شمول اللفظة المطلقة على المستعمل فيه ، وحقيقة الإنبات الظاهرة

من لفظه ، إنما هي فيما تطلعه الأرض من نباتها ، وتخرجه عند ازدراعها ، ولما كان الله سبحانه يخرج البرية من مضائق الأحشاء إلى مسافح الهواء ، ويدرجهم من الصغر إلى الكبر وينقلهم من الهيئات والصور ، كل ذلك على وجه الأرض ومن الأرض ، لذلك صح التعبير عنه بكونه نباتا وان لم يشمله على الإطلاق.

أنت تبيع أحيانا ما عندك من البقل ، فأنت حقا بايع البقل ، فهل أنت إذا بقال! .. انما البقال من شغله بيع البقل ، وكذلك النبات ـ حين إطلاقه ـ لا يشمل كل نابت من الأرض ، وإنما لقرينة خاصة كما هنا.

فهذه الآية ونظائرها توحي بالوحدة بين أصول الحياة الارضية مهما اختلفت نشئاتها وألوانها وأشكالها وأسماؤها ، وكلها من نبات الأرض.

فالإنسان الأول نابت من تراب الأرض ، ثم نسله كذلك منها ، من ترابها ومائها وثمارها التي هي نتيجة التزاوج بين ما يخرج من بين الصلب والترائب ، ثم في الرحم ينمو بادواره وأطواره مما يصله من الأرض ونباتها ، ثم يعيش ـ بعد ما يولد ـ على هذه الأرض بما تنبت.

وانباته نباتا دون إنباتا ، خلاف ما يقتضيه بناء فعله ، علّه للإشارة إلى أزواجية خلق الإنسان : من فعله تعالى : «الإنبات» وهو الأصل في خلقه ، ومن فعل الأرض الذي هو أيضا راجع إلى فعله : «النبات» فهو أنبتكم منها ، فنبتم منها نباتا بفعلها وتفاعلها ، وبما تزرعون وتأكلون فتولدون : فعل الله وفعل الخلق.

فالأرض الأم هي التي تلده بما تلده أمه ، ثم تعيده في رحمها بعد انقضاء أجله ، ثم تلده ثانية لحياة الحساب والجزاء.

ومن لطيف التناسب هنا أن السجود في الصلاة يفسر لنا عمليا هذه المراحل الثلاث ، فالسجدة الأولى لله أن أنبتنا من الأرض نباتا ، نسجد شكرا له ولنشر برفع رؤسنا عن السجدة الاولى ، إلى سبب الشكر : ﴿أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً﴾ ثم نسجد ثانية ، إشارة إلى الإعادة ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها﴾ فالموت نعمة

تتطلب الشكر كما الحياة نعمه ، ثم نرفع رؤسنا ثانيا اشارة إلى الحياة والولادة الثانية والأخيرة التي نحاسب فيها فنجازى.

﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً ، لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً﴾.

بما أن البسط هو النشر بعد القبض ، وان الجعل المتعدي لمفعولين هو جعل الشيء شيئا آخر في كيفيته وصورته ، فجعل الأرض بساطا يوحي انها كانت منقبضة غير منبسطة ، ثم جعلها الله منشورة للعايشين عليها ، ولا سيما إنسانها : ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ فلم تكن بساطا قبلئذ ، ولا صلبا ، إذ كانت محترقة مذابة ، ولا لها جو إذ كانت حارة محرقة ، دون أن يعيش فيها مواد الحياة من الماء واكسجين الهواء ، شربا وتنفسا وإنباتا.

إنها لم تكن لتسلك فيها سبل فجاج : الطرق الواسعة ، التي يهتدى بها إلى متطلبات الحياة : ﴿وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٢١ : ٣١) فالسبل الفجاج في الصحارى وبين الجبال ، إنما هي من حصائل بسط الأرض ونشرها ، فقد ذلت الأرض بعد شماسها لنمشي في مناكبها ونأكل من رزقه : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (٦٧ : ١٥) ذلولا بعد شماس ، في ركوبها وسكنها وابتغاء الرزق فيها ، وبصيغة عامة : الحياة المريحة عليها ، في فجاجها السبل التي ما كانت مسبلة حين شماسها.

ثم البساط ـ وهو النمط الذي يمد على الاستواء فيجلس عليه ـ إنه يوحي برياحة التنقل في الأرض كما يتنقل الإنسان على بساطه.

فيا نبات الأرض ، المفضل على كل نباتها! المدلل إلى كل خيراتها وبركاتها ، المستنير بقمر السماء وشمسها ومطرها ، أنت كيف تسمح لنفسك أن تكفر بربك رب العالمين ولا تستطيع التحلل عن نعمه ابدا؟.

﴿قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَساراً﴾ رب انهم ـ على طول الدعوة وبعد هذا العناء الطويل والتنوير الوفير ،

والإنذار والتبشير ، بعد هذا كله ـ إنهم عصوني في عبادتك وتقواك وطاعتي ، واتبعوا الخاسرين المخسرين ، الذين لم تزدهم نعمة المال والأولاد إلا خسارا لسوء تصرفهم فيها ، وغرورهم بها : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ﴾ (١٤ : ٢٩).

﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً. وَقالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً. وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالاً﴾.

.. مكرا كبارا : متناهيا في الكبر ، مستعملين فيه كافة أساليب التدجيل فقالوا ما قالوا .. ﴿وَقالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أضافوا الالهة إليهم إثارة للنخوة الكاذبة والحمية الحمقاء ، كأنهم يدعون إلى إله غريب عنهم ، دخيل في آلهتهم ، فلينكروه حفاظا على الكرامة ، وليتمسكوا بآلهتهم إبقاء للقديم على قدمه واستدامة لعادة الآباء والجدود ، ففي تخليهم عنها والإيمان بإله نوح ، رفض لكيانهم وخروج عن كونهم حملة التراث ، وأنهم أبناء آبائهم.

فإثارة الحميات والقوميات والطائفيات والعنصريات ، لها دور كبير في المتمسكين بها ، المتقيدين بأسرها ، المفتخرين بها ، بين المتحللين عن المثل العليا الأخلاقية ، المفاخرين بما لغيرهم من اللاأخلاقيات ، الماشين ممشاهم على العمياء.

والنص يلمح لدرجات ثلاث بين آلهتهم ، أهمها ود وسواع إذ خصصا بالعطف بعد التعميم ، ثم يغوث ويعوق ونسر ، المذكورة في عطف وردف واحد ، ثم بقية الآلهة الداخلة في عموم اللفظة.

طبقات في الآلهة هي معبودة طبقات [1] ، فالنظام الطبقي العارم بين الوثنيين كان سائدا بين آلهتهم أيضا ، ظلمات بعضها فوق بعض!

---

(١) في تفسير علي بن ابراهيم : كان «ود» صنما لكلب و «سواع» صنما لهذيل وكان «يغوث» صنما لمراد وكان يعوق صنما لهمدان ، وكان نسر لحصين.

كما وحدة الإله بين الإلهيين أزالت النظام الطبقي بينهم مهما كانوا درجات : حسب المساعي والخلقة ، فشريعة التوحيد تأمرهم بحياة تضامنية أليفة تحكمها روح التوحيد والحنان والمحبة ، كأنهم شخص واحد رغم اختلاف الأعضاء.

هذه الأصنام الخمسة ـ ومعها غيرها ـ كانت تعبد زمن نوح وحتى الرسالة الإسلامية التي قضت عليها فاجتثت من جذورها ، إلا التي أفلتت منها أو نبش قبرها بعد الرسالة أو بعدها ، في القطاعات التي تحكمها الطواغيت.

ولقد تناصرت نعرات الجاهلية الأولى والقرن العشرين ، في الحفاظ على الوثنيات وعبادة الطواغيت لكي يبقى الشيطان على كرسي الضلالة مهيمنا.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً﴾ حول الأصنام : أخشابا وأحجارا واشخاصا وأفكارا ، للصد عن شرعة التوحيد ، بهذا المكر الكبار.

﴿وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالاً﴾ ضلالا كجزاء لضلالهم ، جزاء وفاقا ، ضلالا في قلوبهم بما ضلوا وزاغوا : ﴿فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وضلالا في سعيهم : ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ وضلالا في في الآخرة إذ يضلون سبيل الجنة إلى النار وبئس القرار ، وكل هذه ردة عادلة لما ضلوا وأضلوا ﴿وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾؟.

﴿مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصاراً﴾.

من خطيئاتهم تلك اغرقوا في الخسران ومنه غرقهم في الطوفان ومن ثم في النيران يوم البرزخ : الفترة بين الموت والقيامة.

﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً﴾ ففاء التفريع تفرع دخولهم نارا على غرقهم بخطيئاتهم ومضي الفعل «أدخلوا» يصرح بسابق دخولهم النار ، فلا يعني مستقبله يوم الحشر ، وانما بعد الموت دون فصل ، فهذه الآية من آيات الحياة البرزخية بعذابها وثوابها ، مع العشرات الأخرى من آياتها.

وفيما إذا سئلنا كيف تجتمع النار والماء ، فهم غرقوا في الماء وأدخلوا في

النار؟ فهل الماء يحمل النار ، لا سيما تلك النار التي لا تبقي ولا تذر فكيف لم يغل الماء؟!

فالجواب : ان المعذب في البرزخ ليس الروح ببدنها الدنيوي الظاهر انما ببدنها البرزخي الذي يساور الروح ، فناره أيضا برزخية غير ظاهرة ، كثوابه ، ولكلّ من العالم الظاهر والباطن حكمه ، والثواب والعذاب البرزخيان ، هما من الباطن بالأسباب الباطنة غير المحسوسة ، ولكنها مدروسة حسب الوحي.

وشاهد علمي على ذلك أن المادة أيا كانت ، إنها تحمل الطاقات الحرارية ، وحسيا : الشجر الأخضر الذي تطلح منه نار فإذا أنتم منه توقدون : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (٣٦ : ٨٠).

فهذا الشجر يحمل خشب الوقود ، وماء الإطفاء ، ونار الإيقاد! رغم انحصار مفعوله في الدنيا ، أفليس الذي يقدر على ذلك بقادر على إحراق الأجساد البرزخية بالنار البرزخية الكامنة في الماء وفي كل شيء مع اختلاف العالمين؟.

وانما يحمل السائل المتعنت المستنكر على هكذا سئوال ، جهله بالبدن المثاب والمعذب في البرزخ ، وبماذا يثاب وبماذا يعذب؟ ثم تجاهله وإنكاره لهذه الشواهد الحسية والعلمية.

﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصاراً﴾ : فمن ينصرهم من بأس الله بعد إذ غرقوا واحرقوا ، وإذ لم يكن أنصارهم بمنجيهم عن غرق الدنيا ، فكيف ينجونهم من غرق البرزخ ولا تنال منه قدراتهم؟ فأين من أضلوهم وآلهتهم؟ ولينصروهم إذ هلكوا في سبيل الصمود على طاعتهم ، ومعصية الله رب العالمين!.

ثم في آخر المطاف من دعوة نوح الطويلة ـ وبعد انقطاع الأمل عن إيمانهم وخيرهم ، وحتى عما يخلفون من أمثالهم ، وبعد التأكد انهم مضلون كما هم ضالون ـ هناك يدعو :

﴿وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً﴾.

فان صالح الإنسان في صلاحه أو صلاح نسله ، فإذا فقد الجانبين إلى الإضلال فيهما ، لم يبق لبقائه إلا فساد على فساد وسبحان الله عن هكذا إبقاء!

فقد لمح الوحي إلى نوح بمستقبلهم وذريتهم سندا لما عرف عنهم في ماضيهم : ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١١ : ٣٦) ف «لن» تنفي ايمانهم ابدا ، ولزامه أن لا يلدوا إلا فاجرا كفارا ، وكما عن باقر العلوم عليه السلام(١).

فقد كانت الأرض بحاجة إلى الإحياء بعد موتها ، وإلى التطهير بعد قذارتها من الشر العارم الذي انتهى اليه القوم في زمنه ، ولم يبق علاج في تطهيرها إلا تدميرهم ، إذ إن في بقاءهم إضلال القلة القليلة ممن آمن معه ، طوال ألف سنة إلا خمسين عاما.

وفيما إذا سئلنا : كيف لا يلدون إلا فاجرا كفارا ، والإنسان أيا كان لا يولد كافرا مهما كان أبواه كافرين ، وإنما الكفر والإيمان منذ التكليف لا الولادة؟

فالجواب : ان خبث النطفة اضافة إلى خبث الجو والبيئة ، لا يلدان إلا فاجرا كفارا ، فان الجو الفاسد الذي أوجدوه ، والبيئة الضالة التي خلقوها ، انهما يوحيان بالكفر من الناشئة الصغار ، فلا توجد فرصة لترى الناشئة نورا ، وقليل هؤلاء الذين يولدون من الظلمات ويعيشونها ، ثم يخالفونها إلى النور ، وقد ولد هذا القليل في هذه المدة الطائلة ولم يبق منهم أحد وفي أنسالهم أيضا ، فلا يعنى من ولادة الفاجر الكفار أنها منذ الولادة ، إنما من حين التكليف ، وإن كانت الولادة الخبيثة والجو الخبيث لهما دورهما الفعال في الكفر والفجور ، فالولادة عن هكذا كفار ، ثم ولادة ثانية تولدهم البيئة الكافرة لحد التكليف ، ثم عفويا الولادة الثالثة

---

(١) القمي بسنده عن صالح بن ميثم قال قلت لابي جعفر الباقر (ع) ما كان علم نوح حين دعا على قومه : انهم لا يلدوا الا فاجرا كفارا؟ فقال : اما سمعت قول الله لنوح : ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾.

منذ التكليف ، الناتجة عن الولادتين ، هذه وتلك ليست إلا ولادة الفاجر الكفار : ﴿لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً﴾.

حينذاك كانت مناداة نوح ربه حقا وفي محله ومرضيا عند ربه : ﴿وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (٣٧ : ٧٥) دون أن تكون مرضية للشيطان كما في مختلقات الروايات.

ثم يدعو للمؤمنين والمؤمنات مع نفسه ووالديه :

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَباراً﴾.

دعاء على الظالمين مرتين يوسط بينهم دعاءه لنفسه ولوالديه ، ولمن دخل بيته مؤمنا ، لما حان حين الغرق ، فهم المؤمنون الجدد حينه وعند البأس ، ثم للمؤمنين والمؤمنات طول الزمن ، وهذا شعور عام بآصرة القربى على مدار الزمن واختلاف السكن دون أن يبعدهم بعد الزمان والمكان ، كما الدعاء على الظالمين عام على طول الزمن.

سورة الجن ـ مكية ـ وآياتها ثمان وعشرون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً (١) يَهْدِي إِلَى
الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً (٢) وَأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً (٣)
وَأَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللهِ شَطَطاً (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِباً
(٥) وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما
ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً
(٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً (٩) وَأَنَّا لا
نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذلِكَ
كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً (١٢)

وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ
وَمِنَّا الْقاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً (١٤) وَأَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً
(١٥) وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ
ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً (١٧) وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا
قامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (١٩) قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً (٢٠)
قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَداً (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ
مُلْتَحَداً (٢٢) إِلاَّ بَلاغاً مِنَ اللهِ وَرِسالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها
أَبَداً (٢٣) حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً (٢٤) قُلْ إِنْ
أَدْرِي أَقَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (٢٥) عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً
(٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ
أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ۞(٢٨)

هذه السورة تقرر حقيقة الجن وكيانهم وشعورهم نحو الشريعة ومشابهتهم الإنس في الأحكام إلا ما يفرقهم عنه افتراق الجنس ، ثم هي تقف موقف الوسط بين الإغراق في الوهم ممن يزعمهم مسيطرين على الإنس ، وبين الإغراق في الإنكار ممن ينفي حتى وجودهم ، فتقرر ان لهم حقيقة موجودة ، نتعرف إليها في طيات الآيات هنا وفي سائر القرآن ، فمن ميزاتهم خلقهم قبل الإنس : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ﴾ (١٥ : ٢٧) وانهم محجوبون عن الإنسان مبدئيا ، يرونه ولا يراهم : ﴿إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ (٧ : ٢٧).

ومن ميزات الإنس استقلال الرسالة الإلهية فيهم دائما دون تبعية للجن ، ولكنما الجن تتبع الإنس فيها وكما ندرسه في هذه السورة.

ثم هما مشتركان في التكليف ، والبعث والعقاب : ﴿قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ...﴾ (٧ : ٣٨) وأنّ فيهم الجنسين يتكاثرون بالتناسل كالإنسان : ﴿وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً﴾ (٧٢ : ٦) ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ (١٧ : ٥٠) وفي غير ذلك.

وهل فيهم أنبياء منهم ، أم هم دوما أتباع لأنبياء الإنس؟ نتبين ذلك وكثيرا مثله في هذه السورة :

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً﴾.

فمن هؤلاء النفر؟ هل هم رسل الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى سائر الجن دون أن يوحى إليهم بشيء؟ أم هم رسل الله اليه ليستمعوا منه وحي القرآن ، دون أن يستقلوا بوحي الرسالة الاسلامية ولو تبعا للرسول ، وانما اوحي إليهم ليستمعوا منه القرآن فيولوا إلى قومهم منذرين؟ قد يلمح القرآن إلى وحيهم هذا : ﴿وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً

لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ. يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ. وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (٤٦ : ٣٢).

فلا يعني صرف الله تعالى نفرا من الجن إلا وحيه إليهم أن ينصرفوا إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ولو لم يكن الوحي والرسالة مختومين بالرسول محمد ، لجاز استقلال رسل الجن بالوحي ، كما قبل الإسلام تلميحا من الآية : ﴿يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا ..﴾ (٦ : ١٣٠) وتصريحا من آيات تكليفهم وقد خلقوا قبل الإنسان ، فهل يا ترى كانوا قبلئذ مكلفين دون وحي؟ أم بالوحي إلى أشخاصهم أجمع؟ أم إلى بعضهم وهو الصحيح ، وآية المعشر تعمم الرسالة الإلهية لقبيلي الجن والإنس منذ كانوا ، فليكن منهم رسل قبل الانس ومع الانس ، ف «منكم» الدالة على الجنس توحي بكون الرسل في كل منهما من نفسه لا سواه ، فلو كان رسل الجن هم من الانس لم يقولوا : «شهدنا» كما العكس أيضا كذلك.

ثم بلوغ الحجة الإلهية لا يتم إلا أن يبعث لكلّ رسول منهم ، مهما كانت رسالته أصيلة ، أم تبعا لرسالة الإنس ، أم رسالة إلى سول الإنس ليأخذوا عنه كما في الرسالة المحمدية.

لذلك نجد القرآن يحتج ـ فيما يحتج ـ على منكري رسالة البشر ، انها من دعائم الحجة عليهم ، فلو أرسل إليهم ملائكة لاعتذروا باختلاف الجنس : ﴿وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ﴾ (٦ : ٩) ﴿قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ (١٧ : ٩٥) ﴿وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ (٦ : ١١١).

إذا فمن المؤكد ان من الجن رسلا ولا سيما قبل خلق الإنس ، ثم بعده وقبل وحي القرآن عل رسالة الجن كانت تبعية لرسل الإنس كما تلمح اليه آيات الاصطفاء :

﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ (٢٢ : ٧٥) واما مع الرسالة المحمدية وحتى القيامة فوحي الرسالة منقطع وحتى عن أهل عن أهل بيت الرسالة فضلا عن الجن ، اللهم إلا وحيا يحمل الانبعاث إلى الرسول محمد ليحمل عنه رسل الجن ما حملوه من وحي القرآن ، فهم خلفاء الرسول في هذه الرسالة ، كما عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قول جني انساب إلى منبر علي عليه السلام فتطاول وسلم عليه عليه السلام وقال : أنا عمرو بن عثمان خليفتك على الجن ، قيل له عليه السلام : فيأتيك عمرو وذاك الواجب عليه؟ قال : نعم» [(١)].

واما النفر من الجن المبعوثون من الله إلى الرسول ، فلم يكونوا أكثر من تسعة أنفار كما توحيه لغة النفر ، وان نفرهم هو انزعاجهم من الجو الطائش إلى أمان الوحي بأمر الله لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون كما فعلوا ، وقد سماهم علي عليه السلام ، وانهم كانوا من أشرافهم [(٢)] ولقد ناب على عليه السلام

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٣٣ ح ١١ عن جابر عنه (ع) وفيه عن أبي حمزة الثمالي عنه (ع): هؤلاء وفد شيعتنا من الجن جاءوا يسألوننا عن معالم دينهم (ح ١٢).

وفيه عنه (ع) أولئك إخوانكم من الجن أتوا يستفتوننا في حلالهم وحرامهم كما تأتوننا وتستفتوننا في حلالكم وحرامكم (ح ١٥) وكذلك (ح ١٦).

(٢) نور الثقلين ٥ : ٤٣٥ ح ١٨ عن احتجاج الطبرسي روى موسى ابن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي (ع) أن عليا (ع) قال لبعض اليهود : ان الشياطين سخرت لسليمان وهي مقيمة على كفرها ، وقد سخرت لنبوة محمد الشياطين بالايمان فاقبل اليه من الجن التسعة من اشرافهم واحد من جن نصيبين والثمان من بني عمرو بن عامر من الأحجة ، منهم شضاة ومضاة والهملكان والمرزبان والمازمان ونضاة وهاصب وهاضب وعمرو ، وهم الذين يقول الله تبارك وتعالى اسمه فيهم : ﴿وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِ﴾ وهم التسعة ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾.

الرسول في تعليمهم [(١)].

﴿فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً﴾ والعجب ما لا يعرف سببه ، وكل ما يقرأ على الإنسان ويسمعه يعرف سببه اللفظي والمعنوي ، وإذ لا يعرف سبب هذا القرآن فهو إذا خارق للعادة ، وسببه غيب عن المعرفة والاكتناه ، فانه الله الذي لا يعرف بالذات مهما عرف بالآيات.

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً﴾ :

انه : قرآن ، عجب ، يهدي إلى الرشد ، أمور ثلاثة فيه تدفعنا إلى الإيمان به ، فما كل عجيب يهدي إلى الرشد فان الشعوذة والسحر أيضا عجب مهما عرف سببه لأهله ، وما كل ما يهدي إلى الرشد عجب ، ثم ليس كل هاد عجيب مما يقرأ ، فهذا القرآن يجمع بين إناقة الظاهر وعلاقته قرآنا يلفظ ويسمع ، وبين العجب في كيانه قلبا وقالبا غير مألوف ، يثير الدهشة في القلوب ، ذو سلطان على المشاعر الحية ، وذو جاذبية غلابة ، وبين هدايته للرشد عقليا وفطريا وأخلاقيا وعلميا وثقافيا وفي كلما تتطلبه الحياة الانسانية الخالدة.

هذه الميزات للقرآن يتفرع عليها الإيمان : ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ إيمان بمن أنزله ، وكفر بمن سواه ، اللهم إلا من يدعو اليه كذريعة للايمان.

فالإيمان بالقرآن ، فبمن أنزله ومن انزل عليه ، إنه استجابة طبيعية مستقيمة لسماع القرآن وعيا في النفس ، دون حاجة إلى حجة سواه ، بل هو حجة الحجج ، تدل كالشمس في رايعة النهار ، دلالة رائعة فائقة العادة على من أنزله ومن أرسل به.

---

(١) المصدر ح ١٧ القمي في حديث : فجاؤا الى رسول الله (ص) فأسلموا وآمنوا وعلمهم رسول الله شرايع الإسلام ، فأنزل على نبيه ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ..﴾ السورة كلها ، فحكى الله قولهم وولى عليهم رسول الله منهم ، وكانوا يعودون الى رسول الله (ص) في كل وقت ، فأمر رسول الله (ص) امير المؤمنين (ع) ان يعلمهم ويفقههم ، فمنهم مؤمنون وكافرون وناصبون ويهود ونصارى ومجوس وهم ولد الجان».

واما انهم كيف اجتمعوا بالرسول لاستماع القرآن ، هل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ذهب إليهم؟ أم هم انصرفوا اليه؟ آية صرفهم وحضورهم توحي بالأخير : ﴿وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِ ... فَلَمَّا حَضَرُوهُ ... فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾.

وهي تلمح أيضا أن النفر هم وحدهم حضروه دون سواهم ، وتقول الروايات ان الملتقى كان بحراء ولم يكن معه من الإنس أيضا أحد ، ملتقى خاليا عن الأغيار (١).

﴿وَأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً﴾

﴿وَأَنَّهُ﴾ ضمير الغائب هذا للشأن ، وكما في الآيات التالية أيضا : ﴿وَأَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللهِ﴾ : استعراضات رسل الجن لقومهم بشأن الرسالة القرآنية ، وما كان منهم قبلها ، وكذلك قيام عبد الله (أي النبي) بهذه الرسالة السامية.

ف ﴿جَدُّ رَبِّنا﴾ فاعل ل «تعالى» : جملة وصفية تعني : تعالى عظمة ربنا عن اتخاذ الشركاء ، لا : انه «الله» تعالى ، جد لربنا ، رجوعا لضمير الغائب إلى الرب ، ليعني ان الله تعالى هو جد لرب الجن ، فربهم حفيده ، ولزامه اتخاذ الصاحبة للتوليد ، واتخاذ الولد ليولد الرب الحفيد ، وهم يصفونه بنفي الصاحبة والولد! ﴿تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً﴾.

---

(١) نور الثقلين ٤٣٠ : ٤ عن علقمة بن قيس قال : قلت لعبد الله ابن مسعود من كان منكم مع النبي (ص) ليلة الجن؟ فقال : ما كان منا معه احد ، فقدناه ذات ليلة ونحن بمكة فقلنا اغتيل رسول الله (ص) أو استطير فانطلقنا نطلبه من الشعاب فلقيناه مقبلا من نحو حراء فقلنا يا رسول الله! اين كنت؟ لقد أشفقنا عليك وقلنا بتنا الليلة بشر ليلة بات بها قوم حين فقدناك ، فقال : انه اتاني داعي الجن فذهبت أقرئهم القرآن ، فذهب بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، فأما ان يكون صحبه منا أحد فلم يصحبه.

فهل ان رسل الجن ، المبعوثين من الله لحمل الرسالة الاسلامية إلى قومهم ، هل كانوا منحطين عقليا لهذه الدرجة ، لكي يعتقدوا بأن الله جد لربهم ، في حين ينفون عنه الصاحبة والولد ، فالجد له صاحبة وولد وحفيد ، فكيف الجمع بين هذين المتناقضين؟ وهم يحيلون الإشراك بربهم قبل هذا التقرير : ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً﴾ والله يقرهم على هذه التقارير ، وهم أنفسهم يسفهون جماعة منهم قالوا على لله شططا ، ومن أردئه أن لله صاحبة وولدا : ﴿وَأَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللهِ شَطَطاً﴾ فما روي عن الصادقين عليهما الصلاة والسلام : أنه شيء قاله الجن بجهالة [١] إنه هو جهالة مفتعلة على الإمامين عليهما السلام ، ممن يجهلون معاني كلام الله ، وهنا نعرف مدى وجوب عرض الأحاديث على كتاب الله ليعلم الغث من السمين والخائن من الأمين.

ثم الجدّ لغويا هو العظمة كما في الحديث كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة جد فينا وهو القطع ، وسمي الفيض الالهي جدا ، وهو الحظ والغنى كما في الحديث قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء ، وإذا أصحاب الجد محبوسون وهو الجلال كما في الحديث تبارك اسمك وتعالى جدك : إشعاءات عدة من هذه اللفظة الواحدة وكلها تناسب المقام.

فالله سبحانه متعالي العظمة عما يصغره بصاحبة وولد ، ومتعالي القطع ، منقطع عن مجانسة المخلوقين وقريب منهم بعلمه وقيوميته ، ومتعالي الغنى عما يفقره إلى الشركاء والأنداد والصواحب والأولاد ، ومتعالي الجلال عما يذلّه بصغار ، لا تبديل لجده إلى غير جد كالمخلوقين أيا كان جدهم ومهما كان فإنهم صغار وإلى صغار.

فاتخاذ الصاحبة والولد والشركاء ينافي علو جده ، فما أحسن شعور رسل الجن باستعلاء الله تعالى عن اتخاذ الأنداد والاضداد ، وما أقبح اللاشعور من مختلقي الأحاديث على الصادقين عليهما السلام أن هذه من جهالات الجن!.

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٣٥ عن القمي والخصال عنهما (ع) ح ١٩ ، ٢٠ ، ٢١.

هنا الجن تكذب خرافة اسطورية جارفة هي أن الملائكة بنات الله جاءته من صهر مع الجن ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً﴾ (٣٧ : ١٥٨) ، وكانوا هم أحرى أن يفخروا بهذا الصهر لو كان ، ولكنهم في هذه الآيات قذفوا هذه الخرافة المصدقة لتصورات المشركين ممن زعموا أن لله صاحبة وولدا ، وكما أن سفهاء الجن كانوا يتقولون على الله من هذه الترهات والشطحات.

﴿وَأَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللهِ شَطَطاً. وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ :

والقول الشطط هو المفرط في البعد عن الحق ، كشط النهر حيث يبعد عن الماء بحافته ، وما أبعد شطط هذه القطاعة السفيهة من الجن عن هؤلاء الرسل منهم في استبعادهم واحالتهم الكذب على الله من قبيلي الانس والجن ، وهي عصمة في التفكير والعقيدة ، وطهارة بالغة في القلب ، ولكنها يجب أن تعدل بالوحي لكي لا يضلوا بحسن الظن ، فكان لا بد لهم من وحي القرآن ليدلهم على ضلالات الانس والجن ليجتنبوها ، كما يدلهم إلى صراط الحق ليسلكوه.

وقد يقال : إنهم قبل سماع القرآن كانوا يتبعون سفهاءهم في شططهم على الله ، لحسن ظنهم بالانس والجن كافة ، ثم اتضح لهم كفرهم فآمنوا ، ولكنه يتنافى وابتعاثهم الإلهي رسلا للجن ، وان الجن كانوا طرائق قددا ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقاسِطُونَ﴾.

فهل يا ترى أن الله تعالى انتجب لرسالة الجن غير الصالحين المسلمين مع من فيهم من الصلحاء؟ كلا! وانهم كانوا أصلح الصلحاء منهم ، على ظنهم ان لن تقول الإنس والجن على الله شططا ، وعلهم ما كانوا ليختلطوا معهم ، ثم بعد المخالطة عرفوا انهم على شطط وفي مقالة الكذب ، وزادهم الوحي عرفانا بالحق والباطل.

﴿وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً﴾ :

﴿بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِ﴾ دليل أن فيهم نساء فلهم ذرية ، و ﴿كانَ رِجالٌ﴾ يوحي بعلمهم بسابق الرهق والتضليل في سفهاء الجن ، قبل أن يسمعوا القرآن ، فظنهم

ان لن تقول الانس والجن على الله كذبا ، انه يسبق هذه المعرفة ، فرسل الجن هؤلاء على طهارة قلوبهم وصفاء ضمائرهم في حياتهم ، لقد مضت عليهم حالات ثلاث :

١ ـ ﴿أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِباً﴾.

٢ ـ ﴿أَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللهِ شَطَطاً ... وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً﴾.

٣ ـ ﴿أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى آمَنَّا بِهِ سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً﴾.

فهم إذا ـ طول حياتهم ـ كانوا بريئين من الشرك والشطط والكذب على الله.

ثم إن العوذ بغير الله هو اشراك بالله ، وانما يستعاذ بالله ممن سواه ، ولقد كان العوذة بالجن بين الجاهلين سنة ، زعم أن للجن قدرة مستقلة على النفع والضر ، فهم محكّمون في مناطق من العالم ، فكان رجال من الإنس يستعيذون برجال من بأس أشرارهم وشرهم ، رغم أن هذه العوذة الجاهلة الملعونة ما زادتهم إلا رهقا واضطرابا وضلالا وحيرة وقلقا تنوش قلوبهم المقلوبة الراكنة إلى الأعداء الضالين : ﴿فَزادُوهُمْ رَهَقاً﴾ وهذا هو الضلال البعيد أن يستعاذ بالشرير من شره ومن أشرار حزبه ، ولا يستعاذ بالله الذي خلقهم وبيده ناصية كل شيء!.

فالقلب حين يلجأ إلى غير الله طمعا في نفع أو دفعا لضر ، لا يناله إلا زيادة الضر والرهق ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

هذه العوذة العارمة ترهق المستعيذ والمستعاذ به ﴿فَزادُوهُمْ﴾ : رجال الإنس رجال الجن وبالعكس ، وضميرا الغالب يتحملان كلا الاحتمالين ، فالمستعاذ به يغتر بهذه العوذة فيزداد ضلالا وإضلالا ، كما المستعيذ يزداد رهقا وعذابا.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً﴾ :

﴿وَأَنَّهُمْ﴾ هؤلاء الرجال الضالون من الانس ﴿ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ﴾ أنتم الرجال

من الجن ، ضلال كضلال وظنّ كظن : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ (٦ : ١١٢).

أو ﴿أَنَّهُمْ﴾ رجال الإنس والجن الضالون السابقون ﴿ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ﴾ أنتم الموجودين من القبيلين ، خطابا لهما من رسل الجن ، عرفه الجن بما خوطبوا والإنس بما نزل به القرآن :

﴿أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً﴾ : لا بعث النبوة في حياة التكليف ، ولا بعث الحياة الأخرى في حياة الجزاء!! ترى كيف يجتمع الظن و «لن» وهي تحيل البعث والظن يرجّح عدمه؟ الجواب ان «ظنوا» يحكي عن واقع ما في أنفسهم ، إذ لا سبيل لليقين بعدم البعث : ﴿وَقالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٤٥ : ٢٤) و «لن» تحكي عما يدعون من العلم بعدم البعث ، وعما يشهد له واقع اعمالهم وتصرفاتهم كأنهم على علم مما يظنون! وإن هم لا يظنون.

هذا ظنهم دون سناد إلى شيء ، فكما العلم بحاجة الى سبب كذلك الظن ، وهناك العقل والنقل والفطرة تدلنا على ضرورة البعثين كما نراها في طيات آياتها.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً. وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾.

هنا رسل الجن يستعرضون لمسهم السماء للاستماع الى الملإ الأعلى ، أنهم كانوا يقعدون منها مقاعد للسمع دون حرج ولا حظر ولا خطر ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ، فهل إن الحرس الشديد والشهاب الرصد شيء جديد؟ آيات الشهب تقول إنها كانت منذ خلقت سماء الأنجم والشياطين الذين كانوا يسمّعون الى الملإ الأعلى!

أم أنما حصل جديدا هو ملء السماء حرسا شديدا أو شهبا ، مهما كانوا

موجودين قبل ذاك دون شدة وكثرة؟ آيات الشهب لا تنفي الكثرة السابقة ، بل وقد تلوح إليها! : ﴿وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ﴾!

إذا فهل الجديد منع الجن عن السماء بعد ما كانوا يلمسونها؟ آيات الشهب تصرح ان السماء بالملإ الأعلى كانت ممنوعة قبل ذاك أيضا! فما هو التوفيق؟

الجواب في كل الأطراف المعنية واضح وضح النهار ، من الآيات أنفسها : فآيات الشهب الثاقبة ، انما تختصها بدحر الشياطين المتسمعين للملإ الأعلى ، المسترقين السمع وليس لهم ، وأما الجن المؤمنون ولا سيما رسلهم الكرام فلا تمنعهم : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ. وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ. لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ. دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ. إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ﴾ (٣٧ : ١٠) ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ. إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥ : ١٨) ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ﴾ (٦٧ : ٥).

فلا الجن المؤمنون المتسمعون للملإ الأعلى ، ولا الإنس الذين لا يقدرون التسمع ، لم يكونوا ممنوعين ومدحورين ، وقد كان لرسل الجن هؤلاء مقاعد خاصة في السماء عند الملإ الأعلى فيها يسمعون ، وكان حقا لهم بما هم رسل يستمعون الوحي ثم يولّون الى قومهم منذرين ، فلما ابتعث خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ملئت السماء كل السماء حرسا شديدا ومن الشهب الرصد ، السماء كل السماء ، وفي مقاعد الجن المؤمنين ايضا ، ولأن الوحي ختم بعد النبي ، وفي وحي القرآن كفاية عما كانوا يستمعون ، وزيادة عما كانوا يأملون ، فكان ولا بد من ان تملأ السماء حرسا شديدا وشهبا تدحر الجن كافرين ومؤمنين.

فالذي حصل جديدا زمن النبي الجديد أن السماء ملئت حرسا شديدا ، وفي مقاعد الجن المؤمنين ايضا ، بعد ما كانت خالية عنهم آمنة من دحرهم ، وشهابا رصدا لهم يمنعهم عن التسمّع الى الملإ الأعلى منعا ، دون مسّ من كرامتهم ، أو عذاب لهم واصب ، أو شهاب ثاقب يثقبهم كما كانت لمردة

الجن الشياطين ، إنما حرس شديد وشهاب رصد لصدّهم عن التسمّع الى أسرار الملإ الأعلى إذ عوّضوا عنها بوحي أعلى يصدرونه عن الرسول الخاتم محمد صلّى الله عليه وآله وسلم.

هنا الجن يقرّون أن الرسالة المحمدية منذ بزوغها هي التي ملأت السماء حرسا شديدا وشهبا ، لا منذ ولادته صلّى الله عليه وآله وسلم إذ قالوا : ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ : قبل الآن ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً﴾ والآن هو آن استماعهم للقرآن لا آن ولادة نبي القرآن.

هذا ـ ومن الجائز كون تجنيد الحرس الشديد والشهاب الرصد ، منذ ولادة الرسول ، كذلك وملء السماء وفي مقاعد الجن المؤمنين دون تعرّض لهم ، ثم منذ الرسالة ونزول القرآن أخذوا في تنفيذ الأوامر الباتة لدحر المتسمعين من الجن كافرين ومؤمنين سواء.

فالنيازك النارية الراصدة بحرسها الشديد ، تحرق مردة الجن المسترقين للسمع دائما ، وتنبه المؤمنين منهم ، ولا ريب أنهم تركوا لمس السماء بعد إذ عرفوا أنهم ممنوعون ، تركوه بدافع الايمان ولا سيما أنهم مرسلون ، ثم سائر المؤمنين منهم مهما اخطؤوا في لمس السماء لاستماع اخبارها ، فعلّهم لا يقبون بالنيازك الشهب كما تثقب مردة الشياطين ، وإنما يدحرون دحرا أو ينبهون مرة تلو الأخرى ، ولكي يختص الوحي وأخبار السماء بالرسول الختم ، ثم لا خبر ولا وحي بعد ارتحاله صلّى الله عليه وآله وسلم والى القيامة الكبرى.

فحريّ بهؤلاء الرسل الكرام أن يحتاروا في أمرهم : ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ إذ انقطع عنهم خبر السماء ووحيه ، وكانوا ـ كرسل ـ يصدرونه الى أهل الأرض من الجن ، أشر أريد بهم؟ فظلوا في فتور الوحي أو فترته : ﴿أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾ : بما علّه يعوّضهم عنه بما فيه رشدهم وأكثر مما كان ، فليس انقطاع خبر السماء رشدا لأهل الأرض إلا إذا عوّض عنها بما هو أرشد وأحرى ، وكما قالوا : ﴿إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً ..﴾ فلم تكن أخبار السماء عجبا كما القرآن عجب ، فقد أراد ربهم بهم فيه رشدا.

فما روته الرواة خلاف النص أو الظاهر من هذه الآيات نضرب بها عرض الحائط ، كما يروى انه حيل بين الشياطين وبين خبر السماء [١] ، وكما اختلق على علي عليه السلام أن الشياطين ما كانوا محجوبين عن السماء وإنما حجبوا عنها لما ولد الرسول محمد صلّى الله عليه وآله وسلم [٢] : غلطا على غلط حيث المنع كان منذ الرسالة لا الولادة ، والممنوعون هم مؤمنوا الجن بعد ما كان لهم مقاعد للسمع ، وأما كفارهم فقد منعوا منذ كانوا وكان الملأ الأعلى! ، وعجيب من أصحاب الحديث كيف يسجلون هذه الأحاديث المخالفة للآيات كأنها وحي نزل ، وكأن القرآن فرع بها يؤوّل ، ونحن لا نذكرها إلا ردا لها على كتاب الله وليذّكر أولوا الألباب!.

نكات على ضوء هذه الآيات :

١ ـ هناك في السماء ملأ أعلى هم أعلى محتدا ومنزلة ، من سواهم من الخليقة ،

---

(١) رواه الواحدي باسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله (ص) على الجن وما رآهم ، انطلق رسول الله في طائفة من أصحابه عامدين الى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء فرجعت الشياطين الى قومهم فقالوا : ما لكم؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : وما ذاك الا من شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبي وهو بنخل عامدين الى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر. فلما سمعوا القرآن استمعوا وقالوا : هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء فرجعوا الى قومهم وقالوا : انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ، فأوحى الله الى نبيه (ص) «قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِ» ورواه البخاري ومسلم ايضا في الصحيح.

أقول مهما رويت هذه الرواية في الصحيح وسواه فهي غلط إذ تنافي نصوص القرآن ـ تأمل.

(٢) نور الثقلين ٥ : ٤٣٦ ح ٢٤ عن احتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (ع): «ولقد رأيت الملائكة ليلة ولد تصعد وتنزل وتسبح وتقدس وتضطرب النجوم وتتساقط علامة لميلاده ، ولقد هم إبليس بالظعن في السماء لما راى من الأعاجيب في تلك الليلة ، وكان له مقعد في السماء الثالثة والشياطين يسترقون السمع ، فلما رأوا العجائب أرادوا ان يسترقوا السمع فإذا هم قد حجبوا عن السماوات كلها وقد رموا بالشهب جلالة لنبوة محمد (ص).

ملئوا من أسرار السماء ويتحدثون دوما عنها ، كان الجن المؤمنون ، أو رسلهم بوجه خاص ، يستمعون إليهم فيرجعون الى قومهم منذرين ، دون الجن الشياطين الذين لا يرجعون بما يسرقون إلا بكل تدجيل وتضليل.

٢ ـ إن في الجن رسلا كما في الانس ، ولكنما الرسالة الأصيلة هي لرسل الإنس ، كما يوحي به انقطاع وحيهم منذ الرسالة الإسلامية ، فلو كانوا مستقلين فيها لكان منهم خاتم يحمل الوحي الخالد كما منا خاتم.

٣ ـ في حرمان رسل الجن عن الوحي مع الأبد ، منذ بزوغ وحي القرآن ، دلالة ناصعة أنه خاتمة الوحي ، لا كتاب بعده ولا نبوة بعد نبوته ، وختم الوحي والرسالة هو الرشد الذي أراده الله بمنع التسمع الى الملأ الأعلى عن رسل الجن : (أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً).

٤ ـ السماء الملموسة لرسل الجن هي سماء الأنجم وهي الاولى من السبع ، حيث ترى الشهب الثاقبة والنيازك النارية ، ولا ريب انها في الاولى ، إذ ليس غيرها مرئية لنا حتى الآن ولا بالعيون المسلحة ، ومن لمسهم السماء ودحرهم عنها نعرف أن سكنى الجن هي الأرض بجوّها ، بخلاف الملائكة.

٥ ـ يوحي التنديد بالعائذين بالجن ، كما تفرضه حكمة الله وعدله : أن لا سلطان للجن على الانس ولا من شياطينهم إلا كيدا : و (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً) فمن الظلم أن يفسح المجال للجن ان يؤذوا الإنس وهم لا يرونهم ، ولا حيلة لهم في الدفع عن أنفسهم وأعراضهم ، وليست فكرة تدخّل الجن في البعض من أمور الناس وحالاتهم وتخبّلهم بهم إلا خرافة أسطورية قضى القرآن على أمثالها.

٦ ـ الحرس الشديد الجديد عند بعث النبي الجديد ، يوحي بأن الحراسة ما كانت قبلئذ بتلك الشدة ، إذ كان الجن المؤمنون يستمعون الى الملأ الأعلى في مقاعد لهم خاصة ، وكانت مردة الشياطين منهم يسترقون شيئا مّا مهما لاقوا من دحر وعذاب ، لكنما الرسالة المحمدية الختمية أوجبت حصر الوحي

به ودحر من سواه ، سواء أكان استماعا حرّا كما كان للمؤمنين ، أم استراقا كما للشياطين ، فالكل محرومون عن كل أسرار السماء إلا من طريق الرسالة المحمدية ، حيث الجن الرسل يصدون عنه.

فالأجهزة الدفاعية السماوية من الشهب النيازك النارية والحرس الشديد ، تنفّذ أمر الله تعالى والى يوم القيامة الكبرى ، فمن ادعى بعد الوحي المحمدي وحيا وبعد رسالته رسالة وبعد كتابه كتابا فهو دجال كذاب.

٧ ـ لا ندعي أن أهداف الشهب تختص بدحر الجن ، وإنما هو من اهدافها التي كنا نجهلها كما جهلنا الجن ، وكما يجهل العلماء حتى الآن اهداف هذه الشهب ، فهل من العقل انكار المجهول من أسرار الكون وأكثره مجهول؟! ان المتفلسفين الذين يحاولون تفسير هذا الكون وارتباطاته في كافة زواياه ومجالاته ، انهم ظلوا يتعثرون كالأطفال الذين يصعدون جبلا شاهقا لا غاية لقمته ، محاولة حل لغز الوجود ، وهم لم يتقنوا بعد أبجدية الهجاء من كتاب التكوين الغامض الفائق العقول.

لقد ظلوا مرتكسين في تصورات لهم مضحكة حين نقرنها الى التصورات الواضحة البديعة الجميلة التي ينشئها القرآن ، فتلك منهم مضحكة بعثراتها ومفارقاتها وتخلخلها وقزامتها الى عظمة الوجود ، وهذه عريقة عميقة الى غير الحدود ، فانها من خالق الكائنات ، سبحان الخلاق العظيم!

﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرائِقَ (١) قِدَداً﴾ :

علّ الصالحين هنا هم الصالحون تماما دون فساد وهم رسلهم ، و ﴿دُونَ ذلِكَ﴾ يشمل دون الصلاح الشامل ، من الصلاح الخليط بالفساد كمن دون الرسل من مؤمنيهم ، والفساد التام دون صلاح كشياطين الجن ، وفي كل من هؤلاء الثلاثة أيضا صنوف ، يوحي بهذا التقسيم ﴿كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً﴾ فلم يقل طريقين ليكون تقسيم الصالحين ودون ذلك ثنائيا كما يزعم ، إنما ﴿طَرائِقَ قِدَداً﴾.

وبما ان الطرائق جمع طريقة ، والقدد جمع قدة وهي المستمرة بالقدّ في جهة واحدة ، المشقوق طولا ، نستوحي أنهم كانوا ولا يزالون في مبادئ متباينة ، كل يباين الآخر ، كما المقدود يباين بعضه البعض ، وبما أن أقل الجمع ثلاثة فطرائقهم المباينة إذا : رسلهم ومردة الشياطين وبينهما المؤمنون على شتات درجاتهم ، فلا رسل الجن يكفرون أو يفسقون ، ولا شياطينهم يرسلون او يؤمنون ، ولا المتوسطون يشيطنون ، وان كان المرسلون يصطفون من بينهم ولا بدّ ، ونرى القرآن هكذا يقتسم الجن الى هؤلاء الثلاث ومنهم الشياطين وهم ذرية الشيطان الأكبر وذريتهم أيضا ، هم قدة مستمرة في الكفر لا يؤمنون كأنهم من صنف آخر : ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ (١٨ : ٥٠) وهذه ميزة أخرى بين الجن والإنس ، إذ لا نجد من الإنس من هم قدة مستمرة في الكفر بذرياتهم ، فقد يولد مؤمن من كافر أو كافر من مؤمن.

هنا نكرر براءة رسل الجن عما ينسب إليهم أنهم كانوا ذيولا لسفهائهم قبل سماع القرآن ، سنادا الى تفسير رديء لقولهم ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ رغم انه يطهرهم للغاية كما اسبقناه ، ثم هذه الآية تجعلهم من الصالحين تماما منذ كانوا ، مما يذود عنهم وصمة الغواية عن جهالة.

فهؤلاء الرسل الكرام ، القدة الصالحة ، مرسلون الى من هم دون ذلك ، الى شياطينهم وسفهائهم لإلزام الحجة ، والى من بين القدتين لإيضاح المهجة ، ولئلا تكون لهم حجة على الله بعد الرسل ولله الحجة البالغة.

وما أجمل هذا التقرير عن مصير الجن في بيئتهم : ازدواجية الطبيعة والاستعداد لكلا النجدين : الخير والشر ، إلا من تمحّض منهم للشر وهو إبليس وقبيله بذريتهم ، ومن تمحض للخير كرسل الجن ، تمحضا بالطبع والسعي معا ، رغم التصور الغالط عندنا وحتى بعض الدارسين : ان الجن يمثلون الشر أيا كانوا! وأن الإنسان وحده بين الخليقة هو ذو طبيعة مزدوجة ،

كلا! إنهم كأمثالنا طالما اختلفوا عنا فيما استوحيناه مسبقا ، مما لا يجعلهم سابقين علينا ومسيطرين فينا ، ولا شريرين تماما ، فهم مكلفون كما نحن ، وهم طرائق قددكما نحن إلا في شياطينهم الثابتين على قدتهم ، فقد شبّه سبحانه اختلافهم في الأحوال ، وافتراقهم في الآراء كالسيور المقدودة التي تتفرق عن أصلها وتتشعب بعد ائتلافها ، حيث ائتلفوا منذ الخلقة إذ خلقوا من نار ، ثم اختلفوا قدد النور والنار وبينهما متوسطات.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً﴾

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾ : ظن القلب الذي يساور اليقين ، لا ظن العقل الذي لا يغني ، ولا يقبل من المؤمنين ، و : «لن» المكررة هنا مرتين ، الدالة على استحالة مدخولها ، إنها أثبت قرينة أنه ظن القلب ، فظن العقل ، بل ويقينه ـ أحيانا ـ يتحمل فكرة تعجيز الله بأيّ معنى كان ، كما نلمسه ممن يدّعون الايمان ، وظنّ رسل الجن مما يحيل هذه الفكرة ، فليكن يقينا عقليا راجحا.

وإنما يقتصر هنا بالظن ، وجماعة من رسل الجن هم من أهل اليقين في قلوبهم؟ لأنهم درجات ، يجمعهم ظن القلب ، مهما اختص البعض منهم بيقينه!

﴿.. أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الْأَرْضِ﴾ : يوحي انهم من سكنة الأرض ، وان كان باستطاعتهم صعود السماء ، وهنا يعترفون ـ رغم أوهام المشركين الظانين ان الجن شركاء الله وانسباؤه ـ يعترفون انهم يعرفون قدرة الله عليهم في الأرض ، فلن يعجزوه فيها ، بل ولا هربا : هربا من الحياة الدنيا ، فإنهم ينتقلون بعد الى برزخ الحياة وهم في قبضة الحي القيوم ، أم هربا من حياة الأرض الى السماء فالى أين يهربون إلا الى ملكه وسلطانه : ﴿يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ﴾ (٥٥ : ٣٣) فلنفرض ان هناك منفذا من أقطار السماوات والأرض ، فالى أين بعد؟ فهل إلا الى سلطان الله وملكه؟

فهؤلاء ـ وهم رسل الجن ـ أقواهم بينهم ـ يعترفون بعجزهم عن الهروب من سلطان الله والإفلات من قبضته ، والفكاك من قدرته ، شاعرين بسلطان الله عليهم أينما كانوا ، وعلى الخلق أجمع ، فكيف بشياطينهم!

وعلى أثر هذا الاعتراف الصادق النابغ ، النابع من قلوبهم الصافية الضافية ، أصبحت حياتهم تحسسا وتجسسا عن الحق الصراح ، النازل بوحي السماء :

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً﴾.

إنهم سمعوا القرآن ﴿قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ وسمّوه هدى وهو هدى مزدوج ، يهدي المتحسسين عن وحي السماء ، الى أنه وحي السماء ، ثم يهديهم الى رشد الحياة ، فالإيمان به إذا ايمان مزدوج ، وليس تقليديا ، وإنما عن برهان ، ايمان بوحيه وهداه.

﴿فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ﴾ والايمان بالقرآن ايمان بمن أنزله ، فانه تعالى تجلى بعلمه وهداه في قرآنه ، فالناكرون القرآن إنما ينكرون الله او يكذبونه لو كانوا يعقلون.

ثم هكذا ايمان متين مسنود الى برهان مبين يزيل عن صاحبه كل خوف ، ﴿فَلا يَخافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً﴾ : بخسا : نقصا على سبيل الظلم أو كل نقص ، ولا رهقا : شمول الاضطراب.

لا يخاف في حياة الايمان وسبيله واقع البخس ولا توقّعه ، في مال أو جاه أو نفس ، فهي كلها فداء في سبيل الله ، تجارة مربحة لا بخس فيها ولا نقص ، ولأن الايمان يؤمن الإنسان عن المخاوف ويطمئنه عن الإرهاق ، وعلى حد المروي عن الامام الرضا عليه السلام : من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء.

ولا يخاف ـ كذلك ـ رهقا : اضطرابا يشمله ولماذا يضطرب؟ ألفقد مغريات الحياة الدنيا وزخرفاتها؟ فما هي إلا متاعا لتجارة لن تبور! يستبدل

بها المؤمن مرضاة الله ورحماته في الدارين ، فذكر الله تعالى يطمئن القلوب ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ فضلا عن الايمان المازج القلوب ، التي أصبحت ذكرا لله إذ عاشت ذكره ، داحرة ناحرة من سواه.

إنهم مهما شملهم بخس أو رهق في الحياة الدنيا في سبيل الله ، فلا يخافون ، لأنهم الرابحون يوم الدين ، فلن يبخس المؤمن حقه الثابت ولن يرهق ، ومن ذا الذي يملك بخسه وإرهاقه وهو في حماية الله ورعايته ، وحرمانه عن ملذات الحياة الدنيا ومغرياتها ليس بخسا ولا رهقا بجنب ما يكسبه من رضوان الله والحياة الآخرة ، فهو في راحة في ضميره ونفسه دنيا مهما ضحى بنفسه ونفيسه ، وفي راحة شاملة في الآخرة : لا يخاف بخس الدنيا ورهقها ، الواقع ـ لا محالة ـ للسالكين في هذه السبيل ، يوم الدنيا ، ولا يخافهما يوم الدين إذ هما لغير المؤمنين.

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً. وَأَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾.

يلمح من تقسيمهم الى المسلمين والقاسطين أن الجمع هنا : «أنّا» يشمل الجن أجمع ، لا خصوص المؤمنين أو الرسل منهم ، ف «انّا» هنا تختلف عن «أنّا» هناك ، بين خاصة برسلهم ك ﴿إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً﴾ وعامة للمؤمنين منهم وعلّه : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ ..﴾ وعامة للجن اجمع ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً﴾ ف «أنا» هنا وهناك وهنالك طرائق قدد في الشمول والخصوص كما الجن طرائق قدد!.

ولئن سئلنا ما هو الفرق بين «الصالحون» و «دون ذلك» وبين ما هنا «المسلمون والقاسطون»؟

فالجواب ان «الصالحون» كما مضى هم رسل الجن ، ودون ذلك يشمل كلا القاسطين ، والمتوسطين بينهما من المؤمنين بدرجاتهم ، ولكنما «المسلمون» يعم رسلهم والمؤمنين ، و «القاسطون» يخص شياطينهم ﴿وَأَمَّا الْقاسِطُونَ

فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ فالمؤمن مهما كان فاسقا ليس لجهنم حطبا ، وإن أحرق بوقوده قليلا أم كثيرا ، ولكنه خارج عنها الى رحمة الله ، لإيمانه ، فلا يضيع الله ايمانهم ولا يسوي بينهم والشياطين.

وبما أن التحري هو التعمل في قصد حرى الشيء وجانبه ، نعرف ان مسلمي الجن إنما أسلموا فاحصين قاصدين الايمان المفصل بالوحي بعد أن كانوا مؤمنين الايمان المجمل بعقولهم الصافية وقلوبهم الضافية ، فقد تحروا رشدا حتى جاءهم الرشد بوحي القرآن فآمنوا به غير مسيّرين ولا ناكرين ولا راغبين بالايمان مالا ولا منالا ، وإنما رشدا ، كانوا يتحرونه حياتهم ، وكلّ نال رشده وهداه قدر سعيه ولباقته ولياقته ، بين من أوحي اليه وحمل رسالة السماء على هامش رسل الانس ، وبين المؤمنين بدرجاتهم ، بما أرسل إليهم رسلهم إذ **﴿وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾**.

فالإسلام ـ أيا كان ـ بحاجة الى التحري والتفكير الصحيح للوصول اليه ، دون الضلالة فانها تتحرى الإنسان وهي قائمة على كافة الدروب ، دون حاجة الى ان يتحراها الإنسان ، فالضلالة والقسط تخبّط عشوائي ، ولا إنسانية بغير إدراك ، والإسلام والإقساط اهتداء الى الرشد في إنسانية التحري والتفكير ودحر الجهالات والتعصبات.

والقسط ـ خلاف الإقساط ـ : أخذ نصيب الغير ظلما ، خلاف إعطائه عدلا ـ كالضرب والإضراب ـ فالإسلام يتضمن الإقساط ، إعطاء كل ذي حق حقه ، حق الخالق والمخلوق ، وحق المسلم نفسه ، مستسلما في هذه الحقوق لحكم الله ، والقسط تجاوز الى حقوق الغير وأخذها ظلما وعتوا ، ويرجع الى هدر الحقوق جماعية وفردية ، خلقية وخالقية ، ولصاحب القسط قسط عظيم من قسطه ، يكدّر حياته وهو يحسب أنه يحسن صنعا!

﴿وَأَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ : «كانوا» لا سوف يكونون فهم حياتهم حطب جهنم ، يؤجّجون نيران الخلافات والحرمانات والظلامات ،

في الحياة الدنيا ، وبذلك سوف يكونون حطبا لجحيم الآخرة ، تستدام النار بدوامهم ، فكل نار لا بد لها من حشاش يحشها ووقود يقودها.

فالقاسط نار عبر حياته هنا وهناك ، والمقسط جنة عبرها هنا وهناك ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى﴾.

والجن مهما كانوا مخلوقين من نار ، فالقاسطون منهم يحرقون ويحرقون في جحيم النار بما يوحيه النص القرآني الذي نستمد منه تصوراتنا الايمانية ، فالتصورات الشاردة المادرة التي تحيل أو تستبعد عذاب الجن بالنار ، ليست صادرة إلا عن أفكار مادية ضيقة تعارض النصوص القرآنية والواقع الملموس ايضا ، أن كثيرا مما أصله النار يحرق بالنار ، والنار الأقوى كذلك تحرق الأضعف او تزداده حرقا ، إضافة الى ان الجن لم يظلوا نارا وإنما خلقوا من نار ، كما الإنسان المخلوق من التراب يقتله الحجر المخلوق من التراب ، فهل من المستحيل ـ إذا ـ أن مادة أقوى تصطدم مادة من جوهرها هي أضعف منها ، مهما بقيت على حالتها ، أو ـ بأحرى ـ تغيرت ، كما الجن خلقوا من مارج من نار وليسوا الآن نارا ، ولو بقوا نارا فنار الجحيم هي أقوى ، وعلى أقل تقدير تزيد في ناريتهم فتحرقهم مهما لا تحرقهم نارهم الاصيلة ، وكما في الإنسان ايضا نار هي من شروط حياته ، فلو زادت أصبحت النار نفسها من بواعث مماته كالحمى البالغة ذروتها ، المجمدة للدم.

ثم من بعد ذلك فعدل الله وفضله وكلمته البالغة تفرض التسوية بين الجن والانس ، مؤمنين وكافرين ، الى الجنة على سواء والى النار على سواء ، وكما تدلنا عشرات الآيات مصرحات ، ومئات شاملات ، فالحظائر المعدة بين الجنة والنار لمؤمني الجن وفساق الشيعة ، المروية عن باقر العلوم (ع) هي مكذوبة مزورة عليه عليه السلام ، مكتوبة بأيدي الجهل في البعض من كتب الحديث [1].

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٣٧ القمي وسئل العالم عن مؤمني الجن أيدخلون الجنة؟ فقال : لا ـ ولكن لله حظائر بين الجنة والنار يكون فيها مؤمنوا الجن وفساق الشيعة!.

فآيات الجنة في سورة الرحمان تشمل الانس والجان صريحة : ﴿وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ (٥٥ : ٤٦).

ولقد أوحى التعبير في هذه الآيات انها تحمل مقالات واعترافات رسل الجن ، مزيجة من وحي العقل والايمان ووحي السماء ، ثم الله يؤيدهم في أن الاستقامة على طريقة الإسلام تسقيهم ماء غدقا يحييهم في عوالم الحياة كلها ، فليس الإسلام المنقطع الفاشل بالذي ينجيهم ، وإنما الإسلام المستقام :

﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً. لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً﴾.

ونرى هكذا تتمة السورة انها من كلمات الله تأييدا لرسالة الجن وتكميلا لها في وحيها الأصيل الى رسلهم ورسول الانس محمد صلّى الله عليه وآله وسلم.

وان في ترادف آياته تعالى بما ينقله عن رسل الجن دلالة لطيفة على مدى تصديقه لهم في مقالاتهم النابعة عن وحي الايمان ووحي السماء ، وانها مصدّقة كوحي القرآن لأنها نابعة عنه.

﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا﴾ المسلمون من الجن وسواهم ﴿عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ المثلى التي تحروها ، دون تزعزع وفوضى ، وإنما الاستقامة : طلب القوام والقيام فيها من أنفسهم وسواهم ﴿لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً﴾ غزيرا : يمطر عليهم من سماء الرحمة روحانية وجسدانية : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٧ : ٩٦) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ﴾ (٥ : ٦٦).

إن الماء الغدق هناك ، والبركات هنا ، لا يخصان ماء السماء وبركاتها المادية فحسب ، فانها تعم المستقيمين وسواهم ، وان كانت لهم رحمة ولمن

سواهم ابتلاء ونقمة ، فهي تعم ماء الحياة الروحانية وبركاتها التي تخص المتقين المستقيمين دون سواهم ، فلا تختص عوائد الايمان وفوائدها الحياة الاخرى ، بل إنها تعمها والحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى ، فالبركات الروحية هي أولى وأحرى أن تسمى ماء غدقا وبركات إذ لا تخالطها دركات : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٤١ : ٣٠) لذلك نرى الامام جعفر الصادق عليه السلام يفسر الماء الغدق بالعلم الكثير ، تفسيرا بما هو أحرى مصاديقه [١].

ثم الماء الغدق المادي وبركاتها ، هو جزاء المستقيمين من جهة ، وفتنة لهم من أخرى ، وكما جعلت غاية للإسقاء : ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ فالمستقيم في الفتنة ، الذي لا تغريه بركات الدنيا ومغرياتها ولا تنسيه وتعرضه عن ذكر الله ، هذا المستقيم تزداده الفتنة رحمة وايمانا ، وقليل ما هم الصامدون على الاستقامة في الترف والترح ، ولذلك لا يعم الله سعة الأرزاق للمستقيمين اجمع ، فأكثرها لمن يستقيم ، ثم بجانبهم المعرضون عن ذكر الله الذين يبدلون نعمة الله كفرا ويحلّون قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ، هؤلاء الذين حياتهم هي الغفلة ويعيشون التخلفات ، فالماء الغدق والبركات تصبح لهم دركات وتسلكهم عذابا صعدا ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً﴾ ينفذه عذابا صعبا.

من المؤمنين غير المستقيمين في الايمان ، والمستقيمين ما داموا فقراء فإذا سقوا ماء غدقا بغوا ونسوا الله ، ومن القاسطين المستقيمين في القسط والبغي ، هؤلاء شركاء في سلك العذاب الصعد نتيجة الإعراض عن ذكر ربهم ، كل على قدره ـ أعاذنا الله منه ـ فهم في العذاب الصعد فقراء وأغنياء ، رؤساء ومرءوسين ، وليس املاؤهم في أعمارهم وإمدادهم بأموال وبنين خيرا لأنفسهم :

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٣٩ عنه (ع) معناه : لأفدناهم علما كثيرا يتعلمونه من الأئمة.

﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ (٣ : ١٧٨) فإملاء المؤمن المستقيم هو لازدياد الايمان ، ثم هو لغيره لازدياد الإثم فالعذاب الأليم ، فحياته ومعيشته ضنك أينما حل : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى﴾ (٢٠ : ١٢٤) مهما لم يحس أم لم يبرز ضنك المعيشة في الدنيا ، ولكنها في الآخرة محسوسة بارزة.

إن الحياة الدنيا كلها بكافة حالاتها ووجهاتها فتنة ، فمنها خير ومنها شر : ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾ (٢١ : ٣٥) ففتنة الخير تقدم الإنسان نحو الأكمل فالأكمل في الخير : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٦ : ١١٠) وفتنة الشر تدفعه نحو الأشر : ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ (٢٠ : ١٣١).

فالمؤمن المستقيم يفتن بالماء الغدق والبركات ليزداد ايمانا ، وسواه يفتن بها أحيانا وبسواها أخرى ليزداد إثما وله عذاب أليم ، ويا لفتنة المؤمن بالبركات صعوبة صعدا ، ثم تكون له ولمن معه رحمة.

فالابتلاء بالنعمة بحاجة ملمة ملحة الى يقظة مستمرة تعصم من شر الفتنة ، فنعمة المال كثيرا ما تقود الى فتنة البطر والإعراض عن ذكر الله ، ونعمة القوة كثيرا ما تقود الى فتنة الطغيان والعصيان على الخلق والخالق ، والتهجم على الحرمات والتجهم على بركاته ، ونعمة الجمال كثيرا ما تقود الى فتنة الخيلاء ، ونعمة الذكاء كثيرا ما تقود الى فتنة الغرور والاستخفاف بالآخرين ، فلا تكاد تخلو نعمة من الفتنة السوء إلا من استقام فذكره الله فعصمه الله.

وكل ذلك بخلاف فتنة النعمة وابتلائها ، الممتحن بها كثير من المؤمنين المستقيمين ، فهي أخف من ابتلاء النقمة بكثير.

والعذاب الصعد الصاعد في الصعوبة لحدّ كأنه نفس الصعوبة والصعد ، انه يخص المعرضين عن ذكر الرب ، لا المؤمنين المستقيمين الذين يتلهون أحيانا بالبركات والماء الغدق ، ما لم يصل الالتهاء الى الإعراض عن الله ، ولا سمح الله ، وكرامة الايمان ـ أيا كان ـ تمنع عن دركات الإعراض والعذاب الصعد ، والله من وراء القصد.

يختص الماء الغدق هنا من بين البركات لأنه أصل البركات ، فاوّل أسبابها توافر الماء ، فما تزال الحياة تجري على خطوات الماء ، وما يزال الرخاء يتبع خطوات الماء حتى هذا العصر الذي انتشرت فيه الصناعة ، فالماء له اهميته الحيوية والعمرانية عبر الحياة في عصورها.

ثم الارتباط بين حياة الاستقامة والرخاء حقيقة ملموسة لا تنكر ، وإذا كانت هناك أمم غير مستقيمة على طريقة الله ثم تنال الوفر فانها معذبة بآفات وعاهات أخرى هي أشد من الفقر ، آفات في أمنيتها وأمنيتها ، في انسانيتها وقيمها وكرامتها ، التي تسلب عن ذلك الغنى والوفر حقيقة الرخاء ، وتحيل الحياة فيها لعنة مشؤومة على كافة معاني الإنسانية ومثلها ، كما أسلفناه في سورة نوح.

﴿وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾ عطف على الآية السابقة ، المعطوفة على ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ..﴾ فما هي المساجد هنا ، التي لا يدعى بها أو فيها مع الله أحد؟

المساجد جمع المسجد والمسجد والمسجد : ان تكون على الترتيب مصدرا ميميا بمعنى السجدة ، واسم آلة هي آلة وذريعة السجدة وسببها المؤول الى الأدلّاء على الله والهادين الى مرضاة الله وعبادته ، واسم مكان وهو ما يسجد فيه : محال العبادة وما يسجد عليه : محال السجدة من الجبهة وما يسجد به من مواضع السجدة واسم زمان : «المسجد والمسجد» : زمان السجدة ، فهي كلها لله ، والمساجد هنا في كلام الله تتحمل هذه كلها.

فكما السجدة ـ وهي غاية الخضوع ـ خاصة بالله ، لا تعدوه إلى سواه ، كذلك المواضع السبعة التي تسجد بها : من الجبهة والكفين والركبتين وإبهامي الرجلين ، لا يسجد بها الا لله ، ولا تقطع في أية جريمة إلا ما شذ ، وكذلك بيوت الله المعدة للصلاة ، إنها لله ، فلا يدعى فيها مع الله غيره ، ولا تتخذ لغير عبادة الله ، كذلك والراسخون في العلم المعصومون فلا يدعى معهم غيرهم أحد حيال دعوتهم إلا من يدعو بهم ، وكذلك أزمنة السجدة المفروضة ، المحددة فرضا وندبا ، إنها لله ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً﴾.

وقد تتأيد هذه الاختصاصات بآيات بينات ، كالتي تحصر السجود في الله ، فالسجدة بما أنها غاية الخضوع لا تحق إلا للخالق الذي في غاية الرفعة ، لا يشاركه فيها أحد حتى يشاركه في السجدة : ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٤١ : ٣٧) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ﴾ (١٣ : ١٥) وآيات السجود لآدم لا تعني انه المسجود ، وإنما سجدة الشكر لله لأجل آدم معلم الملائكة كما نسجد لما رزقنا الله وأنعم علينا وليس الرزق هو المسجود له ، انما هو الله والرزق مسجود لأجله ، والتفصيل إلى سورة البقرة.

وبما أن الراسخين في العلم يفسرون القرآن تدليلا على معانيه الخفية غير الظاهرة لنا أحيانا ، نجد هنا أحاديث متظافرة عنهم عليهم السلام ان المساجد هنا هي مواضع السجدة السبعة [1] وأنها منها ، ومنها الأئمة استفادة لطيفة

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٣٩ عن تفسير العياشي عن أبي جعفر الباقر (ع) انه سأله المعتصم عن السارق من اي موضع يجب ان يقطع؟ فقال : ان القطع يجب ان يكون من مفصل اصول الأصابع فيترك الكف ، فقال : وما الحجة في ذلك؟ قال : قول رسول الله (ص) : السجود على سبعة .

أنيقة من الآية إذ يتحملها مع سائر المساجد. ولكنها خفية بينها ، والآية إذن تحمل بيان أحكام شرعية إيجابية وسلبية.

١ ـ ﴿وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ﴾ غاية الخضوع قلبا وقالبا تختص بالله ، بكافة انحائها وأنواعها ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾ فلا تسجدوا لأحد من دون الله إذ لا أحد يملك ما لله من عز الألوهية والكبرياء ، فلا أحد مع الله يداينه أو يساويه فكيف يسجد له ، أتسوية له بالله فهي ضلال مبين : ﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٢٦ : ٩٨) فالتسوية بالله في أية مرحلة من مراحلها ، إنها ضلال مبين ، إذ ليس مع الله أحد في ألوهيته ذاتا وصفات وأفعالا حتى يسوى به أية تسوية ، وإن كانت سجدة ظاهرة يقصد بها الاحترام ، فاحترام رسل الله وأوليائه بالسجدة أو الركوع ، اخترام لكرامة الربوبية وضلال من جهتين : ترفيع العبد إلى مرتبة الرب ، وتنزيل الرب إلى منزلة العبد وهو ضلال مزدوج يعتذر عنه الضّلال : ﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ وقد تضافرت الأحاديث عن الرسول الأقدس وأهل بيته الكرام ان السجود خاص بالله لا يعدوه إلى سواه [(١)].

٢ ـ بيوت الله المعدة لعبادته ، إنها خاصة بالله ، فلا تدعوا أحدا إلا إياه ، وأنتم معه في بيته ، فطالما تذكرون غير الله في بيوتكم وسواها ، فاتركوه إلى ذكر الله في بيته ، اللهم إلا ذكرا لأولياء الله متذرعين به إلى ذكر الله ، فانه أيضا من ذكر الله ، فلا تجعلوا مساجد الله نوادي لما ليس لله فيه نصيب ، ولا متاجر وأسواقا ، إنما عبادة الله وما يرجع إليها وتقصد منه.

ـ اجزاء الوجه واليدين والركبتين والرجلين ، فإذا قطعت يده من الكرسوع او المرفق لم يدع له يد يسجد عليها ، وقال الله : ﴿وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ﴾ يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾ وما كان لله فلا يقطع.

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٣٩ عن اصول الكافي عن أبي الحسن (ع) في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾ قال : هم الأوصياء.

٣ ـ مواضع السجود ، ما أعدت للسجود لله ، فلا تصرف لمن سواه ، ولا تقطع ، وإنما يبقى منها ما يسجد بها لله ، فالسارق لا تقطع يده الا أصابعه لا كفه ، فانه من المساجد ، ولا رجله الا أصابعه فانه من المساجد ، وفيما إذا تقطع الأيدي والأرجل من خلاف ، فانما المصلحة الراجحة الجماعية والحفاظ على كرامة المسلمين تقتضيه ، وبالنسبة لمن لا يعرف السجود لله أم لا يعتقد ، جزاء المحاربة لله وعيث الفساد في الأرض ، جزاء وفاقا ، تقطع يده ورجله من خلاف لخلافه وتخلفه : ﴿إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ (٥ : ٣٢).

ـ احمد بن حنبل في مسنده ٤ : ٣٨١ ان معاذا لما قدم من اليمن سجد للنبي (ص) فقال : يا معاذ! ما هذا؟ قال : ان اليهود تسجد لعظمائها وعلمائها ورأيت النصارى تسجد لقسسها وبطارقتها قلت ما هذا؟ قالوا : تحية الأنبياء فقال (ص) : كذبوا على أنبيائهم ، وعن الثوري عن سماك بن هاني قال دخل الجاثليق على علي بن أبي طالب فأراد ان يسجد له فقال علي (ع) : اسجد لله ولا تسجد لي ، والجصاص ج ١ ص ٣٥ عن عائشة وجابر بن عبد الله وانس ان النبي (ص) قال : ما ينبغي لبشر ان يسجد لبشر ولو صلح لبشر ان يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها ، ورواه ابن ماجد واحمد بن حنبل في ٤ : ٣٨١ و ٦ : ٧٦ و ٥ : ٢٢٨ من مسنده وروى ما في معناه ابو داود في سننه نكاح ٤٠. وفي تفسير البرهان ج ١ ص ٨١ عن الامام الحسن العسكري قال : قال رسول الله (ص): لما عرف الله ملائكته فضل خيار امة محمد وشيعة علي وخلفائه واحتمالهم في جنب محبة ربهم ما لا تحتمله الملائكة أبان بني آدم الخيار المتقين بالفضل عليهم ثم قال فلذلك فاسجدوا لآدم لما كان مشتملا على أنوار هذه الحقائق الأفضلين ولم يكن سجودهم لآدم ، انما كان آدم قبلة لهم يسجدون نحوه لله عز وجل وكان بذلك معظما مبجلا ولا ينبغي لأحد ان يسجد لأحد من دون الله ، يخضع له خضوعه لله ، ويعظم به السجود كتعظيمه لله ، ولو أمرت أحدا ان يسجد هكذا لغير الله لأمرت ضعفاء شيعتنا وسائر المكلفين من شيعتنا ان يسجدوا لمن توسط في علوم وصي رسول الله (ص).

٤ ـ حملة الرسالات الالهية لله ، يدعون إلى الله وعبادته وسجوده بإذنه ووحيه دون جهل أو خطأ ام سهو أو نسيان فيما حملوه ، واشراك غيرهم بهم وتسويتهم بهم ليس إلا دعوة مع الله سواه ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾ فكما لا يسجد إلا له لا سواه ، كذلك لا يعبد إلا بتدليلهم لا سواهم ، إلا من يحمل عنهم ما هو منهم.

٥ ـ أزمنة السجود لله ، صحيح ان الزمان كله لله ، ولكنه تعالى حررنا في غير ازمنة الصلاة ان نفعل ما نشاء كما يشاء ، فاختص زمن الصلاة بنفسه ، فلا يجوز ان يحلها غيرها من اشغال.

وحقا ان الآية تتحمل هذه المعاني كلها ، والأحاديث المشار إليها أرشدتنا إليها وكما نفسر القرآن على ضوء هذه الإرشادات والدلالات اللطيفة الأنيقة العميقة من اهل بيت الرسالة المحمدية صلوات الله عليهم أجمعين.

ثم ان بيوت الله المعنية فيما تعنيه الآية ، انها معدة لعباد الله من الجن والانس والملائكة وسواهم سواء ، فما يروى ان الآية نزلت منعا للجن المؤمنين ان يشهدوا مع الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم الصلوات الخمس في مسجده [1] لا تأويل لها إلا ضربها عرض الحائط ، فإن الآية تختص المساجد بالله لا بمؤمني الإنس ، وتمنع عن أن يدعى مع الله احد ، لا ان يدعوه الجن مع الإنس في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم!

وقد يعني من كون المساجد «بيوت الله» لله ، عدم اختصاص الصلاة ببعضها وإنما المهم ان يسجد فيها لله دون سواه [2].

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٧٤ ـ اخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش قال قالت الجن يا رسول الله ائذن لنا فنشهد معك الصلوات في مسجدك فانزل الله ﴿وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾ يقول : صلوا لا تخالطوا الناس.

(٢) المصدر اخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال قالت الجن للنبي (ص) كيف لنا أن نأتي المسجد ونحن ناؤون عنك أو كيف نشهد الصلاة ونحن ناؤون عنك فنزلت : وان المساجد لله الآية.

وهنا نلمس التوحيد الخالص إذ يتوارى كل ظل لكل أحد ، ولكل قيمة ، ولكل اعتبار ، ويتفرد الجو ، عبادة ووسيلة لها ومكانا وزمانا وأعضاء للسجود : يتفرد ويتمحض لله الواحد القهار.

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾

اللّبد هي لبد الشّعر ، وهي طرائقه وقطعه التي يركب بعضها بعضا ، جمع لبدة من لبدة الأسد وهي الشعر المتراكب على مناكبه ، وذلك أبلغ ما شبهت به الجموع المتعاضلة ، والأحزاب المتآلفة الذين كادوا يكونون عليه لبدا ـ إذ قام عبد الله في عبادة الله ـ لبد الخير والشر.

﴿لَمَّا قامَ عَبْدُ اللهِ﴾ : الرسول الأقدس محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله وسلم ، وما أحلاه وصفا له بعبد الله وهو أول ما نشهد له من مكارمه ثم تتلوه الشهادة بالرسالة : «وأشهد أن محمدا عبده ورسوله» فانه لم يحمل الرسالة الإلهية إلا بعد أن استكمل شرف العبودية لله ، فقد كان قيامه للتعريف بأنه وسواه من الخلق عباد الله ، وأن عليهم أن يعبدوا الله.

﴿لَمَّا قامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ﴾ : قيام الرسالة منذ بزوغها ، والقيام بما تتطلبه ، والقيام بالصلاة التي هي خير موضوع منها ، قيامات هامات وكأنها طامات ، ومن شدة وطأتها وسموها وصمودها :

﴿كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ واللبدة الاولى هم المشركون ، جموعهم المتلبدة المتكاثرة المتظاهرة التي كانت تجتمع عليه متلبدة متألبة ، راكبة مترادفة ، متآلفة ضده كأنها لبد الأسد ، فمهما كانوا لبدا فعبد الله كان أسدا ضرغاما مغوارا لا تهمه لبده ، ولا تمنعه مهمته ، مهما حاولوا منعه! : ﴿فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ. عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ عِزِينَ﴾ (٧٠ : ٣٧) يتسمعون في دهش ولا يستجيبون ، بل ويوقعون به الأذى ويعصمه الله منهم[(١)].

(١) الدر المنثور ـ اخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن في .

ثم اللبدة الثانية هم المؤمنون الأوّلون الذين كادوا يراكبونه كاللبد تزاحما عليه ، وتدانيا اليه ، واحتذاء لمثاله ، واستماعا لمقاله [١].

ثم الثالثة هم رسل الجن إذ سمعوا القرآن حيث قام بقراءته عليهم ، فأخذوا ودهشوا وتجمعوا على عبد الله ورسوله ، بعضهم لصق بعض ، كلبد الأسد [٢].

فمهما كانت لبده فهو الأسد ، على الكافرين إذ لا ينهزم من حشودهم ، وللمؤمنين إذ يقوم لصالحهم ، أسد في الخير والشر ، لا يعرف الجبن والخوف طوال رسالته وهكذا يجب أن يكون المؤمنون به لكي يسودوا الأمم.

﴿قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً. قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَداً﴾.

ـ الآية قال : لما قام رسول الله (ص) يقول لا اله الا الله ويدعو الناس الى ربهم كادت العرب تلبد عليه جميعا ، واخرج عبد الرزاق وغيره عن قتادة في الآية : تلبدت الانس والجن على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله الا ان ينصره ويظهره على من ناواه.

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٧٥ اخرج عبد بن حميد والترمذي والحاكم وابن جرير وابن مردويه والضياء في المختار عن ابن عباس في الآية : لما أتى الجن على رسول الله (ص) وهو يصلي بأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده فعجبوا من طواعية أصحابه فقالوا لقومهم ﴿لَمَّا قامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾.

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٧٤ اخرج ابو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود قال : خرج علينا رسول الله (ص) قبل الهجرة الى نواحي مكة فخط لي خطا وقال : لا تحدثن شيئا حتى آتيك ثم لا يهولنك شيء تراه ، فتقدم شيئا ثم جلس فإذا رجال سود كأنهم رجال الزط وكانوا كما قال الله تعالى ﴿كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾. وعن ابن عباس قال : لما سمعوا النبي (ص) يتلوا القرآن كادوا يركبونه من الحرص لما سمعوه يتلو القرآن ودنوا منه ..

﴿قُلْ﴾ لمن كادوا يكونون عليك لبدا : إيمانا وكفرا : ﴿إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي﴾ : قيامي في الدعوة طوالها ، إنما هو لربي وإلى ربي ﴿وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً﴾ : إشراكا في دعوته أو ربوبيته ، أو في عبادته أن أرائي فيها ، وانما أدعو ربي بقلبي ومقالي وحالي وأفعالي ﴿وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً﴾ حتى نفسي ، فلست وكيلا عنه ولا كفيلا لكم ، فهو الذي بيده ناصية كلّ شيء ويملك الضر والرشد ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَداً﴾ ، لا ضرا في أرواحكم ولا في أجسادكم لا في دنياكم ولا في اخراكم ، ولا في دينكم ولا في أيّ من أحوالكم ، كذلك ﴿وَلا رَشَداً﴾ : لا لنفسي ولا لكم ، اللهم ﴿إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللهِ﴾ :

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً. إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللهِ وَرِسالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً. حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً﴾.

لا فحسب ﴿إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَداً﴾ بل ولا لنفسي أيضا ، ف ﴿لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ﴾ لو أراد بي ضرا ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ وإن كان لي مجير وملتحد فهو ليس إلا هو ، وما أنا إلا رسول لا أملك وحتى رسالتي ، فلا أملك فيما يملك إلا بلاغا من الله ورسالاته ، ملكا منه وبإذنه ، فلو شاء لذهب برسالتي وبلاغي وكما يميتني : ﴿وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلاً﴾ (١٧ : ٨٦).

هنا وهنالك نجد الرسول الأقدس صلّى الله عليه وآله وسلم يؤمر أن يتجرد ـ نافضا يديه ـ من كل ادعاء لشيء هو من خصائص الربوبية ، ناقضا جارفا كافة الخصائص المزعومة لأنبياء الله وسواهم من قبل ، حاصرا كيانه في ﴿بَلاغاً مِنَ اللهِ وَرِسالاتِهِ﴾ وبذلك يتجرد الجن ـ وأحرى ـ عما يتقول لهم من المقدرة على الخير والشر ، وتتفرد الذات المقدسة الإلهية بهذه التصرفات ، ويستقيم التصور الإيماني على هذا التجرد الصريح.

ثم يختم (ص) تصريحاته تلك بتصريحة رهيبة مروعة جادة

انه لا يملك حتى البلاغ الإلهي سلبا وإيجابا ، فكما لا يملك لكم ضرا ولا رشدا ، إلا بلاغا من الله ، كذلك : لن يجيره من الله أحدا ولن يجد من دونه ملتحدا ﴿إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللهِ﴾ ففيما يملك البلاغ ، لا يملك سلبه ولا إيجابه إلا من الله ، فانها ليست تطوعا يتقدم به صاحب الرسالة ، وإنما تكليف صارم جازم لا محيد عنه ولا مفر من أدائه ، فالله من ورائه.

فالبلاغ البالغ اللائق من الله ، قلبا وقالبا ، عقيدة وعملا ، تضحية وفداء : هذا البلاغ يجيره من الله ، وهو ملتحده من الله ، وهو الذي يملكه من الله بما ملكه إياه ، فلو عصاه في بلاغ الرسالة لعذب في المعذبين :

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ عصى الله في محكم كتابه ، وعصى رسوله في سنته الجامعة ، فعاش حياة العصيان المزدوج ﴿فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً﴾.

فمجير الرسول وملتحده هو بلاغه من الله ، وملتحد غيره ومجيرهم طاعة الله ورسوله ، وقد تلمح الآيات أن جماعة من لبد الكفر والشر طلبوا منه ترك البلاغ أو تخفيف وطأته فيضمنوا له الإجارة من الله وملتحده ، فيبتدر بجوابه الحاسم : لا. وحقا لا ، ﴿إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللهِ وَرِسالاتِهِ﴾ :

﴿بَلاغاً مِنَ اللهِ﴾ : بلاغ التعريف بتوحيده وربوبيته لمن جهله أو تجاهل عنه أو عانده . و «رسالاته» لإخراج الناس من الظلمات إلى النور وهديهم إلى صراط العزيز الحميد ، دون خشية ولا مسايرة ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ وَكَفى بِاللهِ حَسِيباً﴾.

﴿حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً﴾ : تنديد شديد وتهديد عتيد لمن يبلغه هذا الأمر ثم يعصي ، فإذا يركن العاصون إلى عدد وعدد ، ويستصغرون قوة صاحب الرسالة بجنب قوتهم ، فسيعلمون غدا من أضعف ناصرا وأقل عددا ، وأي الفريقين أحق بالأمن ، ولكن متى؟ إذا رأوا ما يوعدون ، وذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب مهين؟

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً﴾.

تلمح الآية أنهم سألوا الرسول متعنتين مستهزئين ، عن زمن العذاب ، كأنه يعلم من غيب الله شيئا ، فيؤمر أن يتجرد نافضا يديه من غيبه ايضا ، كما تجرد عن كل اختصاصة من اختصاصات الربوبية ، : قل إن أدري أقريب العذاب على الأبواب ، أم يجعل له ربي أمدا في الأولى ، أم الأمد العام لكل نفس لدى موته ، ـ فمن مات فقد قامت قيامته ـ أم أمد القيامة ، ولا علم لي لا بقربه ولا أمد من آماده الثلاثة ، فانه من الغيب :

﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً. لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾.

﴿عالِمُ الْغَيْبِ﴾ من اختصاصات الألوهية علم الغيب ، لا الغيب الذي يظهر بالتعلم أو التفكير أو الارتياضات النفسانية ، فإن بابه مفتوح لكل من دقه حقّه ، وإنما هو ما لا ينال بأية وسيلة غير إلهية ، وهذا الغيب منه مكفوف عمن سوى الله ، وحتى ملائكة الوحي ورجالاته ، فهو الغيب المطلق الذي لا يظهر ، ولا يظهر الله عليه أحدا ، ومنه مبذول لمن ارتضى من رسول ، يبذله لهم بالوحي دون أن يبذّله لغير المرتضين ﴿فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ﴾[1].

والإظهار على الغيب هو التغليب عليه ، إما تعليما كسائر الوحي في الكتب المنزلة على رجالات الوحي ، وحي الأحكام ووحي الوقائع : الغابرة والحاضرة

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٤٢ عن الباقر (ع) ان لله عز وجل علمين علم مبذول وعلم مكفوف فاما المبذول فانه ليس من شيء تعلمه الملائكة والرسل الا نحن نعلمه واما المكفوف فهو الذي عند الله عز وجل في ام الكتاب إذا خرج نفذ.

والمستقبلة ، كلّ حسب منزلته الرسالية فان الرسل درجات ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾ فمراحل الوحي هذه من إظهار الغيب علميا.

وقد يكون تغليبا على الغيب عمليا ، علمه الرسول أم لم يعلمه ، كسائر المعجزات ، فمنها ما يظهر الله عليه رسوله علما بما فيه وعمل الواقع كمعجزة القرآن ، تجري على لسانه ، ويعيها قلبه ، ويطبقها بأركانه ، ومنها ما لا ينال الرسول إلا عمله ، فلا يملك علمه وحقيقته ، كإحياء الموتى وقلب العصا حية تسعى ، فإنهما من الغيب الخاص بالله ، يظهر عليه البعض من رسله عملا للتدليل على رسالتهم الإلهية ، فمعجزاتهم هي أفعال الله تجري بهم حجة لهم ، فمنهم من يعلمها كما يفعلها كإبراهيم ﴿.. رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى ..﴾ إذ طلب من ربه أن يريه ويظهره على حقيقة إحياء الموتى ، ومنهم من لا يعلمها كما نفصله في آيات المعجزات ومنها ﴿وَيَقُولُونَ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (١٠ : ٢٠) تعني أن الآيات المعجزة هي من غيب الله ، لا تعدوه إلى سواه ، والرسل لا يملكون إلا إظهارها بإذن الله ، دون علمها إلا من أراه الله كإحياء الموتى لإبراهيم وكالقرآن لمحمد (ص).

فعلم الغيب مبدئيا خاص بالله ، والآيات التي تحصره بالله تعني العلم الذاتي بالغيب فلا تنافي علم من ارتضى من رسول ، فانه أيضا من علمه لا منهم كبشر ، وآية الإظهار هذه تغنينا من القيل والقال ، وتريحنا عن تفتيش الأقوال ونقدها ، فالتي تختص علم الغيب بالله إطلاقا ، هي بين ما تعني العلم الذاتي ﴿وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ﴾ (٦ : ٥٩) وقد يعلّم البعض منها من ارتضى من رسول ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ﴾ (٣ : ١٧٩).

وبين ما تعني مطلق العلم بالغيب ذاتيا وعرضيا و ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ ... يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ. قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي

نَفْعاً وَلا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧ : ١٨٨) ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣١ : ٣٤).

فالغيب الواجب إظهاره للرسل هو المعجزات والشريعة ، وقد يخبرهم بمغيبات أخرى تؤيدهم في رسالاتهم ، وأما التي لا تمت بصلة للرسالة الإلهية ، وهي من شؤون الإلهية ، فلا يجب اظهار الرسل عليها ، وهي خاصة بالله تعالى ، وهي المعنية بالآيات التي تختصها بالله : ﴿.. وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ... إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ﴾ (٦ : ٥٠) والوحي كما نعلم من علم الغيب الواجب إظهاره للرسل ، لأنه كيان الرسالة.

من هنا وهناك نستوحى ان ليس الغيب الإلهي مبذولا للرسل دون حدّ ، وإنما هو الغيب الكافل لحجة الرسالة وبلاغها ، وكما تفيده آية الإظهار : ﴿فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ ..﴾ فهو يظهر الغيب الداخل في شؤون الرسالة ، لا الخاص بشأن الألوهية ، وكما كان غير المرسلين محرومين من غيب الوحي كذلك المرسلون محرومون من غيب الربوبية ، وكما هم وسط بين الخلق والخالق في الرسالة ، كذلك هم وسط في علم الغيب.

فالرسل الذين يرتضيهم الله لتبليغ دعوته ، يطلعهم على جانب من غيبه ، ما يتعلق بموضوع رسالتهم ، دون المتعلق بشأن الربوبية ، إنما ما هو حجة بالغة لرسالاتهم ، وما هو المقصود منها من شرائعهم ، وآيات الغيب ترمي الى هذا الاختصاص المبدئي بالله ، والتعميم العرضي للرسل في حدود رسالاتهم ، ما يعاونهم على تبليغ دعوته ، يكشفه لهم منذ الرسالة وطوال الدعوة ، وهو مع ذلك يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا :

﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ فان الله يسلك : ينفذ ـ من بين يديه : يدي الغيب والمرسل إليه بالغيب ، ومن خلفه ، ينفذ من هنا وهناك : رصدا ليعلم : هنا النص يوحي كيف يتنزل الغيب بالوحي على الرسل المرضيين ، من البداية وحتى النهاية وهي إبلاغ الرسل غيب الوحي للمرسل إليهم :

فبما أن الرسل بشر وأن الشيطان يلقي في امنياتهم ، فهم بحاجة الى حفظ وعصمة إلهية في تلقي الوحي وإلقائه وتنفيذه من عدة جهات ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ﴾ (٢٢ : ٥٢) كما وان ﴿لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ (١٣ : ١١).

فالله تعالى ينفذ الوحي الغيب إلى من ارتضى من رسول ، وينفذ من بين يديه ـ قبل وصوله الى أن يوصل ـ رصدا : رقباء يحفظونه من خلط ودس الشياطين ، وليبلغ الى الرسل سليما ، وينفذ من خلفه : بعد البلوغ والبلاغ أيضا ، رصدا ليسدوا عن الرسول إلقاءات الشيطان ، وليراقبوه في إبلاغ الرسالة وتنفيذها : ازدواجية العصمة للرسل المرضيين من جهتين : الرسل الرصد من بين يدي الرسول ومن خلفه ، وروح العصمة التي ترصد الرسل في دواخل ذواتهم ، ارصادا من الداخل والخارج لكي يصل الوحي الغيب الى الهدف الأخير : اقامة المرسل إليهم على الهدى ، دون تدخل للشيطان ، ودون تخبط وخلط وشبهة في هذه السبيل ، وبذلك ليس للشيطان سبيل على الرسل على طول الخط في تلقي الوحي والقائه وتنفيذه ، فتمني الرسل ليس الا تنفيذ الرسالة الإلهية ، وإلقاء الشيطان في امنية الرسل ـ كما تقول الآية ـ ليس إلا في واقع التنفيذ ، ان الشيطان يخلط الرسالة على المرسل إليهم ، والله ينسخ هذه الإلقاءات ويحكم آياته واقعا كما أحكمها في وحيها الى حملة الرسالات : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ فالمرسلون المرتضون

ليسوا من الغاوين حتى يلقي الشيطان في قلوبهم وأفكارهم ووحيهم ، وهو اشرّ السلطان والغواية الكبرى! وهم من عباد الله المخلصين ، فيلغى شمول آية الإلقاء عن ساحة المرسلين ، الى المرسل إليهم ، والله ينسخ عنهم أيضا إلقاءات الشيطان ثم يحكم آياته.

كل ذلك علامة لمن لا يعلم : أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ :

ليعلم الله ، من العلم بمعنى العلامة ، لا العلم ، فانه يعلم السر وأخفى! : ﴿وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ فهو إذ يحيط بما لدي الرصد والرسل ، وإذ يحصي كل شيء عددا ، إذا كيف تكون الغاية من سلك الرصد أن يعلم الله سبحانه؟ أعن جهل وهو المحيط المحصي؟ كلا! انه علم وليس علما ، انه تعالى يجعل الرصد على طول الخط في بلاغ وتنفيذ الوحي ، ويجعلهم علامة لهم ولملك الوحي ، وللتبين ﴿أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ﴾.

وكما ليس ﴿لِيَعْلَمَ﴾ من العلم ، كذلك لا يرجع ضميره الى الرصد فإنهم جمع وهو مفرد ، ولا الى محمد صلّى الله عليه وآله وسلم إذ لم يسبق له ذكر ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ﴾ وهو جمع يعم الرسل أجمع ، ولأن وحدة السياق تحكم أن صاحب الضمير في الأحوال الثلاث «يعلم ـ أحاط ـ أحصى» واحد ، وهو الله الذي أحاط بما لدى الرسل وأحصى كل شيء عددا.

فهو الذي يسلك بين يدي الغيب والرسول ومن خلفه ، رصدا مراقبين ، ليجعل هذه الرقابة الشديدة على غيب الوحي علامة : ان قد أبلغوا رسالات ربهم : حال أنه أحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ، فليس هو بحاجة إلى علامة البلاغ ، وإنما رسله الملائكة والبشر وكذلك المرسل إليهم.

﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ﴾ : يعلم غاية لسلك الرصد ، و ﴿أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ﴾ يلمح لحدود الغيب الإلهي الذي يظهر عليه رسله ، انه ليس إلا للبلاغ ، بلاغ الرسالة بغيب المعجزات ، وبلاغ الرسالات بغيب

التشريعات ، دون أن يصبح علمهم بغيب الله أو غلبهم به عمليا ، يصبح من الكمالات الذاتية والحظوظ العقلية والعلمية ، فلا تعني الآية ظهور الرسل على كل غيب ، ولا الغيوب التي لا تمت بصلة لرسالتهم ورسالاتهم ، وإنما التي تهمهم كرسل مبلغين عن الله ، لا كمرتاضين يخبرون عن الغيوب العادية لحظوظ نفسانية وغايات تجارية وسباقات في ميادين المفاخرات.

فلئن سئلنا ـ إذا ـ لو كان الظهور على غيب الله خاصا بمن ارتضى من رسول فكيف يعلمه المرتاضون غير المرسلين ، مرضيين وغير مرضيين؟ وكيف يعلمه الأئمة المعصومون وهم ليسوا بمرسلين؟

والجواب كما لمحنا اليه مسبقا ، ان المعني من غيب الله ما لا يحصل بأي سبب من تعلم وارتياض إلا بالوحي ، وليس غيب المرتاضين من غيب الوحي ، فهو يحصل بصناعة الارتياض للمؤمن والكافر سواء.

واما الأئمة المعصومون فليس غيبهم بالوحي وإنما بما أودعهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من غيب الوحي [1]. وهم أبواب علمه واستمرار لكيانه الرسالي.

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٤٢ عن الامام الصادق (ع) قال : ان لله عز وجل علمين : علما عنده لم يطلع عليه أحدا من خلقه ، وعلما نبذه الى ملائكته ورسله ، فما نبذه الى ملائكته ورسله فقد انتهى إلينا.

أقول : وهذا الحديث متواتر معنويا عنهم عليهم السلام. راجع المصدر.

سورة المزمل ـ مكية ـ وآياتها عشرون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ
عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً
وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (٨)
رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (٩) وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً
جَمِيلاً (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (١١) إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وَجَحِيماً
(١٢) وَطَعاماً ذا غُصَّةٍ وَعَذاباً أَلِيماً (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً
مَهِيلاً (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصى
فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلاً (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً
(١٧) السَّماءُ

مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (١٨) **إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً** (١٩) **إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾(٢٠)

* * *

﴿**يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً**﴾ يؤمر نبي الله (ص) ـ بعد أمره بقراءة الوحي: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**﴾ وبعد حمله الرسالة الكبرى ـ يؤمر هنا بالقيام ليلا وبالسبح الطويل نهارا ، ويؤمر في المدثر بقيام الإنذار وتكبير الرب ، وعلّ القيام الثاني هو

السبح الطويل نهارا ، والقيام الأول لتهيؤ الثاني : ﴿إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً ، إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ فليعش الرسول الأقدس حياته قياما دون فتور ، وسبحا في بحر المجتمع المتلاطم ، لينجّي الغرقى فانه سفينة النجاة.

يوحي النص ﴿الْمُزَّمِّلُ﴾ بأنه كان متزملا حين الأمر ، ولماذا؟ وفي رمضاء الحجاز! لا بد وأنه من وطأة وفجأة ، أوطأة الوحي الثقيل الذي بزغ له قبل قليل؟ كما قيل [1] أم الحملة العنيفة السافرة في وجهه من صناديد قريش؟ [2] كما توحي له آيات من السورة : ﴿وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ ... ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ فتزمل من رعشة الوطئة ، فأمر بالقيامين في المزمل والمدثر ، قياما لتنفيذ الرسالة ومجابهة عراقيلها ، دون أن يتزمل ويتدثر.

﴿قُمِ﴾ إنه لا يناسبك التزمل والتدثر ، فليكن دثارك القيام وزميلك الإقدام ليلك ونهارك ، ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ قدر الضرورة الذي يساعدك في قيامك ، فليكن مبدؤك القيام حتى في أوقات المنام رغم أن الناس نيام.

أنت تتلفف بثوب لتنام دفعا لهمّ الإيذاء ، وغم الاستهزاء ، وتخفيفا من وقعة

---

(١) أدركته رجفة الوحي حتى جثى وهوى الى الأرض وانطلق الى اهله يرجف يقول «زملوني. دثروني» ففعلوا وظل يرتجف مما به من الروع وإذا جبرائيل يناديه «يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ».

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٧٦ ـ اخرج البزار والطبراني في الأوسط وابو نعيم في الدلائل عن جابر قال اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا : سموا هذا الرجل اسما تصدر الناس عنه فقالوا : كاهن ـ قالوا ليس بكاهن ، قالوا : مجنون ـ قالوا : ليس بمجنون ـ قالوا : ساحر ـ قالوا : ليس بساحر ـ قالوا : يفرق بين الحبيب وحبيبه فتفرق المشركون على ذلك فبلغ ذلك النبي (ص) فتزمل في ثيابه وتدثر فيها فأتاه جبرائيل فقال :«يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ».

الوحي؟ لا! بل عليك القيام ، والاستعانة بالصبر والصلاة ومكافحة الكروب العظام ، والنوائب الجسام.

﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ قم للأمر العظيم والقول الثقيل الذي سيلقى عليك ، والعبئ المهيأ لك ، قم فقد مضى وقت النوم ، قم فأنت لست لتعيش لنفسك ، ولقد عرف الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم هذا الأمر مسبقا من ملامح الوحي وقدّره ، فقال لخديجة رضي الله عنها ـ وهي تدعوه أن يطمئن وينام ـ : «مضى عهد النوم يا خديجة»!.

أجل ـ انه مضى وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الشاق والسبح الطويل في بحر المجتمع المتلاطم.

﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً. نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ :

يخيّر نبي الله هنا في قيام الليل ونومه بين مقادير أربعة : ١ ـ قيام الليل إلا قليلا : ثلثيه فما فوق ، فأكثر القليل منه ثلثه ثم أقل وأقل [1] ٢ ـ نصفه ، وهو ليس قليلا من الليل ، وإنما نصفه عدلا بين قيامه ونومه إذا احتاج اليه ، ٣ ـ أقل من النصف ، أن ينقص من نصف القيام قليلا ٤ ـ أكثر من النصف أن يزيد على نصف القيام ، فأكثر الواجب في قيامه من ثلثي الليل وما فوقها ، وأقله أقل من النصف قليلا ، وبينهما متوسطات ومنها نصفه.

نرى التركيز هنا وهناك على قيام الليل ـ أيا كان ـ دون تصريح بنومه إلا ايحاء الضمائر : ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ ابتداء بقيام ثلثي الليل ، ثم «نصفه» أو قم نصفه «أو انقص منه قليلا» : انقص من نصف القيام قليلا «أو زد عليه» :

---

(١) فما يروى ان القليل المستثنى من الليل هو نصفه خطأ او جهل من الرواة لا المروي عنه كما رواه في المجمع عن الصادق (ع) قال : القليل النصف.

زد على نصف القيام ، فنصيب النقص ليس إلا قليلا ، ونصيب الزيادة لا حد له إلا قدر المستطاع.

فطالما الليل سكن ونوم للناس لاستراحة البدن ، ولكنه قيام لرسول الله إلى الناس ليشد وطأه ويقيم قيله ، تأزيرا لقوة القلب والروح ، وتقويما لنطق اللسان.

فعلى رسول الله قيام الليل قدر المستطاع ، كله أحيانا وأكثره أخرى ونصفه أحيانا وينقص منه قليلا أخرى ، ولكنما الزيادة على النصف قدر المستطاع هو المرغوب الأصل ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾.

فأكثر الواجب إذا قيامه ثلثي الليل ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ كما ويؤيده ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ فليكن الواجب مخيرا بين ثلثيه ونصفه وثلثه فأقله ثلث الليل ﴿أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً﴾ فنقص القليل من النصف ثلث النصف ، فيبقى ثلث الليل [١].

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ ولماذا ثلثا الليل ، ولماذا الزيادة على النصف والنصف أيضا ، ألصلاة الليل ولا تشغل إلا سويعات؟ كلا. وإنما الزيادة لترتيل القرآن ، تخلقا بأخلاق الله في تنزيله : ﴿وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً﴾ (١٧ : ١٠٦) وفي ترتيله : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً﴾ (٢٥ : ٣٢).

وترتيل القرآن هو إرساله بسهولة واستقامة ، سهل التعبير ، مستقيم المعنى وكما يروى عن النبي (ص) إذا قرأت القرآن فرتله ترتيلا وبينه تبيينا ، لا تنثره نثر الدقل ولا تهذه هذ الشعر ، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ، ولا يكونن هم أحدكم آخر السورة [٢].

---

(١) نفرض ان الليل ١٢ ساعة فنصفه ٦ ساعات فإذا نقص منها ساعتان يبقى أربع ساعات وهي نصف الليل المفروض.

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٧٧ أخرجه الديلمي عن ابن عباس مرفوعا عنه (ص). وأخرجه العسكري في المواعظ عن علي (ع) عنه (ص).

أقول : وهذا من مقربات الفهم ومجذبات الإتباع ، فقد فرق الله القرآن طوال البعثة دون أن ينزله جملة واحدة ، ليثبت به فؤاد الرسول وليقرأه على الناس على مكث ، ورتله عليه بتسهيل التعبير والمعنى ليرتله هو أيضا ترتيلا ، وهو يعم اللفظ والمعنى تعبيرا وأداء وسبكا وكيفية [١] ، كل ذلك لسهولة الإلقاء والتلقي متحللا عن كافة الصعوبات هنا وهناك ، وهذا هو معنى الإعجاز في فصاحة التعبير وبلاغة المعنى ، فليس التشابه في بعض الآيات من قصور الدلالة ، وإنما من قصور المستدل ونبوغ المعنى ، وعلى حد تعبير الامام الرضا عليه السلام المتشابه ما اشتبه علمه على جاهله.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ فما هذا القول الثقيل الذي سيلقى عليه ، ولكي يتلقاه عليه أن يقوم لياليه مصليا مرتلا للقرآن؟.

هل هو القرآن ولو بعضا منه؟ وقد نزل عليه بعضه وأمر بترتيله! أم هو البعض الباقي : أكثره؟ فما هو الفرق بين قليله وكثيره ، وكله ثقيل بأي معنى قيل! أم هو القرآن المحكم النازل عليه ليلة القدر ، بين هذه السورة وبينها أقل من شهرين؟ علّه هو ، إضافة إلى باقي القرآن المفصل ، ففي القرآن المحكم النازل عليه دفعة واحدة ، الملقى عليه ليلة القدر ، ان فيه ثقلا ليس في مفصله النازل عليه نجوما طوال البعثة ، ثم يتلوه ثقل الباقي من مفصله وهو أكثره ، وفي وحدة القول هنا «قولا» وانه يلقى «سنلقي» شاهد لفظي على أنه القرآن المحكم ، إضافة إلى القرينة المعنوية المسبقة.

---

(١). وعن الامام الصادق (ع) ان الترتيل هو ان تتمكث فيه وتحسن به صوتك ، وفي الدر المنثور ٦ : ٢٧٧ عن النبي (ص) قال : يقال لصاحب القرآن يوم القيامة اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلتك عند آخر آية تقرؤها وفيه سئل (ص) اي الناس احسن قراءة؟ قال : الذي إذا سمعته يقرأ رأيت انه يخشى الله.

ان القرآن قول ثقيل لعظم قدره ، ورجاحة فضله ، وخلوده ، دون أن يمسه نسخ أو تحريف ، وقد يثقل الأمة المتمسكة بحبله ، المنفذة لأحكامه ، ولذلك سماه الرسول (ص) أكبر الثقلين وأعظمهما وأطولهما وأتمهما فيما تواتر عنه ، وسمى عترته الثقل الأصغر.

ولقد كان القرآن ثقيلا لدى الله في أم الكتاب ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (٤٣ : ٤) فعلوّه هناك وحكمته : ثقله ، ثم نزل ليلة القدر دفعة ، ثم طوال البعثة نجوما ، نزل ثقيلا على الرسول (ص) حيث يقول : «فما من مرة يوحى إليّ إلا ظننت أن نفسي تقبض» [١] «فانه كان يتغير حاله عند نزوله ويعرق ، وإذا كان راكبا تبرك راحلته ولا تستطيع المشي» [٢] وهذا ثقله في القرآن المفصل ، ثم القرآن المحكم المجمل النازل ليلة القدر يزداده ثقلين ١ ـ نزوله دفعة دون تفاصيل ٢ ـ إلقاءه عليه دون وساطة ملك الوحي ، إذ لم يكن بينه وبين الله أحد ، إذا فالقول الثقيل الذي سيلقى عليه هو القرآن المحكم ، إضافة إلى باقي المفصل النازل عليه مفصلا : ثقلا على ثقل.

هذا ثقله في وحيه وقبله ، ثم هو ثقيل في ميزان الحق ـ فان موازينه ثقيلة لا تخف أبدا ـ ثقيل في تطبيقه ، ثقيل على الاخفّاء الناكرين له ، فلا بد من ثقله في قلبه المنير لحدّ يفرغ قلبه عما سواه من مقال كما فرغ عمن سوى الله ، ولقد أثر في قلبه هكذا ولحدّ كان يثقل على قالبه ، فصاحب هذا القلب بحاجة في تلقي هذا الفيض الثقيل إلى مراس في تزكية قلبه بقيام لياليه بترتيله وذكر الله.

هذا هو القول الثقيل ، فإن القرآن ليس في معناه ثقيلا ولا في تفهمه وتذكره : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ فقوله ـ إذا ـ ثقيل من حيث المقول ، وكيفية إلقائه ، وعرقلات تنفيذه.

---

(١). الدر المنثور (٦ : ٢٧٨) عن عائشة عنه (ص).

(٢). نور الثقلين (٥ : ٤٤٧) عن عبد الله بن عمر.

إنه لا بد للرسول إلى الناس كافة ـ وكثير منهم من النسناس ـ أن يحمل هذا القول الثقيل ، لأن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى ثقيل ، والاستقامة على هذه الرسالة الشاملة الأخيرة وراء الهواتف والجواذب والمعوقات والعراقيل ، إنها لثقيل ثقيل ، فلا بد له في ميادين الكفاح من حمل هذا القول الثقيل ، فليتزود من قيام الليل لتلقي هذا الثقيل ، ولكي يسبح في نهاره الطويل سبحا طويلا.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ ثقيل المصدر والصدور ، ثقيل المحتد والدوام ، ثقيل المنزل والنزول ، ثقيل التنفيذ مستحيل الأفول ، على سلاسة تعبيره ، ونفاذ أمره وعبيره.

﴿إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾.

فرض عليك ـ كرسول إلى الناس كافة ـ قيام الليل لدوافع ومنافع عدة : ١ ـ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ فلا بد له من التهيؤ ٢ ـ ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ لا يبقى لك معه مجال القيام بالصلاة وترتيل القرآن ٣ ـ ﴿إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ : فناشئة الليل هي العبادة التي تنشأ بعد العشاء ، نشوء النور في الظلام ، فالعبادة التي هي وليدة الليل وناشئته ، تفضل على عبادة النهار من حيث الوطء والقيل ، ولقد كان قيام الرسول (ص) بعد العشاء بسويعات منامه القليل ، وهو إذ أمر بقيام الليل كان أمرا بقيامه : عن النوم ، وبالعبادة ، تهجدا في أثنائه ، وترتيلا للقرآن في آنائه.

﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً﴾ : مواطاة : يواطئ فيها السمع القلب ، واللسان العمل ، لقلة الشواغل العارضة ، واللوافت الصارفة ، ولأن البال فيه أجمع ، والقلب أفرغ ، فالقراءة فيه أقوم ، والصلاة اسلم.

هي أشد مواطأة هكذا ، ولأنها أشد وطأة : أوعث مقاما وأصعب مراما ، فان مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش ، بعد كدّ النهار وسبحه الطويل ، لها وطأتها وشدتها التي لا يطيقها إلا المخلصون ، فناشئة الليل ووطأته أشد.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ لأن قيله ثقيل إلا على الخاشعين ، وأنه يصدر من لباب القلب وخالق القلب أعلم بمداخله وأوتاره ، وما يتسرب اليه ويوقع عليه ، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحا واستعدادا ، فللصلاة فيها خشوعا ، وللمناجاة شفافيتها ولترتيل القرآن نورانيتها : إذا فوطأتها أشد ، وقيلها أقوم ، فإعدادها لسبح النهار ـ الطويل ـ أتم.

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ ولا يناسب السبح إلا في غمرات المياه المضطربة الواسعة الفسيحة ، فان لك اضطرابا في غمرات المجتمع ، وتقلبا في جهاته ، ومتصرفا ومتسعا ، ومذهبا منفسحا ، تقضي فيه أوطارك ، وتبلغ مآربك ، وتنجي الغرقى من ورطات الغمرات العميقة ، وتحارب أمواجه الضاربة في الأعماق ، المضطربة ، فهذا السبح الطويل في نهارك ، بحاجة إلى تسبيح طويل في ليلك ، تسبيح يعدك للسبح ، ولكي تنجو من ورطاته ، وتنجي الناس جميعا من غمراته ، فانك سفينة النجاة!.

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ : فقيامه (ص) يشمل ناشئة الليل ، بصلاته وترتيل القرآن ، وذكر اسم الرب ، والتبتل اليه تبتيلا ، وليأخذها زادا في سبحه الطويل.

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ : ولأنك تحمل في رسالتك بلاغ الربوبية والتربية الإلهية ، فعليك أن تذكر اسم ربك بقلبك ، فهو مصدر الذكر ومورده أولا وبقالبك : بلسانك وجوارحك وفي كافة تصرفاتك ، ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر ، وأكمله الصلاة فانها كلها ذكر الله وتحميده وتمجيده وتعظيمه بالأقوال والأفعال والإشارات.

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ .. هكذا ذكر شامل كامل يبتّلك إلى ربك ، فالانقطاع إلى الله على قدر الواقع من ذكر الله ، والتبتل إلى الرب هو الانقطاع الكلي عما سواه والاتجاه التام اليه ، والانفلات من كل شاغل وخاطر ، لكنما المرجو من تبتلك أن يحمل معه التبتيل ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ لا «تبتلا» تبتلا لك يحمل

تبتيلا لمن أرسلت إليهم ، فكما كان قيامك بالليل تهيؤا لتلقي القول الثقيل ، ولتسبح نهارك الطويل ، كذلك ليكن تبتلك للتبتيل.

فليس الإتيان بالتبتيل هنا لمجرد رعاية الوزن والتجميل «طويلا. تبتيلا» فالقرآن كتاب معنى قبل أن يحمل الوزن في التعبير ، وقد يناسب وزن المعنى وزن التعبير كما هنا ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ تبتلا ينحو في طياته منحى التبتيل لتنقطع إلى الله ، لك كمحمد ، وللمرسل إليهم كرسول ، فكما على الرسول أن يتبنى شخصه ليصلح لحمل الرسالة ضمن صناعة نفسه كعبد شكور ، فعليه ـ كرسول ـ أن يتبنّى المجتمع الذي أرسل إليهم.

ثم هناك نكتة أخرى هي أدق وأرقى : أن المنقطع إلى الله مشغول عما سواه والمنقطع إلى ما سوى الله مشغول عن الله ، فالجمع بين التبتل ـ وهو الاشتغال التام بالله ـ وبين التبتيل ، وهو الاشتغال بغير الله ليقطعهم عما سوى الله : ان هذا الجمع لصعب مستصعب ، لكنما الرسول يؤمر في تبتله بالتبتيل ، ففي حين انه مشتغل بالله عما سواه ، إنه يشتغل بما سواه لتوجيههم إلى الله ، وهذا هو مقام الجمع في الوحدة والوحدة في الجمع ، يسبح نهاره طويلا في الدعوة إلى الله ، ويلاقي الصعوبات والحرمانات في الله ، وهو متبتل إلى الله ومبتّل سواه عما سوى الله ، فذكره ذكر واحد ، وعمله واحد ، طالما يختلف في صور الصلاة وترتيل القرآن وذكر الله ، وفي الجهاد والدعوة إلى الله ، فإنه ينحو في هذا السبح الطويل منحى الله ، فتبتّله تبتيل ، وتبتيله تبتّل!.

ولطيفة ثالثة : هي أن التبتل هو تقبل للبتل ، والتبتيل هو فعله ، فقد يعنى بالأول قبوله العصمة الإلهية في انقطاعه إلى الله ، وبالثاني محاولته لانقطاعه ومن سواه إلى الله ، والنتيجة أن انقطاعه الخاص إلى الله ليس من فعله هو فحسب ، وليس تسييرا إلهيا فحسب ، وإنما هو أمر بين أمرين ، جذبة إلهية متممة لمحاولة الانجذاب والانقطاع إلى الله ، وكما العصمة في كافة مراحلها ليست إلهية خالصة ولا بشرية خالصة ، إنما هي سعي حسب المستطاع من المعصوم في البداية ، ثم جذبة الهية ، ثم سعي ثان يوافق ويساير تلك العصمة الخاصة الإلهية.

فحاصل المعنى من الآية أنه (ص) أمر بتبتل التبتيل : ينقطع إلى الله على ضوء توفيق الله ، وسعيه هو كما يناسب تبتل العصمة ، وفي نفس الوقت يبتّل غيره الى الله ، ثم لا يشغله الاشتغال بغير الله في رسالته ، عن الله ، معان ثلاثة هامة تعنى من كلمات ثلاث ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾.

وليكن كذلك ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ : انه ذكره تعالي في نفسه وأعماله وعلاقاته الشخصية مع الله ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ وذكره في نفس الوقت لمن أرسل إليهم ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ (٤ : ٦٣) دون تفاوت بين الذكرين ، فإنهما ذكر واحد لله ، كما ان تبتله واحد لله.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾.

لئن سئلت : لماذا التبتل اليه وحده لا سواه؟ فالجواب أنه «ربك» لا فقط بل و ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ : العالم كله بما أنه لا يخلو من شارق وغارب أيا كان ، فالكون كله بين مشرق ومغرب ، لا يخلو عنها أي كائن ، ولأنه رب الكائنات أجمع. ف «لا إله إلا هو» ولربوبيته المطلقة وألوهيته الوحيدة ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ فالتوكل عليه هو التوكل على القوة الوحيدة في الكون كله ، وهو وحده الثمرة المباشرة للاعتراف بوحدانيته ، والرسول المنادى بالقيام وبالسبح الطويل نهار الدعوة ، إنه في حاجة ماسة لعبثه الثقيل في طريقه الشاق الطويل ، إلى تبتل إلى ربه وتوكل عليه ، ولكي يكافح كافة العراقيل في سبيله.

بديهي أن الإنسان وكل كائن أيا كان ، لا يستطيع أن يحيى حياة سعيدة ويحيي غيره بها ، بطاقاته الشخصية ، فلا بد له من وكلاء واعون ، وبما أن من سوى الله كيانهم الفقر إلى الله ، لا يملكون إلا ما ملّكهم الله ، فلا غنى في توكيلهم مهما كانوا أقوياء ، فهم بين قاصر ومقصر ، فكيف يتوكل عليهم ، وإنما الله وحده هو الذي يحق أن يتخذ وكيلا ، ولا يتخذ هو وكيلا ، وبينما نحن موكّلون وموكّلون ، لم يكن الله إلا وكيلا ، فيما اتخذناه وكيلا وما لم نتخذه

وكيلا ، فالوكالة هي الاعتماد ـ فيما تقصر عنه القدرة والعلم والحياة ـ على من له هذه القدرات أكثر من الموكل ، أو ما يقصر عنه الوقت لكثرة الأشغال ، والخلق كلهم قاصرون في هذه وتلك : مهما كان البعض أقوى من البعض ، ولذلك يتوكل الضعيف على القوي ، ولكنه لا غنى في هذه الوكالة القاصرة ، وإنما الوكالة الإلهية هي الكافية الكافلة لما نبغيه ، بعد ما كلّت مساعينا عن الوصول إلى المأمول ، ما لم يكن خلاف الحق والمصلحة : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ (٦٥ : ٣).

إن أسس الوكالة الناجحة غير الفاشلة ، لا توجد إلا في الله لا سواه : من سعة العلم: ﴿وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنا﴾ (٧ : ٨٩) والعزة والحكمة : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٨ : ٤٩) والحكم في التكوين والتشريع : ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (١٢ : ٦٧) وانه المرجع للأمر كله : ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (١١ : ١٢٣) ولحياته السرمدية : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ (٢٥ : ٥٨) وبصورة جامعة لأنه الله لا إله إلا هو كما في عشرات الآيات ، وهو خالق كل شيء وبذلك هو الوكيل على كل شيء دون توكل ، وعلى ما نبغيه مما له نسعى وإياه نطلب بالتوكل : ﴿خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٦ : ١٠٢) فلولا وكالته تعالى على كل شيء لخرجت إلى اللاشيء ، ولولا التوكل عليه لكلت المساعي دون الوصول إلى ما نبغيه من شيء.

إنه ليست هناك وكالة إلهية لأحد على أحد ولا للرسول : ﴿إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١١ : ١٢) اللهم إلا وكالات فاشلة جزئية لا غنى فيها عن الوكالة الإلهية ، ولا تعني وكالة الله بطلان المساعي والأسباب ، وإنما نقصانها ، ولذلك تتم الأسباب والمساعي بالتوكل على الله خالق الأسباب والساعين ﴿وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ (٤ : ٨١).

فالمسموح فيه هو السعي وتوكيل الغير بغية الوصول إلى المأمول ، والمحظور

هو التوكل على غير الله ، على نفسه أم سواها ، فالله يوكّل ويتوكّل عليه ، ومن سواه يوكل ولا يتوكل عليه ، وعلينا وكلاء وموكلين جميعا أن نتوكل على الله في إطارات ثلاث : نتوكل عليه فيما نعمل رجاء النجاح ، ونتوكل عليه فيما نأمل من وكلائنا ، ويتوكل وكلائنا على الله فيما توكلوا فيه من موكليهم ، فإليه يرجع الأمر كله. وكفى بالله وكيلا.

﴿وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً. وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَ [١] مَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾.

إن الصبر على تقولات الكافرين ، وهجرهم هجرا جميلا ، وعلى تكذيبهم لهذه الرسالة السامية ، كل ذلك دليل أن المزمل نزلت بعد المدثر ، نزلت بعد ظهور الدعوة ومجابهتها العراقيل ونعرات الفرية والتكذيب ، كما وان السبح الطويل نهاره ، دليل على أن المزمل نازلة بعد تطبيقه القيام السافر العام في المأمور به في المدثر ، وبذلك تؤيد الرواية الثانية أنه (ص) تزمل ذعرا ساخطا على تقولات قريش في ندوتهم الكافرة : انه ساحر أو مجنون نتربص به ريب المنون.

فهنا يؤمر الرسول بالصبر والهجر الجميل والتمهيل القليل ، بدل الجزع أو المقابلة بالمثل أو التنكيل ، وانه صبر لصالح الدعوة ، لا صبر المسايرة والاستسلام صبر يحمل كل جميل في الدعوة ، للداعي والمدعوين.

فالأمر بالصبر هنا يعني عدم الجزع الدافع الى الفرار عنهم : ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ﴾ (٦٨ : ٤٨) ﴿.. إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً﴾ (٢١ : ٨٧) خروجا عن الدعوة وفرارا عن المرسل إليهم ، وكذلك عدم التزمل والوقوف عن الدعوة ، أو النقص فيها والتمهل عنها : ﴿وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ﴾ (١٠ : ١٠٩) وعدم التحزن عليهم : ﴿وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ (١٦ : ١٢٧) وعدم الاستعجال لهم بالدعاء عليهم : ﴿فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ (٤٢ : ٣٥) وأن يكون استقامة في الدعوة واتكالا فيها على نصر من الله : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا﴾ (٥٢ : ٤٨) لا صبر المسايرة والطاعة لهم والانفلات عن الدعوة : ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ (٧٦ : ٢٤).

وأخيرا الصبر عليهم نظرة النقمة الإلهية على الصامدين منهم في الكفر : ﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً. إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً. وَنَراهُ قَرِيباً﴾ (٧٠ : ٦).

فالصبر منه جميل ، كهذه ، ومنه قبيح : كالصبر على هدر الأموال والنفوس وانتهاك الدين والناموس وجاه الظالمين ، والصبر على نقص الدعوة وانتقاضها عن المدعوين والصبر على الظلم والضيم ، والصبر على ما للإنسان أن يدافع عنه : وإنما عليه الصبر الجميل والهجر الجميل والكلام الجميل والسكوت الجميل والنصيحة الجميلة التي تضم كل جميل في الدعوة ، وليس الهجر الجميل إلا هجرا عن الهجر والتنكيل حتى يحكم الله ، والهجر في تقولاتهم اللاذعة ، عن المقابلة بالمثل ، ولا خروجا عنهم وعن دعوتهم.

إن الرسول الأقدس (ص) لم يكن ليحارب المكذبين بداية الدعوة ، لقلة العدد والعدّة ، ولما تكمل الدعوة! ولذلك أمر بتأجيل الجهاد إلى زمن الهجرة ، حين تكمل العدة والعدة : ﴿وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ﴾ (١٠ : ١٠٩) وقد حكم الله بالجهاد منذ الهجرة ، وحكم على الكافرين بالنار منذ الموت وليوم القيامة ، ولقد كانت أخلاقه (ص) جميلة مع الناس كافة على طول الخط ، لحد يعفو عن الكفار عند فتح مكة المكرمة وهم في قبضته علهم يؤمنون ، أو يندمون على ما فعلوا وافتعلوا.

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾ الذين يزدادون تكذيبا لأنهم مترفون : والنّعمة هي التنعم مرة ، وهي هنا الحياة الدنيا ، والنّعمة هي الحالة الحسنة الشاملة للحياتين ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ. كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ﴾ (٤٤ : ٣٨) ذلك لأنهم ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ﴾ وهذا هو تبديل النّعمة نعمة عليهم ونقمة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ﴾ ذرني وإياهم ، فأنا حسبهم.

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ بينك وبين الهجرة الحاسمة جذورهم بالجهاد ، وبينهم وبين قتلهم أو موتهم إلى عذاب النار وبئس القرار.

فلقد كان صبره جميلا على طول الخط ، وامهاله القليل جميلا ، وكله بأخلاقه وتصرفاته جميلا أينما كان ، فحق له قول الله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

فحمل الرسالة الإلهية وتنفيذها ببلاغها بحاجة إلى صبر جميل : صمودا واستقامة للوصول إلى المغزى في سبيلها الشاق الطويل ، فالصبر للرسول ـ هكذا ـ زاد وعتاد ، وجنة وسلاح ، وملجأ وملاذ ، بجانب ما عنده من وسائل الدعوة وتدابيرها ، صبرا مع النفس وشهواتها وانحرافاتها وضعفها وشرودها وعجلتها وقنوطها ، وصبرا مع أعداء الدعوة وكيدهم ، وصبرا مع المؤمنين ، على قلتهم ، وقلة صبرهم ، وكثرة استعجالهم ، وصبرا مع عامة النفوس التي لا تخلو من تسرعات في حق أو باطل.

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ ولو مهلتهم عمر الدنيا فهو قليل ، فكيف بأعمارهم التي ليست إلا قليلا في قليل ، وكيف بإمهالهم إلى زمن الهجرة وهو أقل من القليل ، فلتصبر هنا وهناك صبرا جميلا ، ولتمهلهم قليلا :

﴿إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وَجَحِيماً وَطَعاماً ذا غُصَّةٍ وَعَذاباً أَلِيماً﴾.

فلدينا من أنكال ما ليس لديك مهما كان نكالك عليهم شديدا.

إن أنكال النار وقيودها وأغلالها هي هي التي قدموها لأنفسهم يوم الدنيا إذ كانوا أنكالا في سبيل الله ، وكانت عليهم أغلال الشهوات فاثّاقلوا إلى الأرض ورضوا بالحياة الدنيا من الآخرة ، فأكملت شهواتهم يوم الدنيا ، ثم ظهرت أنكالا يوم الدين جزاء وفاقا.

﴿طَعاماً ذا غُصَّةٍ﴾ : الذي يمزق الحلوق ويحرق الحناجر ، كما كانت حياتهم غصة وكان الحق شجى في حلوقهم ، كما كانوا شجى في حلوق المؤمنين وقذى في أعينهم ، وبصيغة شاملة كانت حياتهم عذابا أليما على الدعوة والداعين والمدعوين ،

فانتقلت إلى عذاب أليم عليهم يوم الدين :

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾.

رجفة الأرض والجبال ـ هذه : هي الرجفة الأولى المدمرة لها ، ثم تتلوها الرجفة الثانية الرادفة لها ، المحيية لأمواتها : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ. تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ ومواصلة الرجفتين تجعل الأولى كأنها الثانية ، ولأنها بداية القيامة ، فتعتبر الأولى ـ وهي رجفة الإماتة ـ كأنها يوم النكال ، والطعام ذو غصة والعذاب الأليم ، وهي كلها بعد الرجفة الثانية : الإحياء!.

وعلى أثر هذه الرجفة المدمرة تصبح الجبال كأنها «كانت» منذ كانت ﴿كَثِيباً مَهِيلاً﴾ : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ والكثيب المهيل هي الرمل المتراكم المنقلب أسفله أعلاه ، فكما تخرج أثقالها في زلزالها ، كذلك الجبال تقلب في ترمّلها وتدمّرها ، فتظهر قواعدها الأعماق رملا متراكما محترقا.

فإذا تتفتت الأرض وتنهار ، وتكثب الجبال وتحتار ، فكيف إذا تكون أحوال الناس المهازيل الضعاف في قبضة العزيز القهار؟

﴿إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً. فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾.

﴿رَسُولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ﴾ : تلقيا لما تقولون وتعملون وتفكرون يوم الدنيا وإلقاء لهذه الشهادة يوم الدين ، فكما أن لكل أمة شهيد هو رسول لهم : كذلك ـ وبأحرى ـ رسولنا شاهد عليكم بأكمل معاني الشهادة ، وشاهد كذلك على كافة الشهداء والمشهود عليهم يوم الدين : ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ﴾ (١٦ : ٨٩) فهو يتحمل شهادتهم يوم الدنيا ويؤديها كما تحمّل ، يوم الدين.

﴿كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ فرسالة محمد (ص) أشبه برسالة موسى ممن

سواه ، وكما تحكم بهذه المماثلة السامية آية توراتية تحمل بشارة مهمة للرسول الأقدس محمد (ص) وها هي باللغة العبرانية :

نابيء آقيم لاهم مقرب احيحم كموشه وناتتي دباري بفيو ويدبر إلو هيم إت كال أشر أصونو (سفر التثنية ١٨ : ١٧).

نبي أقيم لهم من أقرباء أخيهم كموسى وأضع كلامي في فمه لكي يبلغهم جميع ما آمره به [(١)].

وهذه المماثلة هي في استقلال الشريعة ، وان كتابه من وحي الله لفظا ومعنى وفيما أصيب محمد من كفار قومه كما أصيب موسى من آل فرعون ، فأخذه الله أخذا وبيلا : ثقيلا هو وابل العذاب كالمطر الجارف ، وهنا الآية تتهدد العصاة الطغاة على الرسالة المحمدية بالأخذ الوبيل ، يهزّ قلوبهم هزّا ساحقا ، ويخلعها بعد رجفة الأرض وكثب الجبال المهيل ، علهم يتذكرون ويحذرون من أخذة الدنيا والآخرة ، فليأخذوا حذرهم بين الأخذتين في هذه الحياة القصيرة ، فليتقوا هنا بأس الله قبل أن يأتيهم :

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً. السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾.

ولنفرض أنكم اتقيتم عذاب الله يوم الدنيا ، أم لم يأتكم فيها ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ﴾ ومتم على الكفر ﴿يَوْماً﴾ يوم الرجفة الطامة التامة ، من وقعته وشدته : ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً﴾ فانه الهول الذي تنشق منه السماء وتخر الجبال هدّا ، فكيف بالولدان الضعاف ، فتراهم كأنهم شيب من بياض نواصيهم وانحداب ظهورهم ، وانكماش جلودهم ، لا لخطيئة اقترفوها فإنهم قاصرون ، وإنما هذه طبيعة هذا اليوم التي ترتسم في الطبيعة

---

(١). التفصيل الى كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» ص ٣٣).

الصامتة أيضا ، ففي الانسانية الحية اولى! وإذ يصبح الولدان شيبا وهم قاصرون فكيف بالكفار المكذبين وهم مقصرون ، فهناك وقعة تتقى هي عذاب الله ، تتقى بالإيمان بالله ، ووقعة لا تتقى ، وليست هي عذابا ، وإنما توحي بشدة بالغة لا تبقي ولا تذر ، وهي رجفة الإماتة والتدمير ، فالولدان الذين هم أطفال ، لو جاز أن يشيبوا لرائع خطب ، أو طارق كرب ، لشابوا في هذا اليوم لعظيم أهواله وفظاعة أحواله ، وإنها وقعة هي كعذاب : ﴿السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ تنفطر به السماء وتنشق وتكشط وترجع رجعا ، فكيف لا ينفطر هذا الإنسان الهزيل الذليل؟ ﴿كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ لا هوادة فيه ولا رجعة منه! :

﴿إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾.

وإنها تذكرة بالغة لمن أراد أن يتذكر ، فمن شاء الادّكار اتخذ إلى ربه سبيلا قدره ، ومن شاء أن يسلك سبيلا إلى ربه فزاده أن يتذكر ، إن السبل إلى الله كثيرة وكذلك إلى الشيطان : ﴿وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (٦ : ١٥٣) وأنجح السبل الى الله هو صراطه المستقيم ، ثم ما دونه من السبل من حق اليقين وعين اليقين وعلم اليقين والظن ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢٠)

تلمح هذه الآية ـ وهي الأخيرة من السورة ـ أنها نزلت بالمدينة ، وما قبلها مكية كلها ، فان حكم الجهاد والزكاة نزلا في المدينة ، وقد صبر الرسول على ما يقولون طول مقامه بمكة ، وهجرهم هجرا جميلا كما أمر ، حتى جاء حكم الله بالجهاد في المدينة ، وبما أن المزمل من أوّليات ما نزلت على الرسول (ص) في مكة ، ولا أقل بعد ثلاث سنين من بداية الدعوة ، إذ أمر بالمجاهرة فيها ، وأن الآية الأخيرة فيها تتضمن الجهاد والزكاة وهما في المدينة ، من هنا وهناك نتأكد أو نرجح أنها نزلت بعد الآيات الأول بعشر سنين كما قيل ، والقول بسنة أو ثمانية أشهر ـ إذن ـ لا يوافقه الدليل.

(تفسير الفرقان ـ ج ٢٩ ـ م ١٥)

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾.

لقد خيّر الرسول الأقدس في ظاهر الوحي الأوّل بين هذه الثلاث فرضا واجبا ولمح فيه إلى ثلثي الليل كأنه الرابعة والمفضلة على الثلاثة ، وكأنه من أطراف الواجب وليس منه : ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً. نِصْفَهُ ...﴾ فلم يقل ونصفه وإنما ﴿نِصْفَهُ﴾ كأنه الليل إلا قليلا ﴿أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً :﴾ ثلثه ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ : على النصف ، بينه وبين الثلثين ، ولقد استمر الرسول بين الآيتين عشر سنين بقيامه : ﴿أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ دون ثلثيه إلا قليلا ، فلم يترك واجبه التخييري ، وإنما لم يستمر في ثلثيه ولم يكن من أطراف الواجب أو كان ولم يكن مؤكدا ، بدليل عدم اداة التخيير بينه وبين الثلاثة الأخرى «أو».

ولأنه تعالى كان يعلم واقع اختياره (ص) كما يسعه ﴿أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ لذلك لم يفرض عليه ثلثيه لكي لا يذنب بتركه ، أو لا يكون تاركا للأرجح من أطراف الواجب التخييري ، ولقد كانت صلاة الليل فريضة عليه دون المؤمنين ، أو انها قيام الليل الشامل لصلاته ، يدل على ذلك كونه نافلة له : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾ وليست النافلة هنا هي الزائدة على فرض الأمة ، فقد أمر بالتهجد هنا أمرا خاصا ، ثم عدم إحصاء طائفة من الذين معه ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾ دليل ثان أن قيام الليل هكذا لم يكن واجبا على الأمة ، فكيف يفرض عليهم ما لن يحصوا أوقاته؟ ﴿فَتابَ عَلَيْكُمْ﴾ : تاب عليهم في فرضه فلم يفرضه عليهم ، فلم تكن التوبة عليهم عن عصيان في ترك الواجب ، وإنما عن فرضه عليهم ، فقد ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا قصور ذاتي يمنع عن هكذا تكليف ، ثم قصور احياني :

﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ

فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ لهذه الأعذار الذاتية والوقتية أبدل لهم قراءة ما تيسر من القرآن بقيام الليل.

من هنا وهناك نتأكد أن الآية تقتسم إلى خطابين : موجّه إلى الرسول حاملا التخفيف له عن فرض القيام ثلثي الليل ، لأنه تعالى كان يعلم واقع المستطاع له (ص) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى ..﴾ وإبقاء على التخيير الثلاثي المستطاع : ﴿أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ ولأن فعله هكذا وإحصاءه كان في إمكانه ولو لم يكن يحصي الأقسام الثلاث ، لم يكن محصيا لليل ، ولو لم يلق اليه قول ثقيل ، ولم يكلف نهاره بالسبح الطويل ، لم يك قيام الليل واجبا عليه هذا الطويل الطويل ، والثقيل الثقيل.

ثم خطاب ثان يوجّه إلى طائفة من الذين معه ، عفي لهم عن فرض قيام الليل وأبدل به قراءة ما تيسر من القرآن ﴿وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ وبما أن «طائفة» مرفوع ، لا منصوب حتى يعطف على المنصوب في «انك» نتبين أن قيام الأدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه لم يعطف لهم ، فلم يكونوا قائمين مثل الرسول ، وإنما ﴿طائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ... عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ﴾ فالجملة الثانية خبر طائفة ، تخبر عنهم أنهم لن يحصوا الليل ، فلن يقدروا على تحقيق التخيير الثلاثي ﴿فَتابَ عَلَيْكُمْ﴾ توبة عليهم في فرضه ، لا عن عصيانهم بعد فرضه [1] ، فكيف يفرض عليهم القيام الثلاثي ليلا وهم لن يحصوه ، إضافة إلى قصورهم الاحياني ـ مع القصور الذاتي العلمي ـ : ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى [2] وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ فكان

---

(١). فالتوبة وهي الرجوع قد تكون من العبد الى الله ، رجوعا الى طاعته بعد العصيان ، وقد تكون من الله على العبد وهي اما قبول للتوبة عن العصيان ، او رجوع بالرحمة على العبد بعد ما ضيق عليه او كان بحيث يضيق عليه لولا مزيد رحمته ، وهي المعنية بتوبته تعالى هنا.

قيام الليل صعبا عليهم لهذه الأعذار ولو عفي عن التقادير المعينة الثلاثة فيه ، فأبدل لهم به قراءة ما تيسّر من القرآن.

وأما الرسول (ص) فبما أنه كان يحصي الليل ، ولذلك فرض عليه القيام المسبق ، فهو لا يعفى له عن قيامه ، وعليه تحمل العبء في قيامه ، وفي هذه الأعذار التي تعفي سائر المؤمنين عن فرض القيام ، ولأنه يحمل القول الثقيل والسبح الطويل ، فعليه ما ليس على غيره من التكليف الثقيل ، وليأخذ زاده وأهبته في هذا الطريق الشاق الطويل بعمره القليل القليل.

فقيام الليل ـ بصلاته وذكره ودعائه واحيائه ـ من المندوب اليه للمسلمين كأنه فرض ، وفرض على الرسول الأقدس (ص) وإنما عفي له عن ثلثيه وما زاد ، وعفي للذين معه عن فرضه إطلاقا ولكنه يداني الفرض.

وبما أن قراءة ما تيسر من القرآن ليست خارجة عن المستطاع ، ولا أن شيئا من الأعذار المسبقة تنافيها ، فلنا أن نثبت على ظاهر الأمرين فيها ونستوحي الوجوب ، ليلا قدر المستطاع ـ ف ﴿إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ ونهارا قدر الميسور ، فلنعش القرآن قراءة وتلاوة وتفهما وتذكرا وتصديقا وتطبيقا ونشرا وسماعا وإسماعا ، وهكذا يجب أن يكون الذين مع هذا الرسول ، وليسبحوا معه نهار الدعوة سبحا طويلا في بحر المجتمع المتلاطم ، فينجوا وينجوا الغرقى الهلكى ، فالقرآن بمن يحمله سفينة النجاة.

لقد ذكرت قراءة ما تيسر من القرآن هنا مرتين ، مرة بعد ذكرى القصور الذاتي عن القيام الثلاثي الليلي : ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ فنيابة القراءة عن القيام ليلا ، لا تكون إلا ليلا ، وأخرى بعد ذكرى الأعذار المتعبة للقيام : ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى ... فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ وعلها تخص النهار أو تعمه والليل ، فان هذه الأعذار تمانع قيام الليل بصلاة أو قراءة ، على الأكثر : فلا تكرار في الأمر بالقراءة هنا ، ثم يتلو

قيام الليل وقراءة القرآن ما ينتج عنهما : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وفي قرنها بقيام الليل المسموح عنه عن المؤمنين ايحاء انها لا تخفيف فيها ولا تتحمله إلا شكليا كالصلاة ، أو كميا كالزكاة فانها تتقدر بقدر المال المزكى ، وأما أن تبدل الصلاة والزكاة بغيرهما فكلا.

﴿وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾.

فالأعمال كلها ـ من خير وشر ـ تقدم للعامل لا سواه ، فليس لله فيها مضرة أو منفعة ، ولا لمن سواه ، وإنما هي للعامل أو عليه ، فقدموا لأنفسكم مما يتقدم إليكم من صالح الأعمال ، فأنتم سوف تجدونها هي بأنفسها عند الله بما سجلتها المسجلات الإلهية ، من أعضائكم العاملة ومن الأرض بفضائها ﴿هُوَ خَيْراً﴾ تجدونها خيرا مما كانت ، إذ تظهر بحقائقها وألبابها دون قشور تسترها ، وتظهر ليوم لا حاكم فيه إلا الله وأحسن أجرا فالله يزيد أعمالكم أجرا بفضله ورحمته ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ اطلبوا منه والتمسوا لكي يغفر ويستر ما قدمتموه من طالح الأعمال أو صالحها الناقصة ، ما دام المبدأ الأصيل في حياتكم ابتغاء مرضاة الله.

فالمؤمنون ـ إذا ـ يلمسون التخفيف الندى يمسح على نصبهم طوال سنين عشر من البعثة ، وقد انتفخت أقدامهم وتورمت من القيام الطويل ، مهما كانوا قاصرين عن قيام الرسول ، الثلاثي ، ولإحصائه الليل دونهم ، ووجوبه الأصيل عليه دونهم ولحمله الثقيل وسبحه الطويل دونهم.

سورة المدثر ـ مكية ـ وآياتها ست وخمسون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (٧)

* * *

إن المدثر من فواتح الوحي ، فهي بعد الآيات الخمس الأولى من العلق ، وعلها بعد الحمد أيضا ، وإذ تحتمل السورة ـ كالكثير من أمثالها ـ عدم نزولها دفعة واحدة ، لذلك فآيات التوعيد والتنديد بالوحيد ، الذي كان بآيات الله عنيدا ، والتي تتحدث عن سائر الكافرين ، بعد الآيات السبع الأولى من السورة ، إنها لا تتنافى وكون هذه السبع هي النازلة بداية الوحي المفصل ، بعد الخمس من علق والسبع المثاني من الحمد أيضا.

﴿يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ : لقد تدثر الرسول الأقدس (ص) إثر ما أوحيت اليه الخمس والسبع ، تدثر من وقعة الوحي المفاجئ الثقيل ، وعلى حدّ المروي عنه (ص) قال : جاورت بحراء فلما قضيت جواري فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئا

ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا ونظرت خلفي فلم أر شيئا فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فجثثت منه رعبا فرجعت فقلت : دثروني فدثروني فنزلت ﴿يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾[1]. هذا وكما كان متدثرا عن قيام البلاغ منذ كان حتى زمن الرسالة ، فكان عليه ـ إذا ـ دثارا فوق دثار ، فأمر بالتحلل عنهما إلى الإنذار.

إن الدثار ما يلبس فوق الشعار وأصل المدثر المتدثر تدثرا بثيابه لينام أو ليستدفئ ، وما تدّثره في الرمضاء ، إلا لما أخذته من رعشة الوحي وهيبته ، كأن زالت حرارته بغزارة الوحي ورعشته ، فتدثر وكان حقه أن يتدثر ، وبما أن مكوثه هكذا بداية الوحي ولو قليلا ، يخيل أنه مسموح له الدثار نوما أو تدفؤا ، يؤمر آنذاك بالقيام عنه إلى الإنذار ، فلا عليه ولا له وهو رسول أن يكون نائما دثورا مستترا مستدفئا ، وإن كان من وقعة الوحي ، فليتعود القيام والإقدام طالما العراقيل تحول بينه وبين القيام ، وليعش القيام حياته : روحيا وجسدانيا وعقليا وعلميا ، وبكل ما يملكه وما ملّكه ربّه من طاقات وإمكانيات ، فالعمر قصير ، والسير عسير ، ودافع القعود كثير ، فلا يسمح له إذا ـ الدثار ـ أي دثار ، دثار الجسم والروح ، دثار الإنذار والتبشير ، فليتجرد عن الدّثر كلها ، إلى الإنذارات كلها.

وقد تتحمل السورة كلها أنها أنزلت بعد ما شاعت دعوة الرسول وواجهته السفاسف والأقاويل السوء : أنه مجنون أو كاهن أو شاعر ، وكل ذلك من طواغيت قريش : أبو جهل وأبو لهب وأبو سفيان والنضر بن الحرث وأمية بن خلف

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٨٠ عن جابر بن عبد الله الانصاري ، وفيه ان المدثر أول ما نزل من القرآن ـ اي : بعد الخمس من العلق ويلمح له قوله (ص) هنا الذي جاءني بحراء إذا فهذا مجيئه الثاني ـ وعل الاول كان يحمل سورة الحمد اضافة الى الخمس كما تدل على البسملة بالبيان المسبق في سورة العلق.

والعاص بن وائل والوليد بن مغيرة الذي تسميه الآيات الآتية وحيدا ، وانتهى دور التكذيب اليه بما نقلته الآيات ، فلما سمع رسول الله (ص) ذلك اشتد عليه ورجع إلى بيته محزونا فتدثر بثوبه فأنزل الله السورة.

فهذه دثر ثلاثة تتحملها الآيات : دثاره قبل البعثة ، ودثاره بداية الوحي من رعشته ، ودثاره إثر هذه الهجمات ، والرسول يؤمر في هذه الدثر الثلاثة أن يقوم بالإنذار مهما كان الدثار ، قياما يستصغر فيه كل دوافع القعود وعراقيل الإنذار :

«قم» فلقد مضى وقت القعود والدثار ، وحان زمن القيام والإنذار «قم» لله قانتا بين الجموع المحتشدة الفالتة عن ذكر الله وطاعته ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ﴾ (٢ : ٢٢٨) وأقم الدين ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (٤٢ : ١٣) وأقم الوزن أيا كان ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ﴾ (٥٥ : ٩) ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ﴾ (١١ : ١١٤) فانها عمود الدين ، قم وأقم واستقم ﴿فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ﴾ (٤٢ : ١٥).

﴿فَأَنْذِرْ﴾ وليكن الإنذار بداية القيام ، فانه ينفع قوما لدّا ، فان التبشير هو بعد الإنذار ، بعد ما تلين القلوب للايمان وتتقي : ﴿فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا﴾ (١٩ : ٩٧) ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (٢٨ : ٤٦) فمن تأثر بالإنذار فهو المنذر المبشر ﴿إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ (٣٥ : ١٨) ﴿إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ (٣٦ : ١١).

فلئن أثر الإنذار كان بعده ومعه التبشير ، وإلا فلما ذا التبشير؟ والإنذار هو اظهر ما في الرسالات الإلهية ، تنبيها للخطر القريب الذي يرصد الغافلين الشاردين السادرين في الضلال ، علهم يخافون العذاب الأليم ، ومن ثم البشارة باللطف والعطف العميم.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ إن الفاء هنا توحي بشرطية مقدرة : إن كان هو ربك

فكبره فلزام الإيمان بربوبيته تكبيره كما يلائمها ، وليس تكبيره فقط قول : الله أكبر فكثير هؤلاء الذين يقولونه ولا يكبرون الرب في عقول مصغريه المشركين به ولا في أعمالهم أنفسهم ، فتكبير الرب غير التكبير لفظيا للرب ، وإن كان يشمله قول «الله أكبر» كما يروى عنه (ص) [١].

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ ربك وحده ، فهو وحده الكبير المتعال الذي يستحق التكبير دون سواه ، يوحي بهذا الانحصار تقديم المفعول ﴿رَبَّكَ﴾ على فعله كبر فكل شيء بجنب الله صغير ، والله وحده هو الكبير ، وكل صغير يكبر عرضيا بالتكبير ، والله هو ذاته كبير ، وإنما الأمر بالتكبير يعني تعظيمه عند الجاهلين به أو المعاندين والناكرين له ، تكبيرا في عقولهم ، بيانا للواقع ، لا تكبيرا لواقعه ، وليستعد الرسول خوضه في هذه المعركة تصغيرا لكل كيد وكل حول وقوة وكل معاكسة وكل عقبة وعرقلة ، تكريسا لكافة الطاقات العقلية والمنطقية وسواها ، وليعلم الجاهلون بالله والمتجاهلون ، ان الله هو الكبير المتعال ـ ف ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ (١٧ : ١١١) : تكبيرا يليق بساحته ، ويصغر كل من سواه بجنبه ، تكبيرا في عقولهم وضمائرهم وفطرهم وفكرهم وواقع كيانهم في تفكيرهم وتصرفاتهم ، ولكي يرى ويلمس أنه الكبير المتعال في خلقه فيعيشوا ذللا بجنبه وفي طاعته : ﴿عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ﴾ (١٣ : ٩) المتعالي عن أن يكبر عن صغر ، أو يتكبر عليه أحد ينازعه في ملكه ، أو يستقل عنه أحد في كيانه ـ ف ﴿هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٨١ ـ اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قلنا يا رسول الله (ص) كيف نقول إذا دخلنا في الصلاة ، فانزل الله ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ فأمرنا رسول الله (ص) ان نفتتح الصلاة بالتكبير ـ أقول هذا هو النزول الثاني للآية ، فانها نزلت أولا بداية الوحي قبل الصلاة وقبل أبي هريرة ، وليس هذا الا من تطبيق الآية على ادنى مراحل التكبير.

(٢٢ : ٦٢) لا عن صغر مسبق ـ ف ﴿إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيراً﴾ (٤ : ٣٤) : كينونة أزلية كما في كونه ، لا يشاركه فيه أحد ، وكما لا يعني تكبير الله تعالى هنا أنه أكبر ممن سواه ، فلا كبير سواه حتى يكون هو أكبر منه ، وكذلك قول «الله أكبر» لا يعنيه ، فان كونه أكبر من غيره تصغير له ، وإشراك لغيره معه في الكبر ، وإنما يعني ـ على حد تعبير باقر العلوم عليه السلام ـ أنه أكبر من أن يوصف وإن كان بوصف أنه أكبر ممن سواه!

﴿وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ﴾ : إن كانت هي ثيابك فطهرها : فالفطرة مجبولة على تطهيرها.

«ثياب ـ ك» و «ك» لا يختص البدن ، وإنما يعمه والروح ، والروح أحرى هنا ، ولا سيما أن الخطاب وجّه إلى الرسول (ص) ، والرسالة الإلهية هي روحانية المصدر والفعل والمفعول ، طالما تشمل الناحية الجسدانية أيضا.

فلكل إنسان ثلاثة أثواب ١ ـ ثوب الجسد المتصل به ، شعارا ودثارا ، ٢ ـ ثوبه المنفصل عنه : زوجته التي اعتبرت لباسا كالعكس ﴿هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَ﴾ ٣ ـ وثوب الروح وهو لباس التقوى ﴿يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ﴾ (٧ : ٢٦) وهذه الطهارة الثلاثية للإنسان تجعله في قمة الطهارة والنزاهة ، فبإمكانه هجران الرجز كل رجز.

فمن طهارة الثياب تنظيفها عن الدنس والنجس ، وترتيبها بحيث لا تتعرض للأدناس ، كالثياب الطوال التي تجر الأرض فتتقذر هي ، وتقذر أيضا خلق أصحابها إذ تخلق فيهم الخيلاء والكبرياء ، وهذا من تفسير الظاهر للآية وكما فسرها أئمة أهل البيت عليهم السلام «فطهر ـ أي فقصر» وكما أن من تطهيرها أيضا لبسها بحيث لا تكون لباس الشهرة أو الهزء ، تطهيرا لأصحابها عن التعرض للبهت والغيبة ، وكذلك تطهيرها عن أن تكون من مصادر محرمة : سرقة أو خيانة أو بخسا أم أيا كان من وجوه الحرام.

ومنها تطهير الأزواج فإنهن لباس ، أمره الله سبحانه أن يستطهر النساء ، فيختارهن طاهرات من دنس الكفر ودرن العيب ، لأنهن مظان الاستيلاد ، ومضامّ الأولاد ، ثم إذا اختارهن هكذا يلازم تطهيرهن عمّا لا يجوز قدر المستطاع فإن فلتت منهن فالتة ـ إذا ـ فهي هي المسؤولة لا هو ، إذ أدى واجب الاختيار والتطهير.

ومنها تطهير النفس ، ان يعيش تطهيرها عما يرجزها ويدنسها ، فيزجرها عن الله ، يقال : فلان طاهر الثياب. أي : طاهر النفس والأفعال ، طاهر الضمير والأقوال ﴿وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللهِ﴾.

فكما للجسم ثياب يجب تطهيرها تنزيها للظاهر ، كذلك للروح ثياب تلبسها ، فتدنسها أحيانا وتطهرها أخرى ، فالفطرة السليمة والعقل السليم والقلب الواعي والعلم النافع ، التي تجمعها التقوى ، إنها لباس التقوى ، تقوى بها الروح وتعرج إلى قمة الكمال ، وكما أنها تقوى بالروح الصافية الضافية.

فهذه الطهارة هي الحالة المناسبة لتلقي الوحي ، والضرورية لملابسة الإنذار والتبشير ، ومزاولة الدعوة في أوساط التيارات الجارفة ، والأهواء والمداخل والدروب ، ولكي ينقد الملوثين دون أن يتلوث.

ومن ثم وبعد المراس الشاملة لهذه الطهارة الثلاثية ، التي تطمئنه إلى حياة الدعوة الدائبة ، يؤمر بالهجر عن كافة الاضطرابات فيها ودوافعها : ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ إن تعلمه رجزا فاهجره ، فالفطرة مجبولة على هجر الرجز. فأصل «الرجز» هو الاضطراب ، وناقة رجزاء إذا تقارب خطوها واضطرب لضعف فيها ، فهو ـ إذا ـ يشمل كل اضطراب وخروج عن اعتدال سببا ومسببا ، من العذاب وبواعثه ، فالخروج من اعتدال الفطرة والعقل رجز كما أن خلافه طهارة واعتدال ، وكما أن كافة المكارم داخلة في ﴿وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ﴾ كذلك التخلف عنها داخل في ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فالرسول الأقدس (ص) أمر

في بداية الوحي وبزوغ الرسالة بالإنذار وتكبير الرب بجناحي طهارة الثياب وهجر الرجز : تحلية بالمكارم ، وتزكية عن المحارم ، وليطمئن إلى الله متخلقا بأخلاق الله ، ويطمئن الناس إلى الله ، هاجرا كل رجز واضطراب في عقيدة ، أو عمل ، في دعوة أو عبادة ، ولذلك تسمى الأوثان رجزا ورجسا ، كما يسمى العذاب المهين ـ المسبب عن عبادتها ـ رجزا : ﴿أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ (٣٤ : ٥).

ذلك! وإن كان الرسول (ص) عاش متطهرا هاجرا الرجز منذ ولادته إذ عافت فطرته السليمة كل انحراف وانجراف ، بما كان يسلكه ملك عظيم من ملائكة الله سبيل المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره ، على حدّ قول الامام علي عليه السلام فكان يهجر المعتقدات الشوهاء والسبل الشائكة ، ورجز الأخلاق والعادات ، فلم يعرف عنه ولم ينسب اليه أنه شارك في شيء من خوض الجاهلية ، ولكنما هذا التوجيه يعني ـ فيما يعنيه ـ إعلان المفاصلة والتمييز الذي لا هوادة فيه ولا مسايرة ، ويعني المداومة والمزيد من الطهارة وهجر الرجز منذ الدعوة بالعصمة الإلهية ، إضافة إلى ما يسعاه قبلها وبعدها ، لا انه كان عليه رجز ، فأمر بهجرها ، فما أكثر الحالات التي هو لابسها ويأمره الله بها ، إعلانا عالميا في إذاعة قرآنية أنه مؤمّر مطيع فلا يطمع فيه طامع للمهادنة والمسايرة ، وما أكثر المزريات التي عافتها فطرته السليمة ـ منذ كان حتى قبض ـ فينهاه الله عنها بهذا الدافع وأشباهه ، وليعلم العالمون أنه رسول مؤمر ، لا يستقل في حسناته وعبقرياته عن ربه إلى نفسه وإن كانت نفسية قدسية! فالقرآن ـ بجانب ما يذكره من مكارم الرسول ـ ينبهنا أنه رسول ، لا يملك لنفسه بجنب ربه ضرا ولا نفعا ﴿إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللهِ وَرِسالاتِهِ﴾.

من ثم وبعد نكران الرجز وهجره ، يوجه إلى نكران ذاته ، وعدم المن في معطياته ، كأن لم يعط شيئا ، رغم تقديمه وبذله الكثير الكثير ، وجهده وعنائه العسير العسير في هذه السبيل الشاقة الملتوية :

﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ صحيح أن الله يمن بك على المؤمنين : لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم .. ولكنك ـ وأنت رسول ـ ليس لك المن عليهم استكثارا لما تبلغ من رسالات ربك ، واستكثارا لرفعة المتحدد عند الناس ، وإنما لك الاستكثار من فضل الله ورحمته ، دون ابتغاء أجر منهم أو شكور ، ولأن هذا التوفيق العظيم والفضل العميم يستحق الشكر لله وطلب المزيد من الله ، لا من الناس الذين لا يملكون ، ولا لأنفسهم شيئا! وكما ليس له المن عليهم ان آمنهم بالله ، كذلك ليس لهم المن عليه أن آمنوا بالله : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ﴾ (٤٩ : ١٧) فالمن لله أولا وأخيرا دون سواه ، ﴿وَلكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ (١٤ : ١١).

إن تحقيق الرسالة الإلهية نعمة من الله فلا يستحق المنّ عليه ، وصدقة على المرسل إليهم وهي تبطل بالمن : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذى﴾ (٢ : ٢٤٦).

ولئن سئلنا : إذا كان المن من غير الله محظورا ، فكيف أصبح سليمان بينه وبين الإمساك مأمورا؟ : ﴿هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ (٣٨ : ٣٩) والجواب أن المن هنا هو الإكثار من الإنعام كما يوحي به مقابله : الإمساك ، من المن وهو الإكثار العملي ، لا المنة وهي الإكثار الاستكثار القولي ومنّ الرسول الأقدس (ص) كان أكثر المنن والعطايا بين الرسل ، ولكنه منع عن المنة والاستكثار ، اللهم إلا المن والإكثار.

وإن صور الاحتمال في المنّ كالتالي : بين مرغوب عنه ومطلوب ، ممكن ومستحيل :

١ ـ المنّ العملي على الله ، وهو محال ينافي ألوهيته تعالى ، وينافي أقل الإيمان فضلا عن إيمان الرسول ، فلا يشمله النهي.

٢ ـ المنّ القولي على الله ، وهو على امكانيته مستحيل من الرسول البالغ في معرفة الله أقصاها الممكن ، فلا يشمله النهي ، اللهم إلا غيره.

٣ ـ المن العملي على الناس ، وهو الإثقال بالنّعمة عليهم والإكثار منها ، وهو من أوجب الواجبات الرسالية ، أن يعيش الرسول حياته عطاء للناس وهدى ورحمة لقوم يهتدون ، فلا يشمله النهي أيضا.

٤ ـ المنّ القولي للإيذاء ، ولم يكن الرسول ممن يؤذي الناس ، وإنما كان يتأذى في سبيل رفع الأذي عنهم ، فلا يشمله النهي.

٥ ـ المن القولي لتذكير النعمة ، وليس إلا من الله فإنه ولي النعم ، فقد يشمله النهي.

٦ ـ المن القولي حال الاستكثار ، وكما أن «تستكثر» هنا حال ، لمكان الرفع ، لا جزاء الشرط المقدر ، وقد يكون استكثارا لمنّ الله عليه وعليهم فهو ممدوح لا ينهى عنه.

٧ ـ وقد يكون استكثارا لجهوده وجهاده في تبليغ رسالاته ، فهو المشمول للنهي ، فليستقل بلاغاته بجنب الله ، وليعرف أنه ما عبده حق عبادته وما عرفه حق معرفته ، ولذلك كان يستغفر ربه كل يوم سبعين مرة ، لا لذنوب يقترفها ، وإنما إعلاما واعترافا بالقصور عما يحق عليه لله ، إذا فكيف يستكثر؟ فهل يستكثر امتثاله لهذه الأوامر الإلهية من قيامه بالإنذار ، وتكبيره ربه وتطهيره ثيابه وهجره الرجز ، ودعوته إلى ربه؟ وهو عبد لا يملك إلا ما ملكه الله ، فليستقل عمله بجنبه ، وليستكثر نعمه عليه ، دون أن يستكثر ما عمل من خير لله وكما عن الرسول (ص) نفسه [1].

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٥٤ عن الصادق (ع) قال رسول الله (ص) في الآية : «تستكثر ما علمت من خير لله».

٨ ـ وقد يكون استكثارا لتعظيم الناس له ، ورفعة مقامه عندهم ، فمن هم الناس حتى يرجوا إكثارهم ، وهم لا يملكون ولا لأنفسهم شيئا ، وهو المأمور ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ ولا ﴿جَزاءً وَلا شُكُوراً﴾ فكيف يستكثر منهم وإنما عليه العطاء ، دون ابتغاء أجر ولا شكور ولا جزاء ، لا قليلا ولا كثيرا ، إلا من الله العلي القدير.

٩ ـ وقد يكون استكثارا من الله ، فما هي الصلة بين المنّ على الناس والاستكثار من الله ، إلا في المنّ العملي كما سبق ، فعليه أن يثقلهم بنعمة البلاغ وله أن يستكثر ربه الجزاء الوفاق.

١٠ ـ وقد يمن عليهم عمليا يستكثر اهتداءهم ، فبقدر ما يجاهد في سبيل الدعوة له أن يرجو انعطافهم الى الحق ، وهذا أمر مرغوب فيه.

فتلك عشرة كاملة في صور المن بين مستحيل ومأمور به ، ومنهي عنه.

فالله تعالى يريد من رسوله الكريم ألا يظل يستعظم ما يقدمه ويستكثره مهما كان بجنب الله أو الناس أم في نفسه ، فان هذه الدعوة لا تستقيم وتدوم في نفس تحس بما تبذل في سبيلها ، فعلى الرسول أن يتناسى ما يقدمه لكي يستجدّ العطاء دوما كأنه أول العطاء ، فلا يمل من كثرة العطاء ومعاكسة المعطى لهم بالتخلف والغباء ، ولا يمن على المهتدين فيقطع عنهم العطاء ، وإنما عليه أن يعيش عناء في عطاء وابل دون انقطاع.

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ تقديم الظرف يوحي بأن الصبر يجب أن يختص بدافع رضى الرب فلا يصبر لنفسه لأنها تستحليه ، ولا لغيره فيسترضيه ، إنما لربه فيرضيه لأنه ربه ، ثم الفاء توحي بسبب هذا الاختصاص ، أنه ربوبيته تعالى ، جزاء لشرط مطوي إن كان هو ربك فله اصبر فالصبر في سبيل الله وانحصاره بالله يتسببان من ربوبيته تعالى ، فان معركة الرسالة طويلة ضيقة ، والصبر هو زادها الأصيل ، وقد شرحنا مدى الصبر الجميل مسبقا فلا نطيل.

﴿فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ
(١٠) ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً (١٢) وَبَنِينَ شُهُوداً (١٣)
وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً (١٦) سَأُرْهِقُهُ
صَعُوداً (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ
(٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقالَ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ
هذا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَما أَدْراكَ ما سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ
(٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ﴾(٣٠)

﴿فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ آية عديمة النظير من حيث التعبير ، فما نرى الناقور إلا هنا ، وليس هو إلا عبارة أخرى عن الصور [1] ويزيد الناقور أنه قرع يفضي إلى النقر والثقب ، قارعة تقرع الكائنات لحد النقر ، قرع ينتهي لمداه ، فلا يبقي شيئا ولا يذر في قيامة الإماتة ، ثم قرعة الإحياء حيث تنقر الميتات وتنقلها إلى الحياة ، ذلك لأنه ناقور : فاعول ـ مبالغة في النقر ، فليس إذا بوقا ينفخ فيه ،

---

(١) راجع ج ١ من الجزء ٣٠ ص ٣٥ ، ففيه إيضاح عن النفخ في الصور.

إنما نفخة وصرخة في الكائنات كل الكائنات ، فهي ناقور لهذا النقر ، وصور لهذا النفخ ، نفخ في الصور هو نقر في الناقور ، وليس الصور الناقور إلا الكائنات بذواتها ، تدمّر بصيحة واحدة ، فإذا هم بالساهرة ، صيحة هي زجرة تنقر أعماق الذوات ، لحد تبدّل إلى غير ذواتها : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (١٤ : ٤٨).

﴿فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ. عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾

هل إنها هنا نقرة الإحياء ، إذ يدركون عسره بالجزاء الوفاق؟ ففي نقرة الإماتة يموت المؤمن والكافر سواء ، فالعسر يومئذ لهما سواء! أم إنه النقرتان؟ فطالما الموت بالنقرة لهما سواء ، ولكنما المؤمن يستحليه بما تعقبه من رحمات الله ونعمائه ، فهو له ـ إذا ـ يوم عسير يسير ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ يجعله يسرا ، ولكنما الكافر يستعسره بما تعقبه من نقماته عسرا على عسر ، فهو له ـ إذا ـ عسير غير يسير.

فمن طبع يوم النقرة الصعقة أنه عسير على المؤمن والكافر سواء ، ولكنه رغم طبعه العسير ، على المؤمن يسير ، وعلى الكافر غير يسير ، لما يخلفه من نقرة الإحياء ، ومن ثم الحساب ، فما أجدر الكافرين أن يسمعوا للبشير النذير ، قبل أن يفاجئهم هذا اليوم العسير العسير.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾

تقول الأحاديث أن المندّد به في هذه الآيات هو الوليد بن المغيرة المخزومي ، وكان شيخا كبيرا مجربا من دهاة العرب ، وكان من المستهزئين برسول الله (ص) حملته قريش على أن يفكر ويقدر لكي يعارض القرآن بما عارض ﴿إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾. و «وحيدا» هنا يتحمل كونه حالا من مفعول «ذرني» ومن فاعل «خلقت» وهما الله وحده ، أم من مفعول «خلقت» المحذوف «ه» أو مفعولا له ثانيا ، فالمعني على الترتيب :

ذرني أنا وحيدا مع من خلقته ، فالخالق وحده كاف لخلقه أجمع ، في خيرهم وشرهم ، فلا تحاول لمجابهة كيد الوليد الوحيد وغيره ، إلا حول الله وقوته.

ذرني ومن خلقته أنا وحيدا ، لم يشاركني في خلقه غيري ، فلا يكفي شره غيري.

ذرني ومن خلقته حال وحدته ، بلا مال ولا بنين ، ثم جعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ، فأنا المعطي وأنا الآخذ ، فأنا الكافي شره وبأسه.

ذرني ومن خلقته وحيدا عن مثل الإنسانية كلها ، وعن الأب أيضا ، فقد ولد من زنا ولم يعرف له أب ، وكما عن الإمام الصادق (ع) «الوحيد ولد الزنا».

ومن ألطف ما هنا في «وحيدا» أنه على الأخيرين يلمح إلى اسمه المستعار «وحيد قريش» إذ كان يسمى وحيدهم الفريد ، وكما ادعاه هو أيضا [1] فهذا التلميح عما كان يفتخر به هو وقومه ، يعكس الأمر إلى التقبيح ، أنه الوحيد عن المثل وعن أب يعرف ، لا في الفضائل ، وإن كان وحيدا في المال الممدود والبنين الشهود ، فهو من خلق الله لا منه ، فبماذا يفتخر وفيم يغتر؟ هل بما جعل الله له من مال وبنين إملاء وابتلاء؟ أم بما تجرد في أصله عن أب يعرف ، أو في حاله الجرداء عن كل معروف؟.

وعلى الأولين يلمح إلى صغره وضعفه وجاه خالقه العظيم ، ف ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾.

هذه المعاني الأربعة متضامنة ، قد لا تصلح واحدة دون أخرى ، فخلق الوليد وحيدا عن المال والبنين ، خلق يعم كل مخلوق ، وفيما إذا انضم إليه وحدته عن الأب ، فهو صفة ذم ، وبانضمام وحدة الخالق في خلقه ، يصبح الوليد

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٥٧ عن زرارة قال : ذكر لابي جعفر (ع) عن أحد بني هشام انه قال في خطبته : انا الوليد الوحيد ، فقال : ويله! لو علم ما الوحيد ما فخر بها ، فقلنا له وما هو؟ قال : من لا يعرف له أب.

هزيلا ضعيفا على ماله الممدود وبنيه الشهود ، وبالنظرة إلى وحدة الخالق في كفايته بأس الوليد ، يرتعش الحسّ من بأس الله ارتعاشة الفزع المزلزل ، إذ يتصور انطلاق القوة التي لا حدّ لها ، ففي هذه الوحدات الأربع ، ينسحق المخلوق أيّا كانت قدرته وجبروته ، فما ذا يصنع إذا الوحيد الضعيف المسكين الهزيل الضئيل!.

ففيما يخيّل إلى الرسول (ص) أن لكيد الوحيد وأضرابه ، تأخيرا للدعوة وتأثيرا سيئا على المدعوين ، نرى المهيمن الجبار الواحد القهار ، كيف يطمئنه (ص) ويريحه : أن الوحيد في خلق الوليد هو الوحيد الكافي عنه بأسه ، كيف لا! وقد خلق وحيدا عن كل حول وقوة ، مما يدل أنه لا يملك لنفسه شيئا ، فما له مع من يملكه ويملك كل شيء!.

وفيما إذا سئلنا عن رابع المعاني المسبقة ، هل إن خلق الإنسان من زنا ، هو من الله؟ أو إن تجرده عن المثل الأخلاقية من الله؟.

فالجواب أن الله هو الذي يخلق الجنين ، من نكاح كان أو من سفاح ، فولد الزنا من خلق الله كغيره سواء ، وليست عملية الزنا أو النكاح إلا من الإنسان ، و «خلقت وحيدا» : عن زنا دون أب يعرف ، ليس إلا تنديدا بأصله المتخلف عن شريعة الله ، وان لم يكن له هو دخل في هذا الأصل ، ولكنه مشى حياته التخلف ، واستمر على ولادة الزنا خلقا ، دون أن يرجع إلى فطرته ، فاستحق الذم بكيانه ككل.

ثم الإنسان ـ أيّا كان ـ يولد على فطرة سليمة طاهرة ، فإذا انطلق منها انطلاقة الخير فهو السعيد بما سعى وهداه الله ، وإذا تخلف عنها حجبت فطرته بالشهوات والتخلفات ، وتصبح في التزذل إلى أسفل سافلين ، يرده الله إليه بعد ما خلقه في أحسن تقويم ، فكأنما خلق هكذا أجرد ، عن المثل العليا بمبادئها ، إذ لا يلمس فيه شيء منها ولا ندى ، فكأنه ـ إذا ـ خلق وحيدا عنها ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ طالما كانت الوحدة عن تلكم المثل والتجرد عنها ، كل ذلك

بما سعى وغوى ، ولكن الله هو الذي يزيغ القلوب بعد ما زاغت جزاء وفاقا : ﴿فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً. وَبَنِينَ شُهُوداً﴾.

إن المال الممدود والبنين الشهود هما الأساسان الأصيلان في الحياة الدنيا ، وليس الإمداد بهما من الله مسارعة في الخيرات ، فقد يكون إملاء وابتلاء : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ. نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٣ : ٥٥).

والمال الممدود ما يمدّ الإنسان في الحياة ويجره إلى بغيته فيها كما يهواه ، وهذا الممدود يقتضي مدّا زمنيا طول الحياة دون انقطاع ، ومدّا من حيث المكان ، ولكي يستطيع تجوالا واسعا في ماله وكما يروى : «كان ماله ممدودا ما بين مكة إلى الطائف ، من ضرع وزرع وتجارات وبساتين وأشجار وأنهار ، وكان له بستان لا ينقطع صيف شتاء ثم يقتضي مدا فيها بالزيادة دون نقصان ، ولقد كان له كل ذلك ، لكنه لم يمدّه إلا في طغيان يعمه وبغي وترح ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ (٣ : ١٧٨).

والبنون الشهود هم الشاهدون مصالح الأب ماديا ومعنويا ليل نهار ، فالبنون الغيّب عن الأب ، المستقلون في مصالحهم ، ليسوا قوة وأزرا للأب ، وقد يكونون عليه وزرا ، كالشهود في مصالحهم أنفسهم ، والغيّب عن مصالح الأب ، فعدمهم خير من وجودهم ، وغيابهم خير من شهودهم.

فالوليد الوحيد أعطي بنين شهودا : شهودا لأمواله استزادة لها دون نقصان وشهودا لأحواله في الأتراح والأفراح ، وشهودا له لا عليه ، فيما يتطلب الشهادة ، وشهودا في تلقيهم عن والدهم ، وأداء له ، يمثلونه كأنهم هو وكأنه هم ، لا يفارقهم ولا يفارقونه ، وقد كانوا ـ كما يروى ـ ثلاثة عشر ، أقوياء جبارين عقلاء.

﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً. ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ تمهيدا وحيدا في الحياة وجاه قومه وأقرانه ، وسهلت له سبل الحياة تسهيلا ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ : تمهيدا له بالمال الممدود والبنين الشهود ، كأنه أعطي ما أعطي استحقاقا أو دونه ، ولذلك يطمع أن أزيد!.

﴿كَلَّا إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً. سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾.

﴿كَلَّا﴾ ليس كما يطمع فلن أزيده شيئا ، وليس كما يزعم ، فلم يعط استحقاقا وإنما ابتلاء واستخفافا : ﴿إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً﴾ آيات النبوة والوحي من القرآن العظيم ، وآيات الله من ملائكة الوحي والرسل ، وآياته الكونية الدالة على ألوهيته إذ لم يكن ليعتبر بها ، إنه كان عنيدا : كثير العناد والعتاد لهذه وتلك ، لذلك انتخبته قريش لكي يفكر وينظر في أمر هذه الآيات ، فانه كان ضليعا في اللغة العربية فاختاروه ، محاولة للقضاء على وحي القرآن ، وليخيّل إلى الناس أنه قول البشر وسحر يؤثر ، لذلك حق عليه أن يرهق صعودا يضطر إلى عذاب صعد ، يغشاه بقهر غليظ العذاب ، في دنياه إذ لم يأت بشيء ضد القرآن ، إلا حكما ضد العقل ﴿إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ ومن شأن السحر الزوال دون البقاء! وفي عقباه صليه سقر ، وإنما العذاب الصعود هنا جزاء الكيد الصعود ضد القرآن كما كاد : بما أرهق نفسه بعناء طويل.

فالذي ينحرف عن سبيل الايمان الميسر الودود ، ويقطع حياته ضد الحق في شدة واضطراب وقلق ، فحياته النفسية والفكرية هنا صعود ، فكذلك هي في الأخرى صعود جزاء وفاقا.

فإن كانت الأكثرية الساحقة من أصحاب الجحيم إنما يستحقونها بما انجرفوا في تيارات التخلف دون تفكير ، فهذا الوليد الوحيد سوف يصلى النار بما اعتمله بتقدير وتفكير ، فقد حاول أن يعكس أمر الحقيقة بعد ما تجلت له من وحي القرآن ، فحق له إذا عذاب السعير:

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾.

لقد اجتمعت اليه قريش ـ بما عرفوا من عناده لرسول الله (ص) وأنه أعقلهم وأقدرهم على معارضه القرآن ـ فقالوا : يا أبا عبد شمس ، ما هذا الذي يقول محمد؟ أشعر أم كهانة؟ أم خطب؟ فقال : دعوني اسمع كلامه ، فدنا من رسول الله (ص) فقال : يا محمد أنشدني من شعرك ، قال : ما هو شعر ، ولكنه كلام الله الذي ارتضاه لملائكته وأنبيائه ورسله ، فقال : اتل عليّ منه شيئا ، فقرأ عليه رسول الله (ص) حم السجدة فلما بلغ قوله ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾ اقشعر الوليد وقامت كل شعرة في رأسه ولحيته ومرّ إلى بيته ولم يرجع إلى قريش من ذلك ، فمشوا إلى أبي جهل فقالوا : يا أبا الحكم إن أبا عبد شمس صبأ إلى دين محمد ، والله ليصبأن قريش ، أما ترى لم يرجع إلينا ، فغدا أبو جهل إلى الوليد فقال : يا عم نكست رؤوسنا وفضحتنا وأشمتّ بنا عدونا وصبوت إلى دين محمد ، فقال : ما صبوت إلى دينه ولكني سمعت كلاما صعبا منه تقشعر الجلود ، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق ، وانه يعلو وما يعلى! فقال له أبو جهل : أخطب هو؟ قال : لا ، إن الخطب كلام متصل وهذا كلام منثور لا يشبه بعضه بعضا ، قال : أفشعر هو؟ قال : لا ، أما إني لقد سمعت أشعار العرب بسيطها ومديدها ، ورملها ورجزها وما هو بشعر ، وهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط.

ثم قال : تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يخنق؟ وتقولون انه كاهن فهل رأيتموه يحدث بما يتحدث به الكهنة؟ وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب؟ فقالوا في كل ذلك : اللهم لا ، قالوا له فما هو؟.

ففكر فقال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ...».

إن آخر ما وصل إليه الوليد في تفكيره وتقديره وقياسه القرآن على غيره : أنه سحر لا كسائر السحر ، إنما سحر يؤثر ، سحر لأنه يفرق بين الأحبة ويؤثر لأن الفراق الناتج عنه لا يزول كسائر السحر ، وإنما يؤثر ويبقى. ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾ في أمر القرآن ليعتبره من كلام الخلق ﴿وَقَدَّرَ﴾ بكافة المقادير التي يمكن أن يقدر ويقاس بها كلام ، فلم ير فيه شبها من شعر ولا خطب ، ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ قدّره وقاسه بسائر السحر فما قدر أن يقول : هو سحر ، لأن السحر لا يبقى ولا يؤثر ، فأثر السحر ـ أيّ سحر ـ دائر يزول بمثله أم بنفسه أم بمعجزة إلهية ، ولكن أثر القرآن باق ، لا يزداد على طول المكوث إلا ازدهارا ، والسحر لا يوافقه العقل والفطرة والذوق السليم ، ويمكن إبطاله بالبراهين العقلية ، والقرآن يأخذ بأزمة العقول ويجعل الإنسان مختارا بين الرد والقبول ، لا مختارا لا حول له ولا قوة ، فلا يمكن القول أنه سحر كسائر السحر. ثم «نظر» في الأمرين : أنه سحر؟ لا! أنه معجزة إلهية؟ لا يوافقها هواي ، فخلط بين الأمرين فقال ﴿إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ ففرّع على دعوى السحر ﴿إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ ولم يفرع على قوله ﴿يُؤْثَرُ﴾ شيئا ، لأنه يحمله على مصارحة التناقض إذا قال «معجزة» إذ من شأن البقاء والأثر في مثل هذا الكلام ألا يكون من كلام البشر ، فخلط حقا بباطل ، ثم استنتج من باطله باطلا وتغمض عن حقه ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ قطب حاجبيه عابسا ، يقبض ملامح وجهه باسرا ليستجمع فكره ، وعرف بعد ذلك كله أنه وحي ، ولكنه ﴿أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ وعبر عن رأيه بعد هذا المخاض كله ، وهذا الحذق كله ، وقال : ﴿إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾.

فهناك تفكير وتقدير ونظر وعبس وبسر وإدبار واستكبار ، أبواب جهنمية سبع فتحها الوليد ليحرق بنيرانها وحي القرآن ، ولكن هذه التقولة الجهنمية

لم تفضح إلا إياه لمن فكر وقدر ونظر حقه دون ادبار واستكبار.

فكر في القرآن الذي سمعه واحتار في أمره واقشعر ، وقدره وقايسه بسائر الكلام من نظم ونثر ، ثم نظر فيما قدر فلم يقدر على شيء يبطل به وحي القرآن حالات ثلاث كلها فكرية قلبية ، فلما لم يجد حيلة عبس في وجهه وبسر ، تدليلا على أنه يواصل في عمق التفكير والتقدير ، وإن كان كذلك ، ولكنه عبس القلب وبسره بعجزه ، ظهر على وجهه وملامحه ، ثم أدبر عما حصل بتفكيره وتقديره ونظره ، واستكبر عن إظهار الحق ، فلم يجد بدا أن يخلطه بالباطل ليستره على الجاهلين وقد ستر.

إن العبس هو قطوب ما بين العينين ، والبسر الاستعجال بالشيء قبل أوانه ، فقد عبس حيث احتار بين أمرين ١ ـ نصوع وحى القرآن فكيف يكذبه ٢ ـ عناده لنبي القرآن فكيف يصدقه ، ولذلك «بسر» : استعجل في حكمه دون أن يتأمل في مغزاه ، أنه سوف يفضحه ، فآثر عاجل دنياه على آجل عقباه ، واستعجل عذابه النفسي هنا بما أبداه من تناقض «سحر يؤثر» قبل أن يأخذه عذابه الشامل يوم الطامة الكبرى.

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ : إنه قتل نفسه بتقديره مرتين : في الدنيا إذ فضح نفسه بما أنتجه من تناقض : «سحر يؤثر» وفي الآخرة إذ يصلى سقر ، وكل ذلك بما قتل ضميره في حكمه الباطل ، رغم معرفته بحق الوحي القرآني ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾.

ف «قتل» هنا وهناك إخبار لا دعاء ، وحاش ربنا عن الدعاء ، فانه ليس إلا لمن يعجز عن الوصول إلى بغيته ، فيدعو غيره ليوصله ، فهل لربنا رب يدعوه؟ .. وإنما كيفية تقديره بما فكره قبله ونظره بعده ، إنها قتلته وفضحته وعذبته ، بما قتل حينذاك ضميره المدرك ، تأمل.

﴿فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾

فما هو السحر؟ وما الذي يؤثر؟

إن السحر هو اصابة السحر : طرف الحلقوم ، ما يؤثر في الإنسان دون اختياره ومن حيث يعمى ، وهو يبطل بسحر مثله أو أقوى ، فأحرى أن يبطل بمعجزة إلهيه ، ومن ميزاته أنه يرهب ويأخذ العين على غرّة : ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (٧ : ١١٦) وان الله يبطله : ﴿قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ. وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٠ : ٨٢) وانه لا يتخطى الخيال إلى العقل ﴿فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى﴾ (٢٠ : ٦٦) وجماع القول في السحر انه لا يفلح فاعله حيث أتى فلا يبقى : ﴿إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى﴾ (٢٠ : ٦٩) ومن آثار السحر التفريق بين الأحبة ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ ولكنه أيضا غير مفلح إذ يبطل بسحر مثله أو معجزة ، فلا يؤثر ويبقى ، وآخر ما توصل إليه الوليد في قولته الباردة إنه سحر : ما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه وهنا استفاد من جهل الجهال بمجرد تشابه التعبيرين : إن الساحر يفرق. وترون هذا أيضا يفرق ويا له من فرق شاسع بين التفريقين ، ما يفرق بما يعمى سببه ولا يبقى ولا يعرف لماذا؟ وهو السحر وأشباهه من الباطل ، وما يفرق مبصرا بسناد البينات الفطرية والفكرية والعقلية ، فإن كان كل مفرق سحرا فليكن العلم والعقل وسائر الكمالات المفرقة بين الناس ، ليكن كل ذلك سحرا ، ولتكن كافة المبادئ والأديان الحقة المفرقة بين المحقين والمبطلين سحرا.

إن القرآن ورسول القرآن يفرقان بين المتحدين في الحيرة والضلال ، ففريق يؤمن وفريق يكفر ، كلّ على بيّنة مبصرة ، إيمانا لبيناته ، وكفرا لشهواته ، دون أن يعمى لهما المصدر والمورد والدليل ، فهل هذا سحر؟ كلا! وكما اضطر الوحيد أن يتبعه ب «يؤثر» يبقى ، ولكنما السحر لا يبقى!.

فمن الفوارق بين السحر والآيات المعجزة أنها مبصرة بينة لا تخفى على العقول

ومفلحة تأخذ بأزمه القلوب دون زوال ، فهل القرآن إذا سحر؟.

«يؤثر» قد تكون «يؤثر» من الإيثار ، أي ـ على كونه سحرا ـ يقدم على غيره ، من السحر ومن الآيات المعجزة ، فلا تتغلب عليها أية محاولة لمعارضته ، إنما «يؤثر».

وقد تكون من الأثر بمعنى البقاء : سحر يبقى! فهو بالمعنيين ليس سحرا ، إذ هو يبقى والسحر لا يبقى ، ويقدم على غيره من سحر ومعجزة ، والسحر يبطل بسحر مثله وبالمعجزة ، إذا فلم ينتج تفكير الوحيد وتدبيره ونظره إلا حكما متناقضا في نفسه.

﴿إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ وهذا صحيح إذا كان سحرا ، ولكنه يؤثر ، فكيف يكون قول البشر ، فهل يوجد من قول البشر ما يؤثر؟!.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ. وَما أَدْراكَ ما سَقَرُ. لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ. لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ﴾.

فكما أن الوليد الوحيد أصلى نارا ليحرق بها وحي القرآن ، ما يزعم أنه يجعله بين الحياة والموت ، موتا بالسحر وحياتا بأنه يؤثر ، كذلك هو سيصلى سقر ، نارا لا تبقي ولا نذر.

وبما أن السقر من سقرته الشمس : لوّحته وأذابته ، فهي أصل النار وأشده في الجحيم ، يصلاها : يوقدها ـ أمثال الوليد من الالداء الأشداء ، رؤوس الكفر والضلالة.

﴿وَما أَدْراكَ ما سَقَرُ﴾؟ انك دريت ما هي ، لكنه بالوحي ، فهي من الشدة لحدّ لا مثيل لها يوم الدنيا حتى يقاس بها ، فهذا تهويل بتجهيل سقر ، ثم يفسرها بمفعولها وبعض ملازماتها :

﴿لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ﴾ : فهي تكنس أهلها كنسا وتمحوهم محوا ، فلا يقف لها شيء على حاله ، فلا تبقيهم أحياء ولا تتركهم يموتون : ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ

الْكُبْرى ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى﴾ (٨٧ : ١٣) حالة وسطى بينهما هي أشد من الموت ، وكما لا تبقي لهم أرواحا ولا أجسادا إلا أحرقتها ، ﴿نارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ (١٠٤ : ٧) دون النار الدنيا الخاصة بالأجساد ، وكما لا تبقي لهم جلودا ولا تذر : ﴿كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ﴾ (٤ : ٥٦) نارا ساحقة ماحقة فيها أشد العذاب وأبقاه ، ومن آثارها :

﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ البشر جمع البشرة ، الظاهر من الجلد ، لأي صاحب جلد واختص الإنسان باسم البشر بين سائر ذوي البشر ، لظهور جلده دونها ، فانها مستورة بالشعر والوبر : فهي أيضا بشر في أصل المعنى ، والبشر هنا في وجه عام يعم كل ذي بشرة ممن تلوّحه النار من جن وانسان وحيوان ، وإن كان يلمح للبشر الإنسان بوجه خاص ، فالبشر هنا عام لكل بشرة وبشر.

واللواحة مبالغة من «لاح» : ظهر ـ فهي لواحة : كثيرة الظهور والبروز ، ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى﴾ (٧٩ : ٣٦) ولائحة كاللوحة ، تلوح فيها أعمالهم الشريرة ، فان النار ليست إلا ظهورا للتخلف عن الهدى والنور بقدره.

وتلوّح البشرة أيضا من «لاحه» العطش ولوّحه إذا غيره ، فهي تسوّد البشرة وتنضجها تغييرا للونها وهيئتها ﴿كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها﴾ فهذه النار هي عذاب مثلث لأهلها ، تثير الفزع في النفوس بنظرها المخيف رؤية لها ، وللأعمال الناتجة هي عنها ، وبأثرها الساحق نضجا وتسويدا للبشرة ، فهل ان لأهلها من خلاص؟ ولات حين مناص! فانها تحت الحراس ، بملائكة غلاظ شداد :

«عليها تسعة عشر» تسعة عشر ملكا ، لا طائفة أو جماعة من الملك ، فان معدود المؤنث هنا غير مؤنث ، فليست امرأة كذلك ، ثم ولا رجلا ، ولأن النار تحرق الإنس والجن ، فليس أصحاب النار منهم بل ﴿وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ

﴿إِلَّا مَلائِكَةً﴾ والملك ليس مؤنثا ، ولا لفظيا ، فليكن هو المعدود لهذا العدد المؤنث ، دون المؤنثات اللفظية والمعنوية.

وهؤلاء التسعة عشر ملكا **﴿مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾** (٦٦ : ٦) ويرأسهم واحد منهم «مالك» فانه يملك النار ويحرسها ببقية الزبانية : **﴿وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ﴾** (٤٣ : ٧٧) وهو ومن معه هم الزبانية : **﴿فَلْيَدْعُ نادِيَهُ. سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ﴾** (٩٦ : ١٨) من الزبن وهو الدفع ، فهم شرط النار الدافعون أهل النار إلى النار ، وهم خزنتها : **﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾** (٣٩ : ٧١).

﴿وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَما هِيَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْبَشَرِ﴾(٣١)

أصحاب النار هنا من يصحبونها حراسة وحفاظا لها وزبانية لأهلها ، فليكونوا ممن لا تحرقهم النار ، ولذلك جعلوا ملائكة فإنهم نور والنور لا تحرقها النار.

ثم انهم ، ذواتهم ، وعدتهم العددية القليلة ، والناقصة عن كمال العدد ، هم

فتنة للكافرين والذين في قلوبهم مرض ، واستيقان وازدياد لإيمان أهل الكتاب والمؤمنين.

إن هذا العدد بالذات ، وكسائر العدد في سائر المواضيع ، مما يثير رغبة الجدال للجاهل المتعنت في قلوب مقلوبة ونفوس مريضة ، لماذا الزبانية تسعة عشر؟.

لماذا هذه القلة القليلة؟ فبإمكاننا نحن الأشداء الأقوياء أن ندفعهم ، وعلى حدّ تعبير قائلهم أبو جهل : «ثكلتكم أمهاتكم اسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة وأنتم الدّهم ، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم»؟ [1] فهذا الوغد النكد خيل إليه أن التسعة عشر رجال ، وهم ملائكة وعلى قلة عددهم أقوياء عددا! على حدّ قول الرسول الأقدس (ص): «كأن أعينهم البرق ، وكأن أفواههم الصياصي ، يجرون أشفارهم ، لهم مثل قوة الثقلين ، يقبل أحدهم بالأمة من الناس يسوقهم ، على رقبته جبل ، حتى يرمي بهم في النار ، فيرمي بالجبل عليهم» [2].

إنما هنا وهناك العدد الإلهية تعمل كما يريد الله ، وليست العدة ذات أهمية ، بل ولا أصل الجنود ﴿وَما هِيَ إِلَّا ذِكْرى لِلْبَشَرِ﴾ فالعدد أيا كان إنه فتنة لهؤلاء الأوغاد المناكيد ، تسعة عشر أو عشرين ، أو زد عليها ما شئت ، فان المجادل الجاهل لا يقف لحد في الجدال ، فالعاقل إنما يجادل من يجوز عليه الجهل ، مع علم مسبق له نفسه ، وبرهان قاطع يتنافى والخبر الجديد ، وأما الناكرون للجحيم وزبانيتها ، والنار وحدودها ، فكيف لهم الجدال مع نسّاق الوجود ، العالم بالعدد والمعدود والحد والمحدود؟ كأن لهم العلم بحد العدد وهو الجاهل ، أو هم

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٨٤ ـ اخرج ابن جرير عن ابن عباس قال لما سمع ابو جهل ﴿عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال :

(٢) المصدر اخرج ابن مردوية عن ابن عباس قال حدثت ان النبي (ص) قال :

القادرون على هذا العدد ، القليل في زعمهم ، وهو العاجز عن أن يزيدهم بعدد أو يقويهم بعدد!

كلا ـ إن هذا العدد كسائر الأعداد في سائر المواضيع ، يتمكن الجاهل الغبي أن يعترض على أي منها يشاء ، دون برهان على خلافه قائلا : لماذا السماوات سبع؟ لماذا حمل الجنين بين ستة أشهر وتسعة ، لماذا الصلوات اليومية سبع عشر ركعة ولماذا؟

والجواب أن خالق الخلق ومدبره يريد ويفعل ما يريد ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ﴾.

فلو جعل عدد الزبانية تسعة عشر ألفا أو مليونا أو مليارا أو ما زاد ، لقالوا لماذا لم يجعل عشرين ألفا أو ما زاد : ولو جعلهم عشرين ألفا أو ما زاد لقالوا لماذا لم يجعلهم أكثر أو أقل.

ولو لم يجعل للجحيم زبانية لقالوا : إله عاجز بلا جنود ، فهم؟؟؟ أينما وجهوا ، فالله تعالى إنما يجعل الزبانية تسعة عشر فتنة للضالين ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ، وإيقانا لأهل الكتاب بما لهم من خبر مسبق عن هذا العدد في كتبهم وازديادا لإيمان المؤمنين ، كما يزدادون بغيرها من آيات الله البينات ﴿وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٨ : ٢٢) فكل مقالة من ربهم يزيدهم إيمانا ، لتفتّح قلوبهم وانشراح صدورهم ، ولأن كتب الوحي المسبقة تصدق هذا العدد ، وانه لو لم يكن وحيا من الله لما اختاره محمد (ص) وهو أعقل العقلاء ، فهل ليثير الهزء والهراء من الكافرين والذين في قلوبهم مرض؟ .. ولأن قلة الزبانية تدل على كثرة القدرة الإلهية ، وما الجنود إلا ذكرى للبشر ، دون حاجة من الله إليها ، وكما تصدقه سائر الجنود من الطير الأبابيل التي رمت أصحاب الفيل ، ومن القمل والجراد والضفادع التي قضت على آل فرعون ، وأمثال هذه وتلك مما لا يحسب لها حساب في كيانها ، وإنما تتغلب بحساب الله

لكي يدركوا جانبا من القدرة الإلهية ومن ضعفهم وجاهها.

﴿كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ : يضل الكافر المعاند بما يهدي به المؤمن المحايد ، دون فرق في الحجة بين الفريقين إلا بما يسعى : ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ﴾ : ضلالا ثانيا ناتجا عن ضلال أول : ﴿فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (٦١ : ٥) كما الهداية الثانية ناتجة عن هداية أولى وإيمان : ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدىً﴾ (١٨ : ١٣).

فقد كشف الله لعباده عن طريقي الهدى والضلال ونجديهما كالشمس في رابعة النهار ﴿وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾ فحدد لنا نهوجا نسلكها فنهتدي بها ، وأخرى ننحرف إليها فنضل ونشقى ، اختيارا دون إجبار : ﴿فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ دون تسيير على الشكر أو الكفران ، إلا أنه تعالى فطر الناس على طلب الهدى ، فمن فسق عن فطرته التي فطره الله عليها ضلّ ، ومن تبناها في الحياة ، مستوحيا في استقامتها وحي السماء فقد نجى وزاده الله هدى.

إن الذين في قلوبهم مرض لم يكونوا ليعقلوا أن هذا العدد تعبير عن واقع الزبانية ، إذ حسبوه مثلا ، ثم اعترضوا عليه كمثل ﴿كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ من شاء الضلالة وزاغ عن الحق أزاغ الله قلبه وختم عليه ، ضلالة ثانية بالاختيار ، ومن شاء الهداية وتحراها هداه الله ، هداية ثانية بالاختيار ﴿وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

﴿وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ فانها غيب كلها في كيانها ، وفي عددها وعددها ، إلا ما كشف الله لنا عنها ، سواء أكانت جنود إنسية أو جنية أو ملكية أم سواها من حيوان وسواه ، فلا يعلمها إلا هو ، إلا ما كشف لنا عنها كما كشف عن عدد جنود سقر ، الزبانية التسعة عشر ، عن عددهم دون عددهم ، فما عرّفناه عرفناه وآمنّا ، وما جهلناه سكتنا عنه وآمنا ، كسائر الجنود

الربانيين وكما يحدث الرسول (ص) عن بعضهم إذ شاهدهم ليلة المعراج [١].

﴿وَما هِيَ إِلَّا ذِكْرى لِلْبَشَرِ﴾ فكما الله باين عنا في ذاته وأفعاله وصفاته ، كذلك في جنوده ، فالجنود لمن سوى الله ناصرة لأصحابها ، بما أن أصحابها قاصرة بدونها ، فكلما كثرت الجنود ازدادت أصحابها قوة وشوكة ، وكلما قلت ضعفت وانهارت ، وتعاكسها جنود الله ، فإن كيانها بعددها وعددها ليس نصرة لله ، وإنما ذكرى للبشر بما يأنسها البشر ، فان البشر لا يتذكر في الأكثر إلا بما يباشره حسّه ، فالجنود ذكرى لهم بعذاب ملموس بما تعودوها في حياتهم ، فواقع الجنود بذكراها أدخل في النفوس ، وأرهب للقلوب من قدرة تجردية إلهية غير ملموسة بنفسها.

إذا فلا التسعة عشر تنبئ عن عجزه تعالى عن تكميلها ، ولا أصل الجنود تنبئ عن حاجته إليها ، وإنما هي بعددها وعددها لحكم شتى عرّفنا الله تعالى طرفا منها وليذكّر أولوا الألباب.

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٨٤ ـ اخرج الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد الخدري ان رسول الله (ص) حدثهم عن ليلة الاسراء قال : فصعدت انا وجبريل الى السماء الدنيا فإذا بملك يقال له إسماعيل وهو صاحب سماء الدنيا وبين يديه سبعون الف ملك مع كل ملك منهم جنده مائة الف ـ وتلا هذه الآية ﴿وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

﴿كَلاَّ وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ
(٣٥) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ
رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) ما
سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا
نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَما تَنْفَعُهُمْ
شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ
مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً (٥٢) كَلاَّ بَلْ لا يَخافُونَ
الْآخِرَةَ (٥٣) كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَما يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ هُوَ
أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾(٥٦)

* * *

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ. وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ﴾.

﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وتنديد شديد بما تقدم من أوهام خابطة وأقاويل حابطة ،

إن القرآن سحر يؤثر وهو قول البشر ، وإن الزبانية التسعة عشر هراء اسطورية وأن سقر خيال يؤثر عن أساطير الأولين.

﴿كَلَّا﴾ ليس كما يزعمه الزاعمون ويتقوله القوالون ، ﴿وَالْقَمَرِ ...﴾ : .

قسما بالقمر الزاهر في قلب السماء ، بمشاهدة وجلواته ، وقسما بالليل حين يدبر ، إدبارا من ظلامه بالقمر ، وعن كيانه بانصرام ساعاته ، وقسما بالصبح إذا اسفر عن وجهه بادبار الليل ، ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ : إن الآيات القرآنية لإحدى الآيات الكبرى الإلهية وكبراها ـ ان سقر لإحدى الآيات المنذرة هنا بذكراها ، وبعد الموت بواقعها ـ إن التسعة عشر لإحدى الطوائف من جنود ربك الكبر!

فكما القمر حينما يظهر يزهر ويخفف عن وطئة الظلام ، ثم يساعده تصرم الليل وانحداره فيدبر الليل تماما إذ يهاجم بعسكر الشمس والقمر ، القمر في قلبه والشمس تمده حين انحداره ، فإذا الصبح يسفر.

كذلك الأقمار الزاهرة والآيات الباهرة القرآنية ، إنها حقائق نورانية ثابتة تتقدم ، تزيل الظلام عن أجواء القلوب المقلوبة والأفكار المظلمة ، ثم هي في تقدم وانبهار ، كما الظلام في تأخر وانصهار ، يدبر الليلة الظلماء شيئا فشيئا ، إلى أن تصل نور القمر بضياء الشمس في الصبح إذا أسفر ، صبح العدالة الإنسانية على ضوء شمس الهداية المهدوية ، إذ تزول كافة الغيوم عن وجه الآيات المنيرة القرآنية في دولة القائم المهدي عليه السلام فيملأ الأرض قسطا وعدلا بعد ما ملئت ظلما وجورا.

فكما أن مشاهد القمر والليل إذا أدبر والصبح إذا أسفر ، أنها ظاهرة للبصر كذلك مشاهد الآيات القرآنية ظاهرة للبصائر ، للأفكار الصافية والقلوب الضافية ، تغسل القلوب كما لو كانت تستحم بالنور ، فهي هي بذواتها تشهد لذوي البصائر أنها إلهية وليست سحرا يؤثر ، وإنما معجزة تؤثر وتبقى حتي تشمل العالم كله في الصبح إذا أسفر : صبح الدولة الاسلامية زمن قيام القائم المهدي (ع).

قسما بهذه الشواهد الكونية ، إن الآيات القرآنية لإحدى الكبر ، هي الوحيدة بين آيات الله الكبرى ، فإن الآيات المعجزات لمن سبق من الرسل كانت وقتية بصرية وقد زالت ، على كونها كبيرة في وقتها ومغزاها ، ولكنما القرآن آية خالدة تجري كجري الشمس ، ويشرق على قلوب وأفكار المكلفين ما طلعت الشمس وغربت ، فهو شمس لا تغرب ، بل وتزداد نورا وبهورا على مرّ الدهور ، وانها تفك النفوس عن رهانة الأعمال الأغلال التي تسوقها إلى سقر.

﴿إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ. نَذِيراً لِلْبَشَرِ﴾ فالقرآن نذير بشير ، والسقر نذير ، والتسعة عشر نذير للبشر :

﴿لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ فهذه النذارة الإلهية من القرآن ومن سقر وتسعة عشر ، انها للبشر كل البشر ، مخيرا دون مسير : ﴿لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ﴾ اختيارا للتقدم فنعمّا ، أو للتأخر فبئسما : ﴿أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾. ﴿فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

لقد هيّأ الله دوافع تقدم الإنسان الى المثل العليا بالفطرة التي فطر الناس عليها ، وبالعقول المتصلة واخرى منفصلة هم رجالات الوحي ، فمن شاء تقدما في فطرته وعقله على ضوء السنن الإلهية ، الكونية والتشريعية ، فحسبه القرآن هاديا له وسراجا منيرا ، ومن تخلف عن ذلك كله وانحاز الى الشهوات والمغريات فهو المتأخر عما هيأ الله له فلا يلومن إلّا نفسه : ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ ان رهانة النفوس بأعمالها ضابطة عامة تعم المكلفين أجمع ، وإن كانوا مؤمنين بعضا ، إلا أصحاب اليمين ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (٥٢ : ٢١) رهانة معتدلة قابلة للتخفيف لمن آمن مهما أخطا وعصى ، ورهانة مؤكدة لغير المؤمن وكما يوحيها «رهينة» فانها ليست هنا للتأنيث ، لاستواء المذكر والمؤنث في الفعيل ، بل للمبالغة ، فمن النفوس رهين ومنها رهينة ومنها غير رهين كأصحاب اليمين ومن فوقهم ، فإن لهم

نفوسا قدسية ، فلا ترهن بأعمالها ، ولا يسأل عنها ، لأنها ما كسبت في إيمانها وأيمانها الا خيرا فأصبحت خيرا في ذواتها ، لا يقدر ثوابها بأعمالها.

والنفس هنا تعني كلا الروح والجسم ، وكذلك ما كسبت ، تعم مكاسبها الروحانية والجسدانية ، وإن كان الجسد لا يعمل إلا على ضوء الروح ، ولكنما الروح قد تكسب مكاسب مجردة بلا وسائط ، كالعقيدة والإيمان والنيّة وأضرابها ، فهي تثاب بها أو تعاقب كما سعت ، وقد تكسب بواسطة الجسد كسائر الأعمال الجسدانية ، فهي تثاب أو تعاقب بواسطة الجسد ، والمدرك في كلا الحالين هو الروح ، والرهن يعم الكسبين ، ولا سيما أن الكاسب هو الروح في الحالين.

فالنفوس كلها ، إلا أصحاب اليمين والسابقين ، انها رهينة بمكاسبها ، خيرة وشريرة : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ (٣ : ٣٠) تجد خيرها وشرها سواء ، فتجزى بهما على سواء ، إلا أصحاب اليمين وأحرى منهم السابقين المقربين :

﴿إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ. فِي جَنَّاتٍ ..﴾ صحيح أن من أصحاب اليمين من لا يخلو عن سيئات ، ولكنهم متحللون عن رهانتها برجاحة الحسنات : ﴿إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ﴾ (١١ : ١١٤) فسيئاتهم مكفرة بكبائر الحسنات وبترك كبائر السيآت : ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ (٤ : ٣١) بل ومنهم من يبدل الله سيئاتهم حسنات : ﴿إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ﴾ (٢٥ : ٧٠).

فهؤلاء سوف لا يرون ولا يجدون سيئاتهم يوم العرض في الميزان لأنها كفرت أو بدلت حسنات ، فلا ترهن نفوسهم بالسيئات ، والحسنات لا ترهن وتقيد نفوس أصحابها ، وانما تحرّرها عن السؤال ، وعن حدود مقررة لها ، فلهم جزاء بلا حساب وفوق الحساب.

ان التقسيم الثلاثي الذي تحمله آيات عدة ، يجعل المؤمنين غير التائبين ، ومن

لم تكفر سيئاته ، يجعلهم في أصحاب الشمال ، فليس اصحاب الشمال هنا على سواء ، وإنما هم المرهنون بأعمالهم ، سواء المخلدون في النار ، أو الناجون عنها بعد أمد قريب ام بعيد : ﴿فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ. وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ. وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٥٦ : ١٤) ﴿فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ. فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ. وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ. فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ. وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ. وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ (٥٦ : ٩٣) فالفريق الأخير من أضل أصحاب الشمال ولا يشملهم كلهم فان منهم : آخرون ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ (٩ : ١٠٢) وإذا رجحت سيئاتهم أم لم تكفر بحسناتهم فسبيلهم الأخيرة هي النجاة من النار.

ثم أصحاب اليمين. وأحرى منهم السابقون المقربون. هم ليسوا رهائن مكاسبهم ، فهم ـ ولا سيما الآخرون ـ ليسوا من المحضرين للحساب ، فإنهم فوق الحساب : ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ. إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٣٧ : ١٢٨) فقد استقروا في مستقر العبودية فبماذا يحاسبون؟ وأصحاب اليمين منهم كفّرت سيئاتهم بحسناتهم أو بدّلت حسنات ، فعلى م يحاسبون؟ :

﴿إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ. فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ. عَنِ الْمُجْرِمِينَ. ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾.

﴿يَتَساءَلُونَ﴾ جميعا ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ تساؤل صاحب الشأن المفوض في الموقف ، سؤال تبكيت وتجهيل وتخجيل ، وليسمع الجواب من في الموقف ، ويتذكره هنا من يقرء القرآن ويسمعه.

﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ وهم من المرهونين بما كسبوا ، فالإجرام قطع الثمرة عن الشجرة ، فهم الذين قطعوا ثمرات الحياة ولم ينتفعوا منها ، قطعا بعد إيناعها كمن آمن ثم كفر ، أو قطعا عن نموها وإيناعها كالذين تخلفوا عن هداية الفطرة

والشريعة ، فإذا قطع الإنسان عن نفسه : عن شجرته الانسانية ـ ثمرات حياتها ، فقطع نفسه عن الصلة المعرفية بالله ، فهذا مقطوع عن الخير كله وكان مصيره سقر :

﴿ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ ما أنفذكم في سقر فلم تنجوا عنها بتوبة ولا شفاعة ، ولم تكفر عنكم سيئاتكم فأنفذتكم في سقر؟

هنا نجد الجواب شرحا لمدى الإجرام السالك صاحبه في سقر :

﴿قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ. حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ﴾ :

هذه هي جماع الأسباب لسلوك سقر لجماع المجرمين ، مهما اختلفوا في جمعها كما في أتعس المجرمين ، أو بعضها ، واحدة أو أكثر ، فان الجواب للجميع وليسوا على نسق واحد في الإجرام ، فالمجرمون دركات ، كما أن أصحاب اليمين درجات والسؤال لأصحاب اليمين أجمع عن المجرمين أجمع ، فليس العطف هنا بين الأربع يوحي لاشتراط الجمع بينها في سلوك سقر :

﴿قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ فالصلاة ـ في نظرة عميقة ـ هي الإيمان كله ، فالخارج عن زمرة المصلين خارج عن زمرة المؤمنين ، مهما كان مقرا بالشهادتين ، ولذلك نجدها مع إيتاء الزكاة من شروط قبول توبة المشركين : ﴿فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ (٩ : ٥) ... ﴿فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ (٩ : ١١) فالخروج عن الشرك والكفر ، والدخول في الأخوة الدينية هما مربوطان بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ : من زكاة أو صدقات أخرى : ضرائب مستقيمة وسواها ، فالزكاة ، في العلاقات البشرية اسلاميا ، هي أخ الصلاة في العلاقات العبودية ، قد لا يعتبر تاركها مسلما : ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ﴾ (٤١ : ٧).

صحيح أن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة هما من فروع الدين ، ولكنهما كالأصول ،

لأنهما أول ما يبرز وأبرزه ممن يعتنق الإسلام ، فليحكم على تاركها بالكفر واقعيا وإن كان مسلما عقائديا.

إن الزكاة هي عبادة الله في خلقه بعد عبادته في ذاته ، فتركها مع ترك الصلاة ترك لعبادة الله من جهتين ، وهو يدفع بالإنسان ـ لا محالة ـ إلى نكران أصول الدين ، بالخوض مع الخائضين المستهزئين برب العالمين ورسله ، والتكذيب بيوم الدين :

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ﴾ : الخوض لغويا هو الشروع في الماء والمرور فيه واستعير للغور في الباطل ، تصديا له ونكرانا للحق ، وهذه هي حالة الاستهتار بأمر العقيدة وأخذها مأخذ الهزل واللعبة دون مبالاة.

فمن الخائضين من يخوض قصدا وعنادا وعتادا على الحق وهم أصول الضلالة ، الذين يعيشونها حياتهم ، ويضللون من سواهم : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بِها وَيُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَالْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾ (٤ : ١٤) فالذين يخوضون مع الخائضين هم هوامش الضلالة ، وحالهم كالأصول ومصيرهم إلى جهنم جميعا ، فالخائض في آيات الله هنا يخوضها كفرا واستهزاء ولعبا بها ، بدل أن يغورها تعمقا وتأنقا وتدبرا : ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ (٥٢ : ١٢) ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٧٠ : ٤٢) ، فمنع الخائضين في آيات الله فرض ، والقعود معهم سكوتا دون نكير حرام ، ومسايرتهم والتأثر بفعلتهم كفر : ﴿وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٧ : ٦٨).

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ وهو من نتائج الخوض ، وهو من أخطر الاستهتار ، إذ يحرر أصحابه من عبء التكاليف الإلهية ، وهو مبدء الإباحية المطلقة فهو من أشر وأخطر الكفر ، مهما اعتنق صاحبه عقيدة الإله فانه أمّ

البلاء ، إذ تختل جميع الموازين في يدي صاحبه ، وتضطرب كافة القيم والمثل في تقديره لمجاله القصير الصغير إذ لا يدين بيوم الدين ، فتفسد مقاى يسه ليوم الدنيا والدين ، خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

فهم لا يزالون شاكين في الدين ويوم الدين ، يعيشون الشك والنكران والحياة المنكرة والمعيشة الضنك حتى الموت الذي ينقلهم من الشك إلى اليقين :

﴿حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ﴾ : الموت الذي لا محيد عنه وهو يقين للمؤمن والكافر سواء ، والذي يقطع كل شك وريبة فيجعل الكافر الناكر للدين ويوم الدين على يقين ، والذي يقطع الآمال الكاذبة والشكوك الحائلة دون التصديق بما في يوم الدين ، فاليقين هنا يعم علم اليقين وعين اليقين الحاصلين بالموت ، وواقع اليقين بالموت قبل الموت ، فطوبى لمن مات قبل موته : موتوا قبل أن تموتوا فحصل على اليقين الدافع إلى الصالحات قبل الموت ، قبل أن يضطر إلى اليقين بواقعه بعد الموت ، فيسمع نداء التنديد التجهيل : ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

فليس اليقين هو الموت ، وإنما يحصل بالموت لمن لم يحصله قبل الموت ، والموت نفسه أيضا من مصاديق اليقين إذ لا ينكره نفسه أحدا ، وإنما النكران لما بعده من حياة برزخية وحياة خالدة بحساب وجزاء وفاق.

ومما يحصّل اليقين ويزداده ، مواصلة العبادة : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (١٥ : ٩٩) ونهاية المطاف لليقين الحاصل والمتكامل بالعبادة ، هي الموت ، فليس الموت هنا أيضا هو اليقين ، وإنما هو نهاية اليقين بالعبادة ، ومن ثم بداية لليقين دون عبادة إذ يكشف الغطاء فيزداد الموقف يقينا ويدخل العابد في نفس اليقين.

ومن كانت تلك النكرانات سيرته العقلية والعقائدية والعملية في الحياة ، لا تصله شفاعة الشافعين ولا تجديه ، إذ إن الشفاعة مبدئيا تكميل الناقص بشفع الكامل إن اذن الله ، فهي للمتوسطين في الإيمان عقيدة وعملا ، لا المتحللين عنه كهؤلاء المذكورين :

﴿فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ : فطالما هناك شافعون ، ولكنهم ﴿لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى﴾ هـ ـ الله : من ساءته سيئته وحسنّته حسنته ، من يعيش بين الخوف والرجاء ، فحياته مبدئيا ايمانية ، طالما يقصر أو يقصّر أحيانا ، دون من يبدءون بمبدإ اللاإيمان ، وينتهون الى الموت مجرمين : تاركين الصلاة مع التاركين ، وتاركين إطعام المسكين ، وخائضين في النكران مع الخائضين ، مكذبين بيوم الدين.

﴿فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ :؟! ما لهم؟ ما داءهم وما دواءهم ، في حالتهم البئيسة التعيسة ، انهم فقط [1] ﴿عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ : عما يذكرهم الله ونعم الله وأيام الله ، من نبي الله وكتاب الله وسائر آيات الله التي هي ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، فهم حالهم : ﴿عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ والى سواها : التلهية عن الذكرى ـ مقبلين ، فقلوبهم منكوسة ، وابصارهم مطموسة ، وحياتهم مركوسة ، أجسادهم أجساد الآدميين وأرواحهم أرواح الحمر المستنفرة الشياطين :

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ. فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾

فالحمر المستنفرة هي حمر الوحش ، التي هي طبعها الوحشة والاستنفار من كل متحرك او ساكن ، فكيف بقسورة : من أسد او صائد ، تأخذ في الاستنفار في كل اتجاه حين تسمع زئير الأسد او حين تراه وان لم يأسد ، تنبثّ هنا وهناك كالفراش المبثوث ، ما يثير الضحك ويفكه من هذه الحركة الجنونية ، وكما تستنفر حين يرصدها الصائد.

---

(١) فتقديم الظرف «عن التذكرة» يوحي بحصر المظروف «معرضين» فيه ، فلا يعرضون الا عن التذكرة الإلهية.

فمشهد هؤلاء الحمر الإنسية في الاستنفار مشهد الحمر الوحشية وأضل سبيلا ، إذ يعرضون عن الصائد التذكرة ، الذي يحاول صيدهم عن حياة التباب إلى حياة الصواب ، فالنبي صياد يرصد الضالين ليصيدهم بالتذكرة.

ولما ذا يعرضون مستنفرين عن قسورة الوحي ، الأسد الضرغام الذي يأسد في صيده ، لا ليأكل صيده ، وانما لينجيه ، فالأنبياء قساورة صيادون ، يصيدون البهم الضلال بقوة الذكرى والبرهان ، بكل مناعة وأمان.

فإذا الحمر المستنفرة ، تفر من قسورة ، خوف الصيد الفاتك والافتراس المهلك ، فهي لا تلام في استنفارها ، وان كانت زائدة النفرة عن حدها ، فهؤلاء الحمر الإنسية يفرون معرضين عن قسورة التذكرة ، الناصحة ، التي تذكرهم بربهم ومصيرهم ، فأين حمر من حمر ، وأين قسورة من قسورة؟؟

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً بَلْ﴾ :

ام ـ ذلك الشماس والنفار عن تذكرة محمد الرسول وقرآنه ـ ليس فرارا عن التذكرة كتذكرة ، وإنما استكبارا على حامل التذكرة ، انه بشر مثلنا ، فلما ذا يفضل علينا بوحي التذكرة : ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا ..﴾ فليوح إلى كلّ منّا : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ (٦ : ١٢٤).

فمن استكبارهم ﴿يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً﴾ من الوحي تختصّه «منشرة» معلنة لهم ولمن سواهم : رسالات مستقلة فردية مستغلة ، فيها ما يهوون ، طبعا وشرائع متفاوتة متهافتة تفاوت الأهواء وتهافت الآراء.

فلو ان كلا يحوى ما يحويه الكل لوحدة الشرعة في الكل كما القرآن ، فلا كثرة هنا كما ليست هناك ، فليكتب كل نسخة من القرآن ككتاب اليه ، ولكنهم لا يريدون وحدة الرسالة والشريعة.

ولو أن كلّا يناحر الآخر في محتواه ، فليست هكذا الشرعة الإلهية ، ولأمة واحدة ، وبل وللأمم أجمع ، حيث الدين واحد ، والشرايع الى الدين في جذورها واحدة ، مهما اختلفت في بعض الصور وفي البعض من الصور.

فالشرعة الإلهية تعني توحيد الحياة بسلوكها إلى مرضاة الله وصالح الناس ، حيث تزيل خلافات الناس ، لا لتزيد خلافات على خلافات ، ظلمات بعضها فوق بعض وكما يريدها هؤلاء الناس!

وليكن حاملو الشريعة من أصفى الأصفياء بين الناس ، وليتلقوا ، ويلقوا شريعة الله إلى الناس ، ويطبقوها كما يريده إله الناس ، فكيف يتحمل شريعة الله كرسل ، أناس هم أشر من نسناس ، يستكبرون على رسل الله ، ويتحكمون على رسالات الله ، ويقتسمون فيما بينهم رسالة الله ، كأنها مال يغنم.

﴿كَلَّا بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ﴾ .. كلا : ليس الأمر كهذه وتلك وإن تفوهوا بها وادعوها ، فلا فرارهم عن التذكرة لخوفهم عنها ، ولا ان كل امرئ منهم يريد ان يؤتى صحفا منشرة ، حتى يعمّروا على ضوءها الحياة الدنيا والآخرة : ﴿كَلَّا بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ﴾ هذا داءهم وبلاءهم مهما تلونوا وجاه الرسالات بألوان الاعتذارات ، فالذي لا يخاف الآخرة إذ لا يؤمن بالله ، انه لا يريد خطاب الله وشرعة الله كيفما كانت وحيثما نزلت.

﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ .. كلا : ليس كما تهوون ، كردع ثان لما يهوون : أن يؤتى كل امرئ منهم صحفا منشرة ، فالقرآن تذكرة وليست لعبة مقسمة بين اللاعبين ، تذكرة جماعية يحملها أول العابدين ، وليست فردية انقسامية يحملها الفوضى ناس ونسناس ، ليزيدوا في خلافاتهم ورعوناتهم وفخفخاتهم.

تذكرة تمشي مع المتذكرين باختيار ، ولا تمشّيهم بتسيير واضطرار :

﴿فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ﴾ : من شاء التذكرة ذكره : القرآن ونبي القرآن. فمن يذكر التذكرة دون ان ينفر عنها كالحمر المستنفرة ، فانها له تذكرة وتهديه الى الله.

وترى انهم يذكرون تذكرة الله دون مشيئة الله ، وبمشيئتهم أنفسهم فحسب ، كما قد يوحي به ﴿فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ﴾ أم انه فقط بمشيئة الله؟ :

﴿وَما يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ :

فهنا مشيئتان ، من الناس أن يذكروا ذكرى الله ، ومن الله أن يؤيدهم في ذكراهم ، ف لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين دون تدافع أو صدام بين أمرين : مشيئة الله ومشيئة الناس ، وإنما تلاؤم ووئام ، ولكنما المشيئات كلها مشدودة الى مشيئة الله ، يمضي في اتجاهها وفي داخل مجالها ، وكما يناسب عدله وفضله ، دونما تسيير وإجبار ، وإنما في يسر واختيار ، اللهم إلا فيما لا يعاقب عليه أو يثاب ، مما هو خارج إطلاقا عن نطاق الاختيار.

كما ولا يشاء الله الذكرى إذا لا يشاءون ، لا أنهم لا يشاءون ويشاء الله فهم يغلبون. إذا ـ مشيئة الله!

فمن يعلم الله منه انه يشاء ان يذكر ذكر الله ، فهو يذكره بمشيئة الله ، فان الله يسبقنا في حسناتنا ، ومن يعلم انه لا يشاء فلا يشاء الله ذكراه ، ويذره في غيه يمرح ، وفي طغيانه يعمه ، فإننا سابقون الله في سيئاتنا ، وهو سابق في حسناتنا إذ يشاء حسناتنا فيؤيدنا ، ولا يشاء سيئاتنا حتى يدفعنا لها.

فهنالك الأصل مشيئة الله تحوّل مشيئة الصالحات الى تأكدها فواقعها ، ثم لا تحوّل مشيئة السيئات لشيء منها إلا تركا وإعراضا ، طالما السيئة أيضا لا تتحقق أخيرا إلا بمشيئة الله ، ولكنها مشيئة أخيرة ضرورية للواقع ، لولاها لم تحصل أية سيئة ، لوحدة الالوهية ، ولكنما المشيئة للحسنات تصاحب

أصحابها على طول الخط ، وللبحث الفصل عنها مواضيع أخرى نأتي عليها في طيات آياتها.

﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ : فإذا اتقي يغفر كما اتقي ، يقول الله : أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي شريك ، فإذا اتقيت ولم يجعل معي شريك فأنا أهل أن أغفر ما سوى ذلك [1] وطبعا لمن يشاء دون فوضى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾.

فليتقى الله في ألوهيته فلا تنكر ، وفي وحدته فلا يؤخذ له شريك ، وفي طاعته فلا يعصى ، ثم ولكل تقوى مغفرة عن كل طغوى قد تخالطها ، وتوحيد الله هو الأم في درجات التقوى ، كما الشرك هو الأم في دركات الطغوى ، ثم بعدهما درجات ودركات.

فمن يذكر ذكر الله ، فانه في سبيل تقوى الله ، ومهما يكن قاصرا أو مقصرا في تحقيق ذكر الله وذكراه ، تفهما وتطبيقا ، فان الله كما هو أهل التقوى ، كذلك هو أهل المغفرة ، يغفر للمتقين ، فيغفر قصورهم وتقصيرهم ما داموا هم على الطريقة ، أهلية المغفرة تلو أهلية التقوى ، جزاء وفاقا وعطاء حسابا.

---

(١) الدر المنثور.

سورة القيامة ـ مكية ـ وآياتها أربعون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ (١) وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ
عِظامَهُ (٣) بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ (٥) يَسْئَلُ
أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ (٦) فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩)
يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلاَّ لا وَزَرَ (١١) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢)
يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقى
مَعاذِيرَهُ (١٥)﴾

﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ. وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ :

إنه تصريحة باللّاقسم وتلويحة بالقسم كسائر اللّاقسم في القرآن [1] ان يوم القيامة والنفس اللوامة يصلحان أن يقسم بهما للصالحين المؤمنين بالقيامة ،

---

(١) راجع ص ١٥٩ من الجزء الثلاثين : «فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ».

الحاملين النفس اللوامة ، فهما يدلان أصحابهما الى إمكانية وضرورة جمع العظام وتسوية البنان ليوم الحساب.

فلا معنى للقيامة الحقة ، حسب الأدلة الواقعية والعقلية ونصوص الوحي ، إلا قيام الأجساد من الأجداث وعود الأرواح إليها للحساب والجزاء الوفاق ، وقيام الأشهاد وقيام الناس لرب العالمين ، فالقيامة المجردة عن حشر الأجساد قيامة جرداء عن أهم معانيها ومغازيها.

وناكروا حشر الأجساد والحساب لا يصدقون بقيامة الحساب حتى يقسم لهم بها تصديقا إلزاميا ، وان كانوا يلهجون بها تعنتا ﴿يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ﴾ لكنها كلمة جوفاء عن أهم معانيها : جمع العظام والحياة الحساب ، إذا ف ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ لمن ينكر حقه مهما لهج بلفظه.

والنفس اللوامة ـ كذلك ـ كيوم القيامة ، تشهد للحياة الحساب ، فالنفوس على ضروب شتى : منها قدسية مطمئنة بالله ، راضية عن الله ، فمرضية عند الله ، فهي لا تلوّم أصحابها إذ لا تقصّر عامدة معاندة ، مهما قصرت عما يحق لساحة الربوبية ، فقد تلوم لقصورها دون تلوّم ، فهي دائبة في طاعة الله ، مستزيدة لمرضاة الله كالسابقين والرعيل الأعلى من اصحاب اليمين ، وهؤلاء حياتهم الذكر ، ليسوا بحاجة الى القسم بيوم القيامة والنفس اللوامة ، فانها لهم مطمئنة.

ومنها بهيمية مطمئنة الى دركات الهوى ، معرضة عن الهدى : ﴿وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها﴾ (١٠ : ٧) وقد تبلغ من الشراسة والشماس لحدّ تلوّم أنفسها وسواها لو فعلت خيرا أو اهتمت بخير ، فهؤلاء لا ينفعهم القسم بالنفس اللوّامة إذ فقدوها إلى خلافها.

ومنها لوّامة غير مطمئنة لا الى الله ولا الى اللهو ، عوان بين ذلك ، قد تطيع ربها فتطمئن ، وقد تعصي وتشرد فتلوّم نفسها ، فهي الى خير ما دامت لوّامة تندم وتندّم أصحابها ، تلوّم العقل لو ارتاب في الحساب العدل ، وتلوّم نفسها في جوارحها لو عصت أمر ربها ، فهي ضابطة لعقيدة الايمان ،

رابطة به عمل الايمان ، ولذلك يحق ان يقسم بها كبرهان على قيام الأجساد يوم الحساب للجزاء العدل.

فليقسم بيوم القيامة لمن يعتقده ما لم يصل الى علم اليقين وما فوقه ، وليقسم بالنفس اللوّامة لمن يحملها حتى تذكرة وتحمله الى ذكرى جمع العظام وتسوية البنان.

وأما الناكر ليوم القيامة الحقة ، والفاقد للنفس اللوّامة ، الضاربة الى اعماق ذاته النفس الامارة بالسوء ، فكيف يقسم له بيوم القيامة والنفس اللوامة؟ وقد ظل مرتكسا في الشهوات وغارقا في اللذات.

وإذا كان اللّاقسم هنا يعني به القسم خلاف الصحيح والفصيح ، فأين جواب القسم؟ لا نجد جوابا إلا أنه لا قسم يلمح بالقسم ، ربا له جمعا ما ألطفه!.

هنا ـ لإثبات حشر الأجساد وقيامها من الأجداث يكتفى بسؤال لائح الجواب عند فاقدي الدليلين ، ما لم يفقدوا التمييز تماما :

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ﴾ : أفهذا الإنسان الهزيل الذليل يحيل لنا جمع العظام : ﴿أَلَّنْ نَجْمَعَ﴾ إحالة التجهيل : أنها ضلت في الأرض فكيف تجمع : ﴿وَقالُوا : أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٣٢ : ١٠) أم إحالة التعجيز : ﴿وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٢٦ : ٧٨) أم لا ذا ولا ذاك وانما يفتري علينا الظلم ، أننا لا نحشر شيئا رغم الظلامات القاتلة يوم الدنيا ، غير المجازى عليها فيها! أم نحشر الأرواح دون الأجساد ، رغم انهما كانا شريكي الأعمال خيرة وشريرة ، فكيف تحرم الأجساد من ملاذها ، أو تعفى عن عذابها؟ كل ذلك خيالات شرسة وليست محالات.

﴿بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ﴾ : نرى عشرات الآيات يتمسك فيها بشأن إثبات امكانية حشر الأجساد ببرهان الأولوية : من عدة جهات ، كأولوية

الإعادة من الخلق أول مرة ، بأنها أهون ، وان كان الكل عند الله هينا ، وهنا بأولوية جمع العظام من تسوية البنان وهو مسوّيها أولا وأخيرا ، فهؤلاء المشركون في عبادة الله ،؟؟؟ الخلق بالله ، عليهم أن يصدقوا بإمكانية حشر الأجساد وهو خلقها ثانيا ، بعد إذ هم مصدقون بخلقها أولا : ﴿أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٥٠ : ١٥) ، وعليهم تصديق جمع العظام بعد ما يرون من تسوية البنان وهي أدق الخلق وأرقّه في الإنسان ، وهي كناية عن إعادة التكوين الانساني بأدق ما فيه دون عزوب عنه من شيء : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ...﴾ : توفيا عند الموت لكلا الجسم والروح وإيفاء لهما بأمر الله عند الحشر.

﴿نُسَوِّيَ بَنانَهُ﴾ فالبنان هي الأصابع من البنّ : الإقامة ، فان بها صلاح الأحوال التي تمكّن الإنسان أن يبنّ بها ويقيم حياته ، «بلى» نجمع عظامه حال أننا ﴿قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ﴾ أيضا ، فإن بها معظم أفعال الإنسان ، وهي آخر وأدق ما يخلق من عظام الإنسان ، وهي من أصغرها وأكثرها نسبيا بين العظام [1] ومن أهم ما في البنان ، الذي كشف عنه العلم ، خطوط رءوس البنان التي يستفاد منها كأضبط التواقيع التي لا تشتبه ببعض ، ويستحيل فيها الاحتيال والتزوير ، وهي من أهم ما يكشف بها الجرائم ، فقد يعرف الجاني بالآثار الباقية على يديه في عملية الجناية ، يعرف بسلاحه الذي استعمله وإن لم يكن فيه أثر الدم ، وإنما المسكة يبين فيها بالعيون المسلحة ، فللبنان بالغ الأهمية في الكشف عن أصحابها ، ولأن الخطوط المهندسة في كل يد تختلف عن سائر الأيدي ، فمهما

---

(١) فان عظام أصابع اليدين ٥٨ ، وللرجلين ثمانية وعشرون المجموع ٨٦ عظاما دقيقة وضعت لمنافع لولاها ما تمت تلك المنافع كالقبض والبسط واستعمال اليدين في الجذب والدفع ، وهي بين عظام الإنسان (٢٤٨) تصبح ثلث العظام كلها ، على ان الأصابع العشرين ليست الا زهاء ١ / ٥٠ من الإنسان.

تشابه الأشخاص واشتبه بعضهم ببعض ، لا يوجد تشابه بين البنان في هندستها بخطوطها.

فالقادر على تسوية البنان قادر بأحرى على جمع سائر العظام لمهمة الحشر للحساب والجزاء العدل ، وكافة البراهين الواقعية والفطرية والعقلية والتحولات الكونية ، كلها مسرودة لإثبات إمكانية وضرورة حشر الأجساد ، فلا يستطيع الإنسان ـ أيا كان ـ أن يثبت على حسبان : ﴿أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ﴾ :

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ. يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ﴾ الفجر هو الشق الواسع ، والإنسان يريد بنكرانه يوم القيامة ـ غير المسنود إلى برهان ـ ليشق أمامه من الزمان ليرى ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ﴾ خرقا لستر الساعة التي لا يجليها لوقتها إلا الله ، وإذ لا يجد جوابا عن هذا السؤال ، يتذرعه إلى نكران الحساب ، وهل يا ترى أية صلة بين عرفان وقت الحساب وواقع الحساب حتى إذا جهل الوقت أنكر الأصل؟.

وإنه يريد ليفجر أمامه من زمن الساعة ، ليتوسع في فجوره أمامه إلى الساعة لا يصده شبح الحشر الحساب ، فخوف الحساب لجام عن الفجور ومصدّ له ، وهو يحاول إزالة هذا الصد ليتحرر ويمضي قدما في الفجور أمامه بلا حساب ، إذ لا يحسب له أي حساب.

يتذرع سئواله المتعنت : ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ﴾ ليخلق ثالوث الفجر والفجور ، الموحد في نكران الساعة ، من فجر الزمن بينه وبين الساعة ليعرف متى هي الساعة ، فإذ لا جواب فلا ساعة! ومن فجور مستمر بينه وبين ساعته إذ يحسب أن لا حساب ، ومن فجور ونكران بنفس الساعة ، ثالوث الفجر المندفع من الفجور والدافع اليه ، والأصل واحد هو التحرر في الفجور ، أقانيم ثلاثة تتناصر في تحكيم صرح الفجور.

فليس السؤال ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ﴾ سؤال تفهم ، وإنما يجرس ب «أيان»

مديدا لاستبعاده يوم القيامة ، أحيانا بسناد استحالة جمع العظام ، وأخرى أن لا جواب لسئواله «أيان» فليفجر حياته كل ستر وناموس إذ لا حساب! وانهم لا برهان لهم على نكران الحساب أو المرية فيه إلا ثورة الشهوة ، فليفجروا ويشقوا واسعا كل ما يسدها ويصد عنها.

ومهما كان لسؤال ﴿أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ﴾ جواب الأولوية : ﴿بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ﴾ فليس لسؤال ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ﴾ إلا عرض مشهد من مشاهد القيامة تشترك فيه المشاعر الإنسانية والمشاهد الكونية ، فسوف يرون أنفسهم في نفس الجواب ، وأما هنا فلا جواب عن زمن الحساب إلا أن الله عنده علم الساعة :

﴿فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ. وَخَسَفَ الْقَمَرُ. وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ. يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾

كجواب سريع خاطف حاسم دون تريّث وحتى في موسيقا اللفظ ، إيحاء أنه لا جواب عن زمن القيامة إلا عرضا لمشهده.

وبرق البصر اضطرابه وتحوّله من خوف وتخطّفه وتقلّبه ، سواء بصر القلب أو القالب: ﴿يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ﴾ (٢٤ : ٣٧) وشخوصه من وطأة الطامة : ﴿فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (٢١ : ٩٧) برقا يبرز في البصر ويضرب إلى أعماق ذات البشر : ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ﴾ (١٤ : ٤٣) برقا في قيامة الإماتة والتدمير إذ ترجف الراجفة ، ثم برقا في قيامة الإحياء والتعمير ، إذ تتبعها الرادفة : ﴿إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ﴾ (٣٣ : ١٠).

﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ خسوفا بنوره وخسفا بكيانه ، ومن أسباب خسفه أن تدركه الشمس وتقضي عليه حين تكويرها :

﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ : جمع كلّ في نفسه ، وجمعت الشمس إلى القمر

لتحيط به بعد الفراق المديد (١) ، فلم تكن الشمس ما دامت شمسا لتدرك القمر ولا القمر ما دام قمرا ليدرك : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٣٦ : ٤٠) ولكنهما إذا قامت القيامة يخرجان من لا ينبغي إلى ينبغي ويجب ، فإذ يخسف القمر خسوفا في نوره ، تدركه الشمس لانهاء كيانه وخسفه ، فمن معاني كور الشمس جمعها إلى القمر لتجمعه عن قمريته ، كما جمعت هي عن كونها شمسا ، فجمع الشمس هنا يشير إلى تكويرها في نفسها وكورها إلى القمر وعلى القمر (٢) وحقيق لهذا الخسف والجمع أن يبرق البصر ويذهل البشر ، فمن معاني برق البصر أن ينظر إلى برق:

﴿يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ فمهما اختلق الإنسان هنا لنفسه مفرا عن الحساب وتكاليف يوم الحساب ، فما يصنع يومئذ وهو في واقع الحساب يوم الحساب ، إلا أن يقول متحسرا متحيرا ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾؟ متسائلا نفسه وأهل الحشر ، بكل فزع وارتياع ـ إذ لا يجد مفرا من قهر الله ونكاله ـ أين المفر الذي كنا نحسبه : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ﴾ .. ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ﴾ فهذا هو يوم القيامة ، وقد جمعت عظامك وسويت بنانك ف ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾؟ زمانه ومكانه :

﴿كَلَّا لا وَزَرَ﴾ وهو الملجأ الذي يلتجئ اليه من الجبل ، فلا ملجأ حينئذ إلا الله ، ولا مستقر إلا إليه :

﴿إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ : مستقر رحمة لك ولمن معك : ﴿أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ (٢٥ : ٢٤) ﴿خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا

---

(١) لم يقل : وجمعت الشمس والقمر ، ليدل بتذكير الضمير أن المجموع هنا هو كل منهما في نفسه ، وكل مع زميله ، جمعا من جهتين.

(٢) راجع ص ١٣٧ ـ ١٤٠ من الجزء الاول من الثلاثين على ضوء إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ.

وَمُقاماً﴾ (٢٥ : ٧٦) ومستقر لعنة وعذاب لغير المؤمنين : ﴿إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً﴾ (٢٥ : ٦٦).

﴿يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ : تنبّؤا بالبصر ﴿وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً﴾ وتنبؤا بالبصيرة إذ ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى﴾ (٧٩ : ٣٥) وبما أن النبأ خبر ذو فائدة عظيمة ، فعائدة تنبؤ الإنسان هي واقع الحجة له وعليه سرا وعلانية ، وليعرفها أهل الموقف أيضا ويشهدوا مع الشاهدين : بما قدمه من عمل قبل فوته ، وما أخره بعده من آثاره خيرا وشرا : ﴿وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ﴾ (٣٦ : ١٢) ورغم أن الأعمال تحضر كلها ، فبعضها منقطع الأثر فهو مما قدم ، وبعضها باق بآثاره فهو مما أخّر وعلى حد المروي عن باقر العلوم (ع) [١] وكلّ داخل فيما قدم بمعنى آخر هو حضور العمل منقطع الأثر أو ثابته : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ (٣ : ٣٠).

﴿بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ. وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ﴾

فما هذه البصيرة؟ هل هي الإنسان نفسه : بالغ في الإبصار على نفسه قلبا وقالبا ، لمكان تاء المبالغة ، ومختص بهذه البصارة عليه ، لمكان تقدم الظرف ﴿عَلى نَفْسِهِ﴾ فهو هو ، لا سواه من أمثاله ، يعلم من نفسه سرها وعلانيتها ، يحيط بها حيطة العلم الجامع الجامح ، لا يعزب عن نفسه شيء من مداخلها ومخارجها ، بصيرة يوم الدنيا بما له وعليه ومعه وفيه ومنه : من خير وشر ، وبصيرة يوم الدين : حجة عليه وشاهد بما اقترفت من ذنب واحتملت من وزر

---

(١) البرهان ٤ : ٤٠٦ القمي عن أبي جعفر الباقر (ع) في الآية : بما قدم من خير وشر وما أخر من سنة ليستن بها من بعده فان كان شرا كان عليه مثل وزرهم ولا ينقص من وزرهم شيئا وان كان خيرا كان له مثل أجورهم ولا ينقص من أجورهم شيئا.

ويبصر كذلك ما عمله من أعمال وما قاله من أقوال ، فهو بصيرة على نفسه على طول الخط ﴿وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ﴾ وان لفق الأقاويل وتعلق بالمعاذير : آلات العذر وأداته الملقاة يوم الدنيا ويوم الدين ، علّه ينجو من الحساب والعقاب ، ﴿وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ﴾ : ألقى ستوره مستخفيا ، وأغلق أبوابه متواريا ، فانه هو رقيب على نفسه ، عالم بمستسر غيبه ، فيما يقارفه من معصية ، أو يفارقه من طاعة ، أو يقاربه من ريبة.

هذا؟ أم هذه البصيرة هي الشهود عليه من خارج ذاته ، إضافة إليه ، فعلى نفس الإنسان شهود وحفاظ هي بصيرة عليه ، لا يفلت منهم قالت ولا يعزب عنهم عازب ، مهما تستر وألقى معاذيره : ستوره ، ومهما اعتذر بأسباب يختلقها ويلقيها علّه ينجو ، فانه محاط بذاته وأفعاله ب «بصيرة» إلهية وملائكية وبشرية ورسالية فالله على ما تعملون بصير و ﴿ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ورسل الله وأنبيائه كذلك شهداء بصيرة ، فهو غريق في يمّ البصيرة من دواخل ذاته ، فانه على نفسه بصيرة ، ومن سواها ، فان الله قرر على الإنسان عيونا بصيرة ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ (٦ : ٦١) وحتى أعضائه بصيرة عليه تتلقى أعماله يوم الدنيا ، وتشهد عليه يوم الدين.

هذا أم ذاك؟ كلّ محتمل ، والجمع أتم وأجمل ، وإن كان الثاني يشمل الأول : ﴿بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ﴾ حفاظ وشهود «بصيرة» من دواخل ذاته وخوارجها وإن كان الأفضل أدبيا هو الجمع بالدلالتين.

وقد استدل الراسخون في العلم بآية البصيرة على أن الإنسان أعلم بنفسه من غيره فيما ينويه أو يفعله ، وهو حجة على نفسه يحتج الله بها عليه في الدارين [1].

---

(١) من لا يحضره الفقيه عن زرارة قال : سألت أبا عبد الله (ع) ما حد المرض الذي يفطر فيه الرجل ويدع الصلاة من قيام؟ فقال : ﴿بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ هو اعلم بما يطيقه ، والكافي عنه (ع) قال : ما يصنع أحدكم.

﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ (١٩) كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ (٢٢) إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ (٢٥) كَلاَّ إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ راقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ (٣٠) فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى (٣١) وَلكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (٣٤) ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (٣٥) أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى (٣٧) ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (٣٩) أَلَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى﴾ (٤٠)

ـ ان يظهر حسنا ويستر سيئا أليس يرجع الى نفسه فيعلم ان ذلك ليس كذلك ، والله عز وجل يقول : ﴿بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ ان السريرة إذا صحت قويت العلانية ، وفيه قيل له (ع) انا ندخل على أخ لنا في بيت أيتام ومعهم خادم فنقعد على بساطهم ونشرب من ماءهم ويخدمنا خادمهم وربما طعمنا فيه الطعام من عند صاحبنا وفيه من طعامهم فما ترى في ذلك؟ فقال : ان كان في دخولكم عليه منفعة لهم فلا بأس ، وان كان فيه ضرر فلا ، وقال : ﴿بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ فأنتم لا يخفى عليكم وقد قال الله عز وجل ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾.

﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ـ إلى ـ بيانه : آيات أربع اعترضت بين آيات القيامة ، ناهية رسول الهدى عن عجلة اللسان وحركته بالقرآن قبل قضاء وحيه وقرآنه : ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ (٢٠ : ١١٤) فقد أمر باتباع قراءته دون استعجال بها قبلها ، ولا تحريك لسانه بها ، مما يوحي انه (ص) استعجل في قراءة آيات أو حرّك لسانه بها قبل قضاء وحيها وقراءتها ولماذا وكيف؟.

فهل بالإمكان قراءة القرآن قبل قرآنه : نزوله مقروءا؟ وإذ لا! وطبعا لا! فكيف ينهى عنها؟ تجد الجواب في آيات القدر وحم ، الدالة على نزول القرآن المحكم في ليلة القدر ، فلقد كان للرسول (ص) خبرة واطلاق بالقرآن المحكم قبل وحيه المفصل : ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (١١ : ١) ويريد الله أن يكون القرآن وحيا مزدوجا : لفظا إلى معنى ، ولا يكفى العلم بوحي المعنى ولا سيما المحكم منه ، عن الوحي المفصل ، الذي فيه وحي اللفظ وتفصيل المعنى ، ففيه زيادة العلم ورجاحة الاعجاز : ﴿.. وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[1].

فلم تكن العجلة بالقرآن استعجالا في ترداده بعد قراءته لحفظه [2] ، لمكان النص ﴿فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ و ﴿... قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ وقد ضمن الله له بداية الوحي المفصل ألا ينساه : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى﴾ وإنما هي لشغفه البالغ في تحلية لسانه بالقرآن المفصل بعد ما تحلى قلبه بالقرآن المجمل ، واعتمادا على هذا العلم المسبق ، ولكن ﴿فَلا تَعْجَلْ ..﴾ ﴿لا تُحَرِّكْ ..﴾ ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً﴾ فقد كان قرآنا غير مفروق في الوحي المجمل ، ثم فرقه الله بالمفصل.

وآيتا النهي عن الاستعجال والتحريك توحيان أنه (ص) إنما حرك لسانه

---

(١) راجع ٣٠ : ٢ ص ٣٧٣ ـ ٣٧٦ من سورة القدر.

(٢) خلاف ما نراه في بعض الروايات.

ليعجل خلال آيات «القيامة» وانه استعجل بين الآيات من «طه» وهما مكيتان ، والنهي هنا وهناك نهي تنزيه وإنباء ، لا نهي تحريم ، وليجمع الله وحي اللفظ المفصل إلى وحي معناه ، لا فحسب ، فقد كتب على نفسه جمع المفصل أيضا وقرآنه.

فمن ثم توحي الآيات انه ليس على الرسول شيء من الأمر بشأن القرآن ، في نزوله عليه نجوما حسب الحاجات والمناسبات ، وفي جمعه وتأليفه كما هو الآن ، ﴿إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ وليتبع قرآنه على الناس بعد جمعه وقرآنه من الله : ﴿فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ ، وفي بيان ما أجمل فيه ، بعضه ببعض أو بوحي السنة : ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ﴾ ، فلا عليه أن يحرك به لسانه ليعجل به سنادا إلى نزوله عليه محكما مسبقا ليلة القدر ، فهو الذي يفصله هنا كما أجمله وحيا إلى قلبك هناك ﴿إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ ولا موقع لجمع الآيات إلا بعد نزولها المفصل ، إذا فجمع القرآن كنزوله إنما هو من الله ، لا من النبي (ص) فضلا عن خلفاءه وأصحابه! فهنا قرآن قبل الجمع هي الآيات النازلة نجوما متفرقة خلوا عن الروابط ، وقرآن بعد الجمع هو المقرؤ على الرسول سورا منسقة بآيات مرتبة مرتبطة ، وكلاهما من اختصاصات الله ، كان يأمر الرسول أصحابه وكتّاب الوحي أن يرتبوها كما يوحى إليه ، ترتيبا وتأليفا بالوحي ، كما النزول غير المؤلف كان بالوحي ، وقد يوحي هكذا اجمع إلهي بنزول القرآن المفصل مرتين ، ولو تدريجيا حتى نزلت المائدة آخر ما نزلت من القرآن ، فأصبح القرآن مؤلفا مجموعا كما هو الآن ، وقد كان يدرس ويحفظ جميعه كجمعه الآن ، فجماعة من الصحابة ختموه على النبي (ص) عدة ختامات وكان (ص) ـ حين جمعه ـ يأمر الكتّاب أن يسجلوا الآيات المتفرقات في مواضيع خاصة من السور التي رتبها بالوحي ، وسماها جميعا كما تواتر عنه (ص) وتصرح آيات عدة أن القرآن كان سورا زمن الرسول (ص) [١]

---

(١) «فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ .

كما يروى عنه (ص) أيضا ، أسماء السور وأعدادها وآياتها وحروفها [٢].

وهل يا ترى بالإمكان أن ينزل القرآن نجوما ثم يجعل الله أمر الجمع والتأليف فوضى بعد الرسول (ص) وفي مختلف التأليف مختلف المعاني المسرودة فرادى ، المقصودة جملا! ولو صدقنا هذه الفوضى! فمن هذا الذي ألفه بعد الرسول (ص) وكيف أجمع المسلمون في جميع القرون على ما جمعه غير الرسول ، والمسلمون شتى والآراء شتى ، لحدّ لم يجمعوا على جميع ما أتى به الرسول ، فضلا عن سواه!.

وهل يا ترى ان الله ينهى رسوله عن أن يعجل بلفظه وعنده معناه وعن أن يجمعه وهو مهبط تنزيله بآياته ، وعن بيانه وهو الرسول! فيختصها الله بنفسه دون رسوله ، ثم يسمح لخلفائه غير المعصومين أو المعصومين ، أن يجمعوه ويؤلفوه؟

ـ فالسورة جماعة من الآيات مرتبة ، سواء نزلت سورة ام رتبت بعد النزول سورة ، والتحدي لا يخص ببعض القرآن ، حتى يقال : على المعني بسورة وعشر سور هي التي أنزلت سورا ، فانما يتحدى القرآن بكله «**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**».

(٢) كما عن سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب (ع) انه قال : سألت النبي (ص) عن ثواب القرآن فاخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء فأول ما نزل عليه بمكة «فاتحة الكتاب» ثم ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**﴾ ثم «ن» الى ان قال وأول ما نزل بالمدينة سورة البقرة ثم الأنفال ثم ـ الى قوله ـ ثم هل أتى ، ثم قال النبي (ص) : جميع سور القرآن مائة واربع عشرة سورة وجميع آيات القرآن ستة الاف آية ومائتا آية وست وثلاثون آية وجميع حروف القرآن ثلاثمائة الف حرف واحد وعشرون الف ومائتان وخمسون حرفا لا يرغب في تعلم القرآن الا السعداء ولا يتعهد قراءته الا أولياء الرحمن.(كتاب الإيضاح للاستاذ احمد الزاهد باسناده عن سعيد ابن المسيب عنه (ع)).

ثالوث الاستحالة بعيدا عن العقل والدين [١].

ومن ثم فآية الجمع والبيان يغنينا عن القيل والقال في «من جمع القرآن وكيف جمع»؟ وما قيمة الأحاديث المتناقضة في كيفية الجمع وشخصية الجامع [٢] المعارضة ـ لو دلت ـ لآية الجمع وبرهان العقل؟ وللأحاديث المتواترة أنه كان مجموعا زمن الرسول (ص) [٣].

وما مصحف الإمام علي عليه السلام الذي جمعه بعد النبي (ص) إلا نفس هذا القرآن في متنه ، وإنما رفضوه للتفسيرات والتأويلات التي أوردها عن النبي (ص) في هوامشه ، مما فضحت جموع المنافقين ، ولذلك رفضوه.

وما قصة جمع القرآن بعد النبي (ص) زمن الخلفاء ، إلا جمع المجموع زمن النبي ، المكتوب مفرقا ، فجمعوه في مصحف واحد ، لكيلا يضيع جمع النبي

---

(١) وهو : ١ ـ عدم امكانية هكذا جمع منسق بغير الوحي ٢ ـ واستحالة اجماع المسلمين على ما جمعه أحدهم ٣ ـ واستحالة إحالة الجمع الى غير الرسول مع ما نهي الرسول عنه.

(٢) فانها متناقضة في : زمن جمع القرآن ، زمن أبي بكر؟ أو عمر؟ أو عثمان؟ وفي من تصدى لجمعه : زيد بن ثابت؟ ام ابو بكر نفسه؟ ام زيد وعمر؟ وفي : هل بقي من الآيات ما لم يدون الى زمن عثمان : بين نفي واثبات! وفي : هل محى عثمان شيئا مما كان قبله؟ بين نافية ومثبتة! وفي : من اي مصدر جمع عثمان؟ اعتمد على مصحف أبي بكر؟ ام هو جمعه بشهادة شاهدين؟ او باخبار كل من سمع عن رسول الله؟ وفي : من الذي طلب من أبي بكر جمع القرآن؟ هل هو عمر؟ ام زيد؟ وفي : من جمع المصحف الامام ونشره في البلاد؟ هل هو عثمان؟ ام عمر؟ وفي : من عيّنه عثمان لكتابة القرآن؟ هل هو زيد وابن الزبير وسعيد وعبد الرحمان؟ ام زيد للكتابة وسعيد للإملاء؟ ام ثقيف للكتابة وهذيل للإملاء؟ او المملي أبي بن كعب وسعيد كان يعرب ما كتبه زيد؟

(٣) رواها جماعة كثيرة من محدثي الفريقين وأئمة الحديث.

كما جمع ، وأجمعوا على قراءة واحدة هي المتواترة عن النبي (ص) فرضيها المسلمون أجمع ، ولكي يبقى القرآن وحيا خالصا حتى في قراءته ، فلا يبقى مجال للاختلاف فيه ، لذلك فنحن المسلمين لا نعتمد على سائر القراءات المخالفة للمتواتر المسجل في القرآن ، لا سيما إذا خلفت اختلاف المعنى.

وما اختلاق نسبة أصل التأليف والجمع إلى غير النبي (ص) إلا توهينا للرسالة المحمدية ، ووهنا لكيان القرآن ، وترفيعا لشأن من نسبوا إليه هكذا أجمع!.

كلا! إن القرآن كما هو الآن ، كله إلهي : من معانيه وألفاظه وترتيب آياته وقراءته ، وسوره وأسماءها : ازدواجية الوحي ، دون تدخل لغير الله في أيّ من هذه ، ولا من الرسول نفسه إلا بالوحي.

وان قصة الجمع المزيفة ، غير الإلهي ، مما تذرّعها المتقولون عن التحريف ، ضعف الطالب والمطلوب!.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ﴾ بيان للقرآن المحكم بالقرآن المفصل ، وبيان بجمع الآيات كما الآن ، فان الجمع يساعد على تفهم المفردات ، وبيان لكل آية بنظيراتها وإن كانت في غير جمعها ، وبيان بوحي السنة المفسرة للقرآن ، ازدواجية البيان بازدواجية وحي السنة والقرآن وكما تجدها في تفسيرنا «الفرقان» ، فقد تكفل الله تكفلا مطلقا بشأن القرآن ، مجملا وتفصيلا وجمعا وحفظا وبيانا ، ثم ليس للرسول ولا عليه إلا تلاوته للناس وبيانه كما بين له ، وتطبيقه كذلك ، وإن لتسجيل هذه المهمة الكبرى في وحي القرآن ، قيمته في تعميق إيحاءاته للناس أجمعين.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ. وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ : هنا رجعة ـ بعد تحكيم وحي القرآن بهذه الجمل المعترضة ـ رجعة إلى التنديد بالإنسان الناكر لرجعته حيا بعد الموت : ان من بواعثه حب الحياة العاجلة ، ولا يتجمع حبها والآجلة : فحب كلّ منهما ينسي الثانية على قدره.

﴿كَلَّا﴾ إنه لا برهان على استحالة جمع العظام إلا حب العاجلة ، فتذرون الآخرة ، و «حب الدنيا رأس كل خطيئة» وطول الأمل في الأولى ، كذلك ينسي الآخرة.

إن حب العاجلة يخلف وجوها باسرة ، وحب الآجلة وجوها ناضرة ، إلى ربها ناظرة :

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ. إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ. تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ﴾.

تقسيم ثنائي لأهل الموقف إلى وجوه ناضرة ناظرة ، وأخرى باسرة فاقرة :

فما هذه الوجوه؟ وما هو النظر إلى الرب؟.

الوجه ما يواجه به صاحبه ويواجه به ، فهو من الإنسان لمثله وجهه الظاهر ، فنظره نظر البصر ، وهو من الكائنات كلها. ومنها الإنسان لله تعالى : ذواتها ، ما ظهر منها وما بطن ، إذ لا يعزب عنه شيء.

وهنا ، نسبة الظن إلى الوجوه الباسرة ، والنظر إلى الرب للوجوه الناضرة ، هذه النسبة وتلك تصرفها عن وجوه الأبصار إلى وجوه البصائر ، فالوجه الظاهر لا يظن ، وإنما يبصر ، والبصر الظاهر لا ينظر إلى الرب ذاته إذ ﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ﴾ (٦ : ١٠٣) وإنما البصيرة الباطنة هي التي تراه رؤية المعرفة ، دون كيفية ولا إحاطة ، وكما عن الرسول الأقدس (ص) في تفسير الآية : «ينظرون إلى ربهم بلا كيفية ولا حدود ولا صفة معلومة» (١) ونظر البصر إلى أي مبصر ، له كيفيات وحدود وصفات معلومة ، إضافة إلى أن النظر لا يستلزم الإبصار : ﴿تَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ (٧ : ١٩٨) وأحرى بعدم الإبصار إذا كان المنظور إليه غير مبصر!.

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٩٠ ـ أخرجه ابن مردويه عن انس بن مالك قال : قال رسول الله (ص).

ثم النص ـ بعد ذلك كله ـ «إلى ربها» لا «الى الله» والربوبية هي الرحمة والثواب والنعمة ، وأهمها المعرفة الناتجة عن غاية الربوبية ، وكما عن علي (ع): «يعني بالنظر إليه النظر إلى ثوابه تبارك وتعالى» [١] ومن أعظم الثواب كمال المعرفة المعبر عنها بالنظر والرؤية ، تنظر إلى ربها فتتنضّر بنوره ، وكما عن الصادق (ع) «يعني إلى نور ربها» [٢].

ثم تقديم الظرف «إلى ربها» الموحي بالحصر ، تصريحة أحرى أنه ليس نظر البصر ، إذ لا يختص ـ إذا ـ بالرب ، فهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر!

هذا! فرؤيته تعالى بالبصر ، وحتى إدراكه والحيطة به بالبصيرة ، إنها مستحيلة في كافة العوالم لكافة العالمين ، فقد «احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار وعمن في السماء احتجابه عمن في الأرض» [٣] وقد «خلق الله الخلق حجاب بينه وبينهم ... فالحجاب بينه وبين خلقه لامتناعه مما يمكن في ذواتهم ، ولإمكان ذواتهم مما يمتنع منه ذاته ، ولافتراق الصانع والمصنوع والرب والمربوب [٤] فلا يمكن رؤيته بالبصر إلا إذا صار مبصرا كخلقه ، ولا إدراكه بالبصيرة إلا إذا صار خلقه مثله في الألوهية ، استحالة مزدوجة في خرافة الرؤية والإدراك الإحاطة.

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٦٤ عن كتاب التوحيد ، وقد بحثنا عن الرؤية في ص ١٧٤ ـ ١٧٧ ج ١ من الجزء الثلاثين في ضوء الآية : «وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ» ، وفصلنا البحث عن استحالة الرؤية في كتابنا «حوار بين الإلهيين والماديين».

(٢) البرهان ٤ : ٤٠٨ عن كتاب تحفة الاخوان عن هاشم الصيداوي عنه (ع).

(٣) بحار الأنوار ج ٣ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ عن الامام الحسين (ع) في خطبة توحيدية.

(٤) التوحيد للصدوق عن الامام الرضا (ع) في خطبة توحيدية.

إذا فالمعني من نظر الوجوه هو نظر المعرفة ، وانتظار الثواب والرحمة فالنظر يأتي بمعنى الانتظار أيضا : ﴿فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٧ : ٣٥) ﴿ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً (٣٦ : ٤٩) [(١)].

ومن نضارتها طراوة المعرفة واللقاء يوم الجزاء ، فلتكن الوجوه هي الباطنة ، الظاهرة نضارتها في الوجوه الظاهرة : ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (٨٣ : ٢٤) النعيم الشامل كيانه ككل سرا وعلانية : ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ (٧٦ : ١١) «هم» لا «وجوههم» فالوجوه هنا وهناك تعم وجه العقل والصدر والقلب والسر والخفي والأخفى ، اصالة ثم الوجه الظاهر إذ تلوح عليه نضارتها ، فالوجوه الستة الباطنة قد تشترك كلها في هذا النظر المجرد «بلا كيف ولا حدود ولا صفة» فتضرب معرفة الله ومحبته إلى أعماق الذوات المؤمنة ، ثم تتحقق في نظر البصر ايضا ، لحدّ يتحقق صاحبه بما قاله الامام الصادق (ع) :«ما رأيت شيئا إلا وقد رأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه» قبله بأزليته ، وبعده بأبديته ، ومعه بقيوميته وعلمه ، وفيه بآيات حكمته وقدرته ، فتصبح ذاته كلها عينا لا تنظر إلا الى الرب ، كلّ حسب ما قدمته نفسه وسعى ، ف «الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق».

فكل حجاب من الخلق والخالق ممكن الزوال ، إلا حجاب الإمكان عنه ، وحجاب الألوهية عنه تعالى ، فبقدر ما أزيلت حجب العصيان هنا ، تزال حجب المعرفة والرحمة هناك ، ثم حجب النور كذلك تزال لمن أنكر ذاته ، وأصبح كله نظرا ومعرفة لربه كالرسول الأقدس محمد (ص) ف ﴿قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى﴾.

فيا للنضارة والنظر إلى الرب هكذا ، من نعمة يعجز الإدراك عن تصورها ، إذ تتضاءل إلى جوارها الجنة بما فيها ، وما لها لا تتنضّر؟ وهي إلى ربها تنظر!

---

(١) وجوه ناظرات يوم بدر ـ الى الرحمن تنتظر الخلاص ، فالنظر يعم الأبصار بالبصر ، والمعرفة بالبصيرة ، والانتظار للرحمة.

نظر البصيرة بنور اليقين ، ونضارة المعرفة والرحمة بلقاء الرب الكريم.

وإن ارتقاء الكينونة الانسانية وانطلاقها من قيود الهوى ، ومن هذه الكينونة الأرضية ، هو فقط محط الرجاء في التقاءها بهذه النضارة والنظرة.

ثم الوجوه الباسرة هي البنية التعيسة ، المتقبضة الكالحة القاطبة ، المحرومة عن كل نضارة ونظرة ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (٨٣ : ١٥) بما ارتكست في حيوانية الحياة ، وانطمست وانغمرت في الشهوات ، فانحجبت عن ربها بما حجبت نفسها.

﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ﴾ : الكارثة القاصمة الظهر ، المحطّمة الفقار ، تظن ظن اليقين بما قدمت لأنفسها ولات حين مناص!.

﴿كَلَّا إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ. وَقِيلَ مَنْ راقٍ. وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ. وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ. إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ كَلَّا﴾ ليست العاجلة المحبّبة هي الباقية ، إنما هي الآجلة المرفوضة ، فيا لها من حياة مرتكسة منكوسة ، فليتذكر متذكر :

﴿إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ﴾ : حين تبلغ الروح مبلغها الأخير من الجسم : «التراقي» العظام الواصلة بين ثغرة النحر والعاتق ، وهي الحلقوم : تترقى إليه النفس عند الموت ، وإليه يتراقى البخار من الجوف ، وهناك يقع تردد النفس ﴿فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ، وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴾ (٥٦ : ٨٣) : سكرات مذهلة وكروب تزيغ الأبصار ، كأنما القلوب تبلغ الحناجر ، ويا لها من عبرات لمن لم يغرب عقله!

﴿وَقِيلَ مَنْ راقٍ﴾؟ قيل من أعماق المحتضر : «هل من طبيب» [1]

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٦٥ عن الكافي باسناده الى جابر عن أبي جعفر الباقر (ع) في «من راق» قال : فان ذلك ابن آدم إذا حل به الموت قال : هل من طبيب؟

يرقى بي مما أنا فيه من خفض الاحتضار ، أو لعلّ رقية تفيدني فتلوّي من سكرة وتشفين ، أو علّ توبة ترقى بي من دركات تنتظر ، أو ـ وفي آخر المطاف ـ من يرقى بي الى البرزخ؟ أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟

وقيل من أخصّاءه الحضور : من يرقى به الى طبيب يشفيه؟ أو يخلصه مما هو فيه ، أو من هذا الطبيب الذي يرقى به ، أو من يرقى به من وطأة الآخرة الى رحمتها؟

وقيل من الملائكة : من يرقى بروحه ، ملائكة الرحمة أو العذاب ، حتى يصدر الأمر من رب الأرباب (١).

قيلات هي ويلات للمحتضر إلا من رحم الله ويومئذ يفرح المؤمنون ، بلا قيل ولا ويل.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ﴾ : رغم أشراط الموت وعلاماته ، ولكنه لا يرضى أخيرا إلا الظن بالموت ، ولا يحن الى يقين الموت ، إذ لا يحب الفراق ، حبا للعاجلة وفرارا عن الآجلة.

﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ إذ بطلت كل حيلة ووسيلة تصدّ عن الفراق ، وعلّ الساقين هما الشدّتان المجتمعتان على المرء ، من فراق الدنيا العاجلة المحبّبة ، ولقاء أسباب الآجلة المنسية (٢) ، وأين ساق من ساق؟ : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٦٨ : ٤٢).

والكشف عن الساق ـ وهو التشمير عنه ـ كناية عن صعوبة الأمر ، فمن

---

(١) راق اما من الرقية وهي العوذة ، او من الرقاء وهي العلو ، وقد جمعنا هنا بين المعنيين.

(٢) نور الثقلين ٥ : ٤٦٥ في آية الساقين عن الباقر (ع): «التفت الدنيا بالآخرة».

التفاف الساق بالساق ، التفاف الدنيا بالآخرة ، إذ كشف عن ساق الآخرة لتأخذ بساق الدنيا فتنهيها وتقضي عليها (١).

ويلتف بهذا الالتفاف بين ساقي الآخرة والأولى ، التفاف ساقي المحتضر في اضطراب النزع ، إذ يضرب بإحدى رجليه على الأخرى ، كذلك والتصاقهما ببعض بعد الموت ، والتفافهما في شدّ الكفن ، ثم التفاف سوق اهليه ومشيّعيه ، يلتف بعضهم من شديد الحفز وعنيف السير والسّوق (٢).

﴿إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ﴾ : الرجوع : ﴿إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى﴾ فلا يساق الميت بعد التفاف الساق بالساق ، إلا الى ربك ، الى نشأة البرزخ ثم القيامة ، ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ. لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ فلا سوق بالموت إلا إلى الرب ﴿لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى﴾.

فمهما كان انسياق الإنسان يوم الدنيا بخيرته ، فهو مساق مسيّر في سوق الآخرة الى سوقها ، فلا سائق هناك إلا الله ، فلا مساق إلا إليه ، سوقا الى ربوبيته ، لا الى ذاته ، فانما الى حسابه وجزاءه ، بثوابه أو عقابه.

ومن ثم يسدل الستار على سكرات الموت ، وينتقل الى عرض مشهد اللاهين المكذبين.

﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى. وَلكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى. ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾.

عرض موجز عن أرده حالات الكفر لألعن حماقي الطغيان ، فرعون هذه الأمة أبي جهل على حدّ المروي عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم : «إن لكل أمة فرعونا

---

(١) راجع سورة «ن» حول الآية «يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ».

(٢) هذا الأخير بناء على كون الساق جمعا للساقة : فهم الذين يكونون في أعقاب الناس يحفزونهم على السير.

وإن فرعون هذه الأمة ابو جهل» [1] كان يأتي الرسول أحيانا يسمع منه القرآن ، ثم يذهب الى أهله متفكها متمطيا كالمطي : «فلا صدق» بما يجب تصديقه ، رغم توفر آيات الصدق ، البينات «ولا صلى» لله : مهانة ونكرانا لله ، وللرسالة الإلهية ، دون أن يتأدب أو يخشى «ولكن كذب» كأنه فقط رزقه من الحياة : ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ كذب بقلبه وقوله وفعله «وتولى» بركنه ، مدبرا عن الحق ورسوله ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ﴾ كأن جاء لهم بما يتفكهون «يتمطى» : يمدّ مطاه : ظهره ، كالمطي ، فالمطيّة ما يركب مطاه من حمار وسواه ، فأبو جهل يمدّ مطاه ليركبه الشيطان ، وهو يحمل الى أهله تفكّه الهزء والطغيان ، مختالا فخورا بما فعل ، كأنه يرفع من شأنه ، وما هو إلا حمارا ، يقرب من خطاه ويمدّ مطاه.

وكم من آباء جهالات في تاريخ الرسالات الإلهية ، يعيشون مطايا ، ويحملون خطايا ، يتبهجون تفننا في الصدّ عن سبيل الله ﴿مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً﴾ وهم يفخرون ويتمطون حياتهم بما بغوا ومكروا ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله» فأولى لهم ثم أولى :

﴿أَوْلى لَكَ فَأَوْلى ، ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى﴾ :

كلمة تسفيه وتقبيح ، وتوعيد بأشد وعيد ، تشمل الأولى والأخرى ، توجّه الى الذين في قلوبهم مرض ، مادّين مطاهم فاخرين : ﴿فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ﴾ (٤٧ : ٢٠).

وقد أمسك رسول الله (ص) بخناق أبي جهل مرة وهزّه قائلا : ﴿أَوْلى لَكَ فَأَوْلى. ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى﴾ فقال : أتوعّدني يا محمد! والله لا تستطيع

---

(١) الدر المنثور ٧ : ١٢٩٦ اخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن منذر عن قتادة عنه (ص).

أنت ولا ربك شيئا ، واني لأعز من مشي بين جبليها .. ﴿فَأَخَذَهُ اللهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى﴾.

فالآية الاولى تلمح لنكالين في الأولى تلو بعض ، ذاق الأول حياته الكافرة وهو كفره وتكذيبه بما طبع الله على قلبه ﴿فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ والثاني يوم بدر إذ قتله المؤمنون ، والآية الثانية توحي لنكاليه بعد قتله : يوم البرزخ ويوم القيامة ، نكال مضاعف في الأولى ، وآخر كذلك في الأخرى ، أولويّات أربع بويلات له في الدارين ، وبعدا له من خيرات النشأتين ، وعلى حد المروي عن الامام الجواد عليه السلام [(١)].

«أولى لك» : حالك الحاضرة الخاسرة ، إذ تمتطى منحيّا مطاك ليركبك الشيطان ، فما أنت إلا حمارا «فأولى» : لك أن تقتل في سبيل الطاغوت ، كما قتل يور بدر «ثم أولى لك» : حالك المستقبلة بعد الموت يوم البرزخ إذ تحمل خطاياك مع خطايا من سواك من المضلّلين بك ولا ينقص من أوزارهم شيء «فأولى» : بخلود النار يوم القيامة الكبرى : فأنت حمار في الدارين فيهما تتمطى ، وإن كنت هنا بثوب الإنسان وصورته تتغطى! ويلات أربع كلها لك أولى ، فانك فرعون هذه الأمة ، فليأخذك الله نكال الآخرة والأولى.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾ :

عود على بدء في التنديد بالإنسان في حسبانه : ﴿أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ﴾ وهذا هو تركه سدى وهملا ، وإنه بعيد عن عدل الله وحكمته : ألا يجازيه بما فعل وافتعل ، خيرا أو شرا ، أو يختص جزاءه بروحه دون جسمه ، وهما شريكان في الأعمال كلها إلا الروحانيات المحضة ، كالنيات والاعتقادات.

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٦٦ في عيون الأخبار عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني قال سألت محمد بن علي الرضا (ع) عن هذه الآيات ، قال : يقول الله عز وجل : بعدا لك من خير الدنيا وبعدا لك من خير الآخرة ،

فكأنما الإنسان يحسب الحياة أرحاما تدفع وقبورا تبلع ، فوضى وسدى ، وقد «خلقنا للبقاء وكيف يفنى جنة لا تبيد ونار لا تخمد .. إنما نتحول من دار الى دار» [١] ، فما خلقنا دون هدف وحكمة ، لهوا ولعبا وزينة وتفاخرا وتكاثرا في الأموال والأولاد! : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ﴾ (٢٣ : ١١٥) لم يخلق خلقه عبثا ولم يتركهم سدى ، بل خلقهم لإظهار قدرته وليكلفهم طاعته ، فيستوجبوا بذلك رضوانه ، وما خلقهم ليجلب منهم منفعة ولا ليدفع بهم مضرة ، بل خلقهم لينفعهم ويوصلهم الى نعيم[٢]. وما الحياة العبث السدى إلا لهوا تعالى الله عنه : ﴿لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ﴾ (٢١ : ١٧) ولماذا يعبث بنا ربنا ويلهو؟ هل لنقصان في علم أو حكمة؟ أم بغية ظلم لعباده؟ أم لعجز عن إحياءهم كما بدء؟ وهو الذي خلق أول مرة :

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى. ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى : أَلَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى﴾؟

فالأكثرية الساحقة من ناكري إحياء الموتى يسندون الى استحالته ، وواقع الخلق من نطفة الى علقة الى مضغة الى عظام والى إنشاء الخلق الآخر : «الروح» برهان لا مرد له على إمكانية الإحياء مرة أخرى وهو أهون وأحرى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (٣٠ : ٢٧) ثم علمه بالمحسن والمسيء والظالم والمظلوم ، وحكمته العالية وعدله تعالى : تفرض الإحياء الممكّن للحساب والجزاء الوفاق!.

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾ : خليّة واحدة حية صغيرة لم تكن تبين بالمكبرات ،

---

(١) في العلل قال رجل للصادق (ع) إنا خلقنا للعجب؟ قال : وما ذلك الله أنت؟ قال : خلقنا للفناء؟ فقال يا ابن أخ! خلقنا للبقاء ...

(٢) علل الشرائع عن عمارة : سألت الصادق (ع) فقلت : لم خلق الله الخلق؟ فقال : ...

ممّا ذا؟ «من مني يمنى» عن شهوة دون اختيار ﴿ثُمَّ كانَ عَلَقَةً﴾ تعلقت بجدار الرحم لتأخذ سيرها حثيثا الى خلقه إنسانا مؤلفا من مليارات الخلايا الحية ، وقد بدأت من خلية واحدة مع بويضة [١] ، وهذه الرحلة القصيرة المدة ، البعيدة المدى ، هي أبعد بكثير من مولده الى مماته ، والقائد في كلتا الحركتين واحد هو الله : ﴿أَلَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى؟﴾ سبحانك اللهم وبلى [٢] وأنا على ذلك من الشاهدين [٣] بلى ، إنه على ذلك لقدير ، وانه بالتصديق والإيمان به لجدير ، فسبحانه سبحانه تعالى من حسبان هذا الإنسان الصغير الصغير ، فما ذا يملك أمام هذه الحقائق التي تفرض نفسها دون تكلف؟ إلا أن يؤمن بالخبير القدير!

---

(١) راجع سورة العلق ٣٠ ، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٥.

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٩٦ عن أبي هريرة ان رسول الله (ص) كان إذا قرأ ﴿أَلَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى﴾ قال : ... وفي نور الثقلين ٥ : ٤٦٧ في أخلاق الرضا (ع): «وكان إذا قرأ هذه الآية «قال عند الفراغ» سبحانك اللهم وبلى.

(٣) الدر المنثور ٦ : ٢٩٦ ـ اخرج البخاري في تاريخه عن أبي امامة قال : صليت مع رسول الله (ص) بعد حجته فكان يكثر من قراءة ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ فإذا قال ﴿أَلَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى﴾ «سمعته يقول : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين».

سورة الدهر : الإنسان ـ مدنية ـ وآياتها احدى وثلاثون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ
نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً (٢) إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (٣) إِنَّا
أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً (٤) إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً
(٥) عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ
مُسْتَطِيراً (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (٨) إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا
نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً (٩) إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (١٠) فَوَقاهُمُ اللهُ شَرَّ
ذلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (١١) وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً (١٢) مُتَّكِئِينَ

فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً (١٣) وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً (١٤) وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا (١٥) قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلاً (١٧) عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (١٩) وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (٢٠) عالِيَهُمْ ثِيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً (٢١) إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾(٢٢)

* * *

﴿هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ :

هل الإنسان هنا الإنسان الأول؟ ولم يخلق من نطفة أمشاج وغير أمشاج! أم جنس الإنسان بما فيه الأول؟ فكذلك الأمر! أم ولده المتناسلون عنه؟ فكيف يخرج الأول عن انه (ع) : ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾!

الجواب : أنه جنس الإنسان هنا ، وغير الأبوين الاوّلين هناك في استعراض من خلقه: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ﴾ وقد عرض خلقهما في محالّ اخرى : ﴿مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ كما استعرضت بقية المشاهد لخلقهم كذلك.

وهل الاستفهام تقريب وتقرير : أن أتى عليه حين : قطعة محدودة ـ من الدهر : مجموعة الزمان غير المحدودة ، ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ : كان شيئا ولم يكن مذكورا [١] حيث النفي هنا يوجّه الى الوصف ، دون الموصوف كما في : ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ إلا في علم الله ، أما في الخلق والتقدير فلا ، وإن في مبادءه ترابا أم نطفة أم ماذا؟

أم الاستفهام انكاري يعني نفي مدخوله : أنه كان شيئا مذكورا طوال الدهر : قبل خلقه في علم الله ، وبعده في رحمة الله وعنايته ، وعلى حدّ المروي عن الامام الصادق (ع): «هل أتى عليك يا إنسان وقت لم يكن الله ذاكرا لك فيه؟» [٢] ، كل محتمل ، والجمع أجمل ، حيث الاستفهام هنا يتحملهما فقد كان شيئا معلوما عند الله ، مذكورا عنده في عداد ما أراد خلقه ، ثم الله ذاكر له على طول الخط إذ خلق أصله : التراب ، ثم منيّه من سلالة التراب ، ثم نطفته من سلالة المني ، ثم درج به في خلقه وتصويره وتسويته الى درجة الإنسان ، ثم هو ذاكره طول الحياة الى الممات وبعده «فهل أتى عليه وقت لم يكن الله ذاكرا له؟» اللهم لا.

وقد كان شيئا في علم الله كسائر الأشياء ولم يكن مذكورا في الخلق : «كان مذكورا في العلم ولم يكن مذكورا في الخلق» [٣] : «كان شيئا مقدرا

---

(١) تفسير العياشي عن زرارة سأل الباقر (ع) عن الآية فقال : .. وفيه عن عبد الأعلى مولى آل سام عن الصادق (ع) مثله.

(٢) ج ١٠ ص ٢٥٩ تفسير روح البيان لإسماعيل حقي.

(٣) تفسير العياشي عن سعيد الحذاء عن الباقر (ع) : ..

لا مكوّنا [١] وبعد ما خلق ترابا كان شيئا في أصله التراب بشيئية التراب ، ولم يكن مذكورا في عداد الإنسان ، ولا بمبدئه الجرثومي : نطفة وسواها ، ثم إذ خلقت نطفته كان شيئا هو أصله الجرثومي ولم يكن مذكورا كإنسان ، ولا مذكورا باسم النطفة والمني أيضا ـ تأدبا ، إذ كان قذرا لحدّ لم يك يذكر إلا لمن اضطر ، بحثا عن أصله فيزيولوجيا ، أو خناء لمن يستحقة ، أو تذكيرا بأصله : لقد كنت نطفة قذرة .. فهذه اولى النعم التي أبلانا الله عز وجل بها أن خلقنا ولم نكن شيئا مذكورا «وعلى حدّ تعبير علي (ع) وتقرير الرسول (ص) [٢].

فهل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا؟ اللهم بلى ، إذ كان منسيّا في الخلق كإنسان ، غير مذكور قبل خلقه إنسانا ، ذكر الكيان أم ذكر اللسان ، ثم اللهم لا! إذ كنت ذاكره كل الدهر : قبل خلقه وبعده!

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾

فما هي النطفة الأمشاج؟ النطفة هي واحدة النطف : الماء الصافي ، فالمني نطف يخلق الإنسان من نطفة منها : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى﴾ وصفاءها هي اصطفاءها من البدن كله ، فانها : ﴿ثُمَّ جَعَلَ

---

(١) الكافي باسناده عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني باسناده عن الامام الصادق (ع): سئل عن قوله تعالى : ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ فقال : «لا مقدرا ولا مكونا» وسئل عن قوله تعالى : هل أتى على الإنسان ... قال : كان مقدرا غير مذكور ، وعن حمران عنه (ع) شيئا مقدرا ولم يكن مكونا أقول : التقدير هو تقدير العلم والخلق قبل ان يخلق.

(٢) اولى الشيخ الطوسي باسناده الى الامام الباقر (ع) ان النبي (ص) قال لعلي (ع) قل : ما أول نعمة أبلاك الله عز وجل وأنعم عليك بها؟ قال : أن خلقني جل ثناؤه ولم أك شيئا مذكورا ، قال : صدقت.

نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ﴾ (٣٢ : ٨) فالمني بحر لجي من ملايين النطف : الدودات العلقية ، ولمائه صفائه لأنه المصطفى من كل البدن ، ثم النطفة التي يخلق منها الإنسان هي سلالة من هذه السلالات ، فالإنسان نتيجة نهائية لتسلسل سلالات عدة : يتسلل المني عن البدن كله بما تغذّى ، كما الغذاء سلالة من طين ، فالمني سلالة من طين : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (٢٣ : ١٢) : سلالة هي من طين ، وهي المني ، ثم نطفة: سلالة من هذا المني!.

ومن ثم إذا كانت هذه النطفة واحدة فكيف توصف بالأمشاج؟ فكيف يجمع بين الوحدة والجماعة؟ نقول هنا ما قلناه في ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ (٢٣ : ٥٠) فهما من حيث الوجود اثنان ، ومن حيث الآية المعجزة آية واحدة لتلازمهما فيها ، كذلك النطفة واحدة في كيانها وجاه سائر النطف ، ولكنها حصيلة الأمشاج : الأخلاط ، جمع المشيج أو المشج أو المشج أو المشج : الخليط أو الخلط ، فهي «محطّ الأمشاج من مشارب الأصلاب» (١) حيث «ماء الرجل والمرأة اختلطا جميعا» (٢) وهذا مشج واحد فما هي الأمشاج؟ :

مشج اوّل هو أصول الغذاء الإنساني المركبة من عناصر عشرة هي : الأوكسجين ، والأودروجين ، والكربون ، والأزوت ، والكبريت ، والفوسفور ، والبوتاسيوم ، والمغنسيوم ، والكلسيوم ، والحديد ، وتلك عشرة كاملة تتبنى غذاء الإنسان.

فهذه العناصر داخلة في كل نبات وحيوان ، وأخيرا في الإنسان لأنها

---

(١) في نهج البلاغة قوله (ع) عالم الغيب من ضمائر المضمرين الى قوله : ...

(٢) القمي : عن الامام الباقر (ع) في تفسير الأمشاج.

غذاءه ، فأعصابه وخليّاته تتكوّن وتتقوى منها ، وهي كلها دخيلة في خلق المني ، ويا لها من اختلافات لونية وعنصرية في المفعول!.

ومشج ثان : خلق المني من مجموعة هذه الأعصاب ، ذكرا وأنثى ، فهو قطرة من بحر الكيان الانساني ككل ، طالما تكون خزانته الاحتياطية البيضتين ، والأصيلة صلب الرجل وترائب المرأة ، ودليلا حسيا على هذه الجمعية ارتخاء الأعصاب كلها ، بما يشدها ويمدها المركز الرئيسي : الصلب والترائب.

ومشج ثالث : خلط ماءي الذكر والأنثى : ﴿خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ﴾ (٨٦ : ٧) اعتبرا ماء واحدا لمكان المزج والمشج ، ولكي يخلق منهما إنسان واحد فيمشجان في الرحم : بيت الزوجية الثاني للزواج الثاني.

ومشج رابع : تزاوج النطفتين : ـ خلية الذكر وبويضة الأنثى ـ بعد خلط المائين ، فالبحران المنويان هنا يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان ، ثم تلتقي من كلّ دودة مع الأخرى في الآخر ، زواج بعد زواج عجيب [1].

ومشج خامس : هو تتمة عملية الزواج الأخير في بناء الإنسان الجديد : أن يمشج الشريكان ، كل ما عنده بما عند الآخر من عناصر التخطيط (الكروموزومات Chromosmes) وما فيها من الخلق المخلّقة (الجينات Qenes) التي خطتّها وخلقتها وسوّتها يد القدرة الإلهية بأقلام الإرث المنحدر عبر الأجيال من الجدود والآباء الى الأبناء ، فالوراثات المتداخلة الكامنة في النطفة ، الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولا ، ولصفات الجنين العائلية أخرى ، هذه الوراثات هي الدور الخامس من النطفة الأمشاج.

---

(١) راجع ج ٣٠ ص ٣٦٢ ـ ٣٦٥ ، تجد فيه كيفية زواج النطفتين.

ومشج سادس : هو خلط الطبائع الكامنة في النطفة من حرارة وبرودة ويبوسة ورطوبة ، وتبتني البنية الحيوانية المعدّلة الأخلاط منها ، التي هي ظروف ومجالات فاسحة لتصرفات الروح : الغضبية والشهوية والعقلية وأمثالها ، والى أمشاج أخرى لم تصل إليها أيدي العلم حتى الآن.

وكما الإنسان حين نزول القرآن ما كان يدري شيئا من هذه الأمشاج ، مما حمل جماعة من المفسرين يحاولون في جعل الأمشاج مفردا ، وجماعة أخرى ساكتون عن تفسير الجمع بعد تصديقه ، وثالثة يكتفون بمشج ماءي الذكر والأنثى ، رغم ان للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن!

﴿... نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ :

الابتلاء هو نقل الشيء من حال الى حال ، ومن طور الى طور ، كابتلاء الذهب من كدر الى صفاء في البوتقة ، والإنسان كائن متطور متنقل منذ النطفة حتى الممات ، روحيا وجسدانيا ، وكافة تطوراته هي من فعل الله وابتلاءه ، سواء أكانت من سعيه ، كالمختار فيها بعقله وحوله ، أم سواها مما لا حيلة له فيها ، من التطورات الجنينية وسواها ، من نطفة الى علقة والى آخر الأطوار المتعاقبة حتى إنشاءه خلقا ، ثم من ولادته الى وفاته من حياة التكليف والإختيار وسواهما ، وإنما ابتلاءه في حياة العقل والتكليف يتطلب السمع والبصر قلبا وقالبا ، ولكي يصدر الإنسان بهما وبسائر وسائل الإدراك ، من آفاق التكوين والتشريع الى عقله وقلبه ، استزادة للوعي واهتداء الى ما يجهله بما هداه الله السبيل ، وليكون أحسن المخلوقين ، فإما شاكرا وإما كفورا.

فهل إن «نبتليه» هنا حال من الإنسان منذ النطفة حتى الممات؟ وابتلاءه من غايات خلقه ـ المهمة : ﴿فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ لتكملة هذا الابتلاء

بإكمال وسائله الاختيارية؟ إذا ﴿فَجَعَلْناهُ﴾ تفريع على نبتليه : فلكي نكمل ابتلاءه جعلنا له وسائله.

أم إنها حال من الإنسان في التطورات الجنينية ﴿فَجَعَلْناهُ﴾ بعد ابتلاءه هذا ﴿سَمِيعاً بَصِيراً﴾؟ وأهم الابتلاء إنما هو في الحياة ولا سيما حياة التكليف!

طالما يعم قبلها منذ النطفة حتى الولادة حتى عقل التكليف! أم حال منه في حياة التكليف فحسب فابتلاءه إذا بعد جعل السمع والبصر؟ وهذا يقتضي قلب الجملة جعلناه سميعا بصيرا لنبتليه وهو خلاف الفصيح!

أم غاية لخلقته : خلقنا الإنسان .. لنبتليه فجعلناه .. وهذا تكلّف دون دليل! والاول أشمل وأوفق لفظيا ومعنويا دون تكلف : حال أنا «نبتليه» لهذه الحالة التي هي ايضا غاية : ﴿فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ لتحسن حالة الابتلاء!

والسمع والبصر هما العنصران الأساسيان للابتلاء ، ولا يعنيان الجارحتين فحسب ، لأن مدار الابتلاء هو سمع العقل وبصر القلب ، ففاقدهما لا يبتلى مهما كان قويا في سمع الظاهر وبصره ، فأصل الابتلاء هو السمع والبصر عقليا وقلبيا ، وكماله السمع والبصر قالبيا ﴿وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾[1] ولا يبتلى ويكلف من لا يجدهما عقليا ، دون العكس.

والسميع والبصير هما مبالغتان في السمع والبصر ، ما ذكرا في القرآن إلا وصفين لله ، إلا في موضعين ثانيهما : ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ﴾ (١١ : ٢٤) مما يدل على أهمية التوصيف بهما لغير الله

---

(١) راجع الى تفسير هذه الآية في سورة الملك.

تعالى ، فالإنسان السميع البصير لا يكاد يخفى عليه ما ينفعه في ابتلاءه واهتداءه السبيل ، وقليل هؤلاء الذين يتذرعون هذه الوسائل لاهتداء السبيل :

﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ﴾ : السبيل هي الطريق الذي فيه سهولة ، سبيل الخير لتطلب وسبيل الشر لتجتنب : ﴿وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (٩٠ : ١٠) ولقد يسر الله هاتين السبيلين للإنسان : ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ (٨٠ : ٢٠) فهداية السبيل وتيسيرها ، يوحيان بيسر على يسر مندغمين في ذات الإنسان ، مركّزين في نجدي الخير والشر [1] ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ﴾.

فالهداية ـ هنا ـ هي دلالة الطريق : فطريا وعقليا وأمثالهما من سائر التكوين ، وتشريعيا بكتابات الوحي وأنبياءها ودعاتها ورعاتها.

والسبيل هنا تعم النجدين : الخير والشر ، إذ ألهمناها : ﴿فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾ (٩١ : ٩). فإن لاستبانة سبيل المجرمين دخلا عظيما ودافعا لسلوك سبيل المؤمنين : ﴿وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٦ : ٥٥) فليست هداية سبيل الله كافية في اجتناب سبيل الطاغوت ، فلنهتد السبيلين ، لكي نكون على بصيرة منهما في الضلالة والهدى ، وتتم حجة الله علينا فيهما : ﴿وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (٦ : ١٥٣).

﴿إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ : «إما» هنا ليست للترديد في علم الله تعالى ، وإنما ايحاء لتردد الإنسان بين الأمرين تخييرا دون تسيير ، فيما إذا كان شاكرا أو كفورا حالين من الإنسان أو خبرين ليكون المقدر.

---

(١) راجع ج ٣٠ ص ١٢٢ ـ ١٢٣ «ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ».

أو انها لتقسيم السبيل الى شاكر أو كفور ، إذا كانا حالين للسبيل أو بدلين عنهما : هديناه سبيل الشكر وسبيل الكفر ، وما أجمل التعبير عن السبيل الواضح بالشاكر والكفور ، كأنهما مندغمان في السبيل لكثرة وضوحهما فيها كالشمس في رابعة النهار : ﴿وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾.

والآية تتحمل المعنيين معا لفظيا ومعنويا ، فليكونا مقصودين ، والشكر علّه من الكشر : الكشف ، وهو تصور النعمة وإظهارها ، بخلاف الكفر ، أو انه «الأخذ بها ، وكفرها وتركها» [1] وأكمله الأخذ باللسان كله ، والجنان كله ، والأركان كلها ، أن يصبح المنعم عليه شكرا للمنعم في كيانه ككل ، وكامله الأخذ مبدئيا في الكلّ مع تسرّب اللمم أحيانا ، وناقصه الأخذ بالبعض ، وكله أخذ وشكر وتركه كفر ، كلّ على حدّه ، وهذه المعاني الثلاثة متقاربة أو مترادفة تعني : إظهار النعمة وصرفها فيما أوتيت لأجلها ، فاللسان معبر عما في الجنان ، والأركان تعبر بأعمالها عن مدى الإيمان ، وعلى حدّ المروي عن الرسول (ص): «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه فإذا عبّر عنه لسانه إما شاكر وإما كفور» [2].

ومقابلة «شاكرا» ب «كفورا» وهي صيغة موغلة في الدلالة على الكفران ، دون «كافر» هذه المقابلة توحي بأن غير الشاكر كفور ، فان ترك الشكر بهذه الموهبات الربانية كفران لها وكفر بالرب ، وكفر بالفطرة والضمير والعقل : الدافعة الى الشكر ، وكفر بحملة الرسالات الربانية ، إذا

---

(١) التوحيد للصدوق عن الامام الصادق (ع) واصول الكافي عنه (ع) والقمي عن الامام الباقر (ع) في الآية قالا : «إما آخذ فهو شاكر وإما تارك فهو كافر» (نور الثقلين ٥ : ٤٦).

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٩٨ ـ اخرج احمد وابن المنذر عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله (ص).

ف ﴿كَفُوراً﴾ : ﴿وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ (٣٤ : ١٧) مما يدل على أنه كل كافر ، إذ يحصر الجزاء العقاب بالكفور ، وكما الكفور أيضا دركات حسب دركات الكفران ، وهنا ينقسم الى كافر وكفور.

ومن ثم تعني أن الشاكر أعم من الشكور ، ولذلك لم تقابل الكفور بالشكور ، فمن الشاكر شكور وقليل ما هم ، ومنهم غير شكور وما أكثرهم ، كأنما الإنسان بطبعه كفور : ﴿فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ﴾ (٤٢ : ٤٨) وليس بطبعه شكورا ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾ (٣٤ : ١٣).

﴿إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً﴾ :

والكافر هنا أعم من الكفور ، كما كان الشاكر هناك أعم من الشكور ، والإعتاد هو إعداد الشيء حتى يكون عتيدا حاضرا ، فقد هيأ الله تعالى لأخرى الكافرين ما قدموه في دنياهم : سلاسل : قيودا لأقدامهم ، وأغلالا : لأيديهم تشدها الى رقابهم وتجعل الأعضاء وسطها ، وسعيرا : نارا متسعرة يلقون فيها مسلسلين مغلولين ، عذابا فوق العذاب! ولقد ظلوا يوم الدنيا مسلوكين في سلاسل الهوى ، ينقادون ما قادهم الشيطان ، ومغلولين في أغلال الشهوات في سعير حياتهم الجهنمية كل الحياة ، فالإعتاد الإلهي لهذا العذاب حسب ما أعتدوا واعتدوا وبغوا ، جزاء وفاقا ، وهذه الآية كأمثالها من آيات الإعتاد توحي بخلق الجحيم بأصولها ، وإنما تترقب حطبها لكي تسعر أكثر فأكثر. هذا هو جزاء الكفور ، فما هو جزاء الشكور؟ :

﴿إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً. عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً﴾ :

الأبرار هنا تعم المقربين ـ وأحرى ـ طالما الآيات تنتهي بسيرة أقرب

المقربين [١] اهل بيت الرسالة المحمدية «علي وفاطمة والحسن والحسين (ع)» : ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ .. إِنَّما نُطْعِمُكُمْ ..﴾ فانها خاصة بهم كما تواترت أحاديث الفريقين [٢] رغم ان كثيرا من مفسري القرآن لم يشيروا الى نزول هذه الآيات بشأنهم عليهم السلام ، وعله تجاهلا عن فضلهم ، لحدّ عدّوا السورة مكية ، وهي تنادي بمدنيتها كما يأتي.

فهم يشاركون سائر الأبرار في أبر النعم وأوفرها ، ويختصون بما لا ينالونها ، وهم أصدق المصاديق لآيات الأبرار وعلى حد المروي عن الامام الحسن المجتبى (ع) [٣].

﴿.. كانَ مِزاجُها كافُوراً﴾ : مزاج الكأس ، لا المشروب ، لذكورته

---

(١) راجع ص ٢٢٢ من ٣٠ : ١ ، على ضوء الآية ﴿إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾.

(٢) راجع تفسير البرهان وتفسير نور الثقلين وكفاية الخصام ، تجد فيها تضافر الأحاديث ان الآيات نزلت بشأنهم عليهم السلام وفضة طالما ابتدأت بالابرار كل الأبرار ، ولكي تشمل فضة خادمة علي وفاطمة ، وممن صرح بذلك الواحدي في كتاب البسيط وصاحب الكشاف رواية عن ابن عباس ، وفي الدر المنثور ٦ : ٢٩٩ ـ اخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ .. قال : نزلت في علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله (ص).

ومن ذلك ، في الإحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (ع) حديث طويل يقول فيه للقوم بعد موت عمر بن الخطاب : نشدتكم بالله هل فيكم احد نزل فيه وفي ولده ﴿إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ ..﴾ الى آخر السورة ـ غيري؟ قالوا : لا.

(٣) مناقب ابن شهر آشوب باسناده عن الهذيل عن مقاتل عن محمد بن الحنفية عن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع) قال : كل ما في كتاب الله عز وجل من قوله ﴿إِنَّ الْأَبْرارَ﴾ فو الله ما أراد به الا علي بن أبي طالب وفاطمة وانا والحسين لأنا نحن ابرار بآبائنا وأمهاتنا ، وقلوبنا عملت بالطاعات والبر ، ومبراة من الدنيا وحبها واطعنا الله في جميع فرائضه وآمنا بوحدانيته وصدقنا برسوله (نور الثقلين ٥ : ٤٧٣ ـ ٤٧٤).

وأنوثة الكأس ، والكافور اسم أكمام الثمرة التي تكفرها ، مبالغة في الكفر : الستر [1] ، فمزاج الكافور لكئوس الشراب في الجنة ، كفر لها عن كسرها وتغيّرها ، وتغييرها لشرابها ، ولم يأت في القرآن مزاج الكافور لشيء إلا الكأس ، وإلا هنا ، آية وحيدة في مزاج الكافور لكأس الجنة.

و «كان» توحي بسبق هذا المزاج عن الشرب والشراب والتفجير ، مما يؤيد مزاج الكأس نفسه دون الشراب ، وأنهم مزجوا كؤوس قلوبهم وأرواحهم بما يكفرها ويسترها عن موتها ، ويعدّها لشرب مياه الحياة المعرفية والروحانية.

فهذه سيرة الأبرار في دنياهم ، وتلك صورة واقعية لهم في عقباهم ، كأسا بكأس ، ومزاجا بمزاج ، وشربا بشرب ، فمن اين يشربون؟ :

﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً﴾. وما أحلاها مشربا من نبعة تنبع بما يفجّرونها تفجيرا أنيقا يسيرا ليس فيه من تكلف لا كثيرا ولا قليلا ، وإنما تفجيرا كثيرا وفيرا ، فما أنظفها شربا وشاربا وكأسا وعينا وتفجيرا : عباد الله الأبرار ، كأس الكافور ، عين مفجرة بذات أيديهم ، وعلّه بغمزة واشارة ، أو قولة وارادة ، أو أيا كان من تفجير كما يشاءون : ف ﴿فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾!.

ثم إن «عينا» تلمح لواحدة ، فكيف يكتفي عباد الله بعين واحدة؟ أم كيف يشتركون كلهم في تفجير هذه الواحدة؟ ولعل الجواب أنها واحدة في منبع أصيل ، كثيرة في نبعات فرعية في مناكب أرض الجنة ، كل يفجّر هذه الواحدة عنده بساقية تحت الأرضية عنها ، والأصل من تفجير الله! :

---

(١) والكافور المعروف تستخرج من شجرة اريجية من فصيلة الغاريات مهدها الاصلي جنوب الصين ازهارها بيضاء ضاربة الى الصفرة.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (١٥ : ٤٥) عيون مفجرة من تلك الواحدة ، وكما المقربون لهم عين خاصة بهم : ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (٨٣ : ٢٨) وقد تجاوب هاتين العينين : ﴿فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ﴾ (٥٥ : ٥٠) ﴿فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ﴾ (٥٥ : ٦٦) عينان تفجّر من كلّ عيون!.

وهذه «هي عين في دار النبي (ص) تفجر الى دور الأنبياء والمؤمنين» (١) كما تفجرت عيون النبوات الى دور النبيين من البيت المحمدي طوال الرسالات الإلهية ، والى دور المؤمنين ، فلكلّ عين من هذه الأصيلة يوم الدين حسب ما فجروها يوم الدنيا.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ :

قد يوحي تأخير «يوفون بالنذر» وهو عمل الدنيا ، عن «يشربون» وهو جزاء الآخرة ، يوحي هذا التعبير العبير بأن الوفاء بالنذر هو من هذه الأعمال الخيرة التي تشربهم في الجنة وتفجّر لهم عيونها ، كما شربوا حب الله ، وحب الفقراء في سبيل الله ، وفجّروا عيون قلوبهم له ولهم ، وكما يوحي بأن الحالة هذه نفس الحالة تلك ، طبقا عن طبق ، فحال الأبرار في شربهم موجودة يوم الدنيا ، كما أن حالهم في وفائهم موجودة يوم الدين.

والوفاء بالنذر ـ ومنه الإيجاب على النفس لسبب ـ يلمح بأنهم وصلوا في استجابة أمر الله القمة ، فإذ يوفي الإنسان ما يفرضه الله على نفسه فهو أوفى لله بفروضه الأصيلة ، وهذه الآية تجاوبها آيات عدة في وجوب الوفاء بالنذر : ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ (٢٢ : ٢٩) ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (١٩ : ١٦).

---

(١) امالي الصدوق عن الامام الباقر (ع) في آية التفجير قال : «هي عين في دار ...

وقد يعم النذر إيجاب الواجب ، فرضا على فرض ، كإيجاب المندوب فرضا على ندب ، فالأبرار ينفذون ما اعتزموا من واجبات ، وما التزموا من طاعات ، كما ويعم ما أوجب الله عليهم في الميثاق [١] فهم يوفون بنذورهم ونذور الله.

وإنها لهي صورة لماعة عن قلوب صافية ، وصدور منشرحة ضافية ، معتزمة على الوفاء لله ، عاملة لوجه الله ، دون أن تريد إلا مرضاة الله.

إنهم ﴿يَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ فهنا شرّ مستطير ، وهناك شرّ ثابت ، فالمستطير هو شرّ الدنيا ، والثابت هو شرّ الآخرة الناتج عن الاولى ، فان شر الآخرة من شر الدنيا المستطير إليها ، فحقيقة الاستطارة من صفات ذوات الأجنحة : البعثة على الطيران ، فشر الدنيا مبعوث من قبل الله للطيران الى مسجلات الكون : شهود الأعمال ، وللطيران الى اعماق البرزخ والقيامة ، ثم يقف للحساب والجزاء : ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً﴾ (١٧ : ١٣) وإنها تيارات الشر ، كأنها طائرات وهي في أعناق ركابها.

وتجاوب «مستطيرا» «كان» فانها تلمح بمضيّها ، بأن شر الآخرة ـ المستقبل ـ هو استمرار لشر الدنيا ـ الماضي ـ المستطار ، طبقا عن طبق ، فليقطع العاقل أجنحة الشر وأصولها في الاولى ، لكي لا يستطير والى الآخرة.

ولأنهم يخافون ذلك اليوم البئيس العصيب ، يدأبون ـ هنا ـ في اجتثاث جذور الشرور لكي لا تستطير ، ويعملون في استطارة الخيرات لكي تستطير ،

---

(١) اصول الكافي باسناده عن أبي الحسن الماضي في آية النذر قال : يوفون لله بالنذر الذي أخذ عليهم في الميثاق من ولايتنا.

ومن أسباب ذلك السلب وهذا الإيجاب الإيفاء بالنذر واطعام الطعام على حبّه لوجه الله ، المسكين واليتيم والأسير كما فعله علي وفاطمة والحسنان (ع) واحتج به علي (ع) على أبي بكر [1].

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ، إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً﴾.

مكرمة أخرى للأبرّين ، هي إطعام الطعام على حبّه للمحاويج ، إيثارا على أنفسهم ، وبهم خصاصة! لوجه الله لا سواه ، أركان ثلاثة في الإنفاق ترفع به الى قمته ، وتوحي بالخير المستطير ، بعد ما اجتثوا جذور الشر المستطير.

١ ـ فمن أصول البرّ والإنفاق الحسن أن يكون محبوبا ، طعاما وإطعاما : «على حبّه» فلا كرامة في إطعام الطعام المرذول ، أو إطعام مكروه وان كان الطعام محبوبا وكان لوجه الله : ﴿لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (٣ : ٩٢) حبّا مزدوجا للإنفاق وما تنفقون.

والنص «على حبّه» : الطعام والإطعام لا «في حبّه» لكي يؤول الى حب الله : ﴿وَآتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ (٢ : ١٧٧) ، اضافة الى أن الطعام هو المرجع الأقرب «الطام على حبّه» و «الله» أبعد في الموقع الكلامي «عينا يشرب بها عباد الله» وان المضاف اليه ك «الله» هنا ، لا يرجع اليه ضمير أيا كان.

---

(١) الخصال في احتجاج علي (ع) على أبي بكر قال : أنشدك بالله انا صاحب الولاية ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ أم أنت؟ قال : بل أنت (نور الثقلين ٥ : ٤٧٧).

ومن الناحية المعنوية ايضا قد يطعم الطعام غير المحبوب في حب الله ، وأما إذا يطعم المحبوب لوجه الله فهو الوجه الأحسن في الإطعام ، ووجه الله مذكور بعده ﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾ فلما ذا يؤول «على حبه» الى حب الله؟

كلا : إنما على حب الطعام والإطعام ، حبّا عاليا الى حاجة مدقعة لهؤلاء المطعمين ، فلم يقل «مع حبّه» إنما «على حبّه» ما يوحي باستعلاء حبّه عليهم ، لا حبّا ذاتيا للطعام أو نوع الطعام ، فإنهم كانوا أخلص المخلصين وأبر الأقربين ، لا يحبون إلا لله وفي الله ، فإنما حبا لإدمان الصيام الذي نذروه ، ولتقوى أبدانهم على طاعة الله وتقواه ، ومعهم الطفلان الحسنان! وأنهم حصلوا الطعام على مشقة وصعوبة بالغة.

فهم ـ على حبهم هكذا طعام ، وحبهم للإطعام يطعمون لقمة الفطور وبلغة الصيام للمحاويج السائلين ، بأريحية نفس ورحمة قلب وخلوص نية ، وكما فعله علي وفاطمة والحسنان «وهما صغيران» [١] ومعهما الخادمة فضة وقد تواترت به أحاديث الفريقين [٢].

---

(١) امالي الصدوق عن الامام الباقر والصادق (ع) في الآية انهما قالا : مرض الحسن والحسين وهما صبيان صغيران فعادهما رسول الله (ص) ومعه رجلان ... وفيه انهما صاما مع أبويهما ـ الى نهاية القصة.

(٢) رواه فيمن رواه ابو صالح ومجاهد والضحاك والحسن وعطا وقتادة ومقاتل والليث وابن عباس وابن مسعود وابن جبير وعمرو بن شعيب والحسن بن مهران والنقاش والقشيري والثعلبي والواحدي في تفاسيرهم ، وصاحب اسباب النزول والخطيب المكي في الأربعين وابو بكر الشيرازي في نزول القرآن في أمير المؤمنين (ع) والأشنهي في اعتقاد اهل السنة وابو بكر محمد بن احمد بن الفضل النحوي في العروس في الزهد ، وروى أهل البيت عن الأصبغ بن نباتة وغيرهم عن الباقر (ع) (نور الثقلين ٥ : ٤٧١ عن المناقب لابن شهرآشوب).

٢ ـ ومن أصول الإطعام أن يحل محله الأحرى والأحوج ، ولا أحوج من : مسكين أسكنه العدم عن الحراك في حاجيات الحياة ، ويتيم انقطع عمن يصلح شأنه وهو قاصر عما يصلحه ، وأسير : سجين أو ملك يمين : هؤلاء المحاويج الذين لا يجدون حيلة ولا سبيلا ، الذين طرقوا باب الرحمة سائلين ، فآثرهم أهل بيت الرحمة على أنفسهم وقد كانت بهم خصاصة!

هنا تظهر مدنية هذه الآيات (١) لمكان الأسير بين السائلين ، ولم يكن المؤمنون

---

(١) لقد روى نزول هذه الآيات في المدينة فيمن رواه : السيوطي في الإتقان عن البيهقي في دلائل النبوة عن عكرمة والحسين بن أبي الحسن ، وعن الضريس في فضائل القرآن باسناده عن عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه عن ابن عباس ، وعن البيهقي في الدلائل عن مجاهد ، وجلال الدين السيوطي في الدر المنثور باسناده عن ابن عباس ، وأبو حمزة الثمالي في تفسيره ، والطبرسي عن السيد ابو الحمد مهدي بن نزار الحسيني القايني باسناده عن ابن عباس ، والأستاذ احمد الزاهد عنه.

والقصة حسب نقل البحراني في غاية المرام عن أبي المؤيد الموفق بن أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين (ع) والحمويني في كتاب فرائد السمطين وعن الثعلبي والواحدي في تفسيرهما ، وفي الكشاف : «ان الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله (ص) في ناس معه فقالوا : يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك ، فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما إن برءا مما بهما ان يصوموا ثلاثة أيام فشفيا وما معهم شيء.

فاستقرض علي من شمعون الخيبري اليهودي ثلاث أصوع من شعير فطحنت فاطمة صاعا واختبزت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد! مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياما ، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه ، ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك فلما أصبحوا أخذ علي بيد الحسن والحسين وأقبلوا الى رسول الله (ص) فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال : ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها فساءه ذلك فنزل جبرئيل وقال : خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة.

في مكة في حرب حتى يأسروا ، ولا في قوة حتى يجسروا أن يأسروا المشركين ، وإنما كانوا هم في أسرهم وحصرهم حتى اضطروا للهجرة الى المدينة ، ومن ثم قويت شوكة الإسلام وبدأت دولته ، فكان أسير وحصير بأيديهم من جراء حروبهم مع المشركين ، وكان الأسير منهم (١) لا من المسلمين إذ لا يعهد أسر المسلم إسلاميا ، اللهم إلا الكتابي ولم يكن منهم أسير وقتذاك.

فهنيئا لآل بيت الرسالة المحمدية إذ تنزل السورة بشأنهم ، كما قال جبرائيل : خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك ، فأقرأه السورة مهما شملت من حذا حذوهم ونحا نحوهم.

وهنا يبرز الحنان الإسلامي بشأن بني الإنسان كافة ، وأسارى الحرب ، المشركين ، فلا يرضى أن يظلوا جياعا ، ولا يأسرهم إلا عن أخطارهم ، وليتعرفوا الى الإسلام في أسر المسلمين في دورهم وديارهم ، علّهم يؤمنون أو يؤمنون دون حبس وتعطيل عن الحياة إلا لضرورة ، وسئوال الأسير هنا أقرب شاهد انه لم يكن سجينا مهما كان تحت الرقابة في بلد الإسلام ، «وقد كان يؤتى الرسول (ص) بالأسير فيدفعه الى بعض المسلمين فيقول أحسن إليه فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه» (٢).

ويعم الأسير كلّ من هو في أسر الإنسان معنويا أو ماديا ، إلجاء عليه ، أو لجأ إليه ، ك «عيال الرجل ، ينبغي له إذا زيد في النعمة أن يزيد

---

(١) الدر المنثور ـ اخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه عن الحسن قال : كان الأسارى مشركين يوم نزلت هذه الآية ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ ..﴾.

(٢) تفسير روح المعاني للآلوسي ج ٢٩ ص ١٥٥ عن الحسن.

أسرائه في السعة عليهم» [١] وملك اليمين [٢] ، والغريم كما عن الرسول (ص) «غريمك أسيرك فأحسن الى أسيرك» [٣] هذا وكذلك ـ بالأحرى ـ كل من تعوله علميا وعقائديا.

كما وان المسكين واليتيم يعمان المسكنة واليتيم معنويا كما يعمان المادي سواء.

٣ ـ ومن أصول الإطعام أن يكون لوجه الله دون منّ ولا أذى ﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ ..﴾ دون سائر الوجوه المادية والمعنوية : جزاء أو شكورا ، رحمة فائقة فائضة من قلوب رفيقة ندية على من لا يرجى خيرهم ، وإنما ابتغاء مرضاة الله ورجاء رحمة الله ، متجردة عن البواعث الارضية ، الى باعث سماوي فقط هو وجه الله : مرضاته ، لا ذاته ولا وجه الذات ، إذ لا وجه له كما لنا.

وهذه التجردية هي حجر الأساس في بناية الإنفاق على المحاويج ، وفي سبل الخير : الفردية والجماعية ، تضامنة اجتماعية عريقة على أساس التقوى وروح الحنان لبني الإنسان عامة ، وللصالحين خاصة ، تهذيبا لأرواح الباذلين ورفعها الى مستوى رفيع ، وحفاظا على كرامة وسيادة المبذول لهم ، وتعميما للبذل.

---

(١) أصول الكافي باسناده عن أبي الحسن (ع) قال : ينبغي للرجل أن يوسع على عياله لئلا يتمنوا موته وتلا هذه الآية ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ ...﴾ قال : الأسير .. وعن الرسول (ص) اتقوا الله في النساء فإنهن عندكم أعوان (تفسير الرازي ج ٣٠ ص ٢٤٥).

(٢) تفسير الرازي ج ٣٠ ص ٢٤٥ روي مرفوعا من طريق الخدري عن النبي (ص) في الآية قال : مسكينا ، فقيرا ، ويتيما : لا أب له ، وأسيرا : المملوك المسجون.

(٣) تفسير روح المعاني للآلوسي ج ٢٩ ص ١٥٦.

ولو كان البذل محصورا في حصار التجارات : جزاء أو شكورا ، أصبح الكثير من ذوي الحاجة محرومين ، ولو كان مقرونا بمنّ أو أذى انقلب عارا في أنفس المحتاجين ، ولكنه اشترط في الإنفاق أن يكون مما نحب وبطريقة حبيبة بعيدة عن المنّ وعن بغية الجزاء والشكور ، وعن لمحات توحي بوهن ومهانة للمعطى ، واستعظام للمعطي ، ولكي يصبح الإنفاق كأنه من يد الله دون وسيط ، ويا له إنفاقا عزيزا رفيقا يصاحب حيوية العاطفة ويحافظ على حساسية القلوب.

وهل إنهم خاطبوا مسكينا ويتيما وأسيرا هكذا : إنما نطعمكم .. قولة في آذانهم؟ ولا نلمس هنا نقل قول : «قالُوا إِنَّما ..» ولا ان في قول اللسان رجحان ، وقد يكون نقصانا من روحانية الإطعام وإخلاصه ف والله ما قالوا هذا لهم ولكنهم أضمروه في أنفسهم فأخبر الله بإضمارهم ، يقولون : لا نريد جزاء تكافوننا به ، ولا شكورا تثنون علينا به ، ولكنا إنما أطعمناكم لوجه الله وطلب ثوابه» [1] : ومن أثوب ثوابه معرفته ومرضاته وهذه عبادة الأحرار!. فليست إذا قولة في الآذان ، وإنما قالوا في أنفسهم قولا بليغا ، فإطعام الطعام هكذا ـ مع ما تصحبه من ملابسات ـ تنفي الرئاء وسائر وجوه النية السيئة ، وإنه تعبير عبير في أنفس المحاويج عن «إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ ...» دون قولة باللسان ، فالتلميح أبلغ من التصريح : «لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً» : لا مكافأة ولا إظهارا بثناء جميل ، أو تلميحا للناس أن ذلك من فلان وفلان ، فان شكر النعمة وشكورها هو إظهارها قلبا أو لسانا أو عملا ، ف «إنما» هناك تنفي كل غاية من هذا الإطعام إلا وجه الله ، لا واقع الجزاء والشكور فهم رافضوه ، ولا إرادته أو نيته فهم مترفعون عنها ، وإنما ارادة وجه الله لا سواه.

---

(١) امالي الصدوق عن الصادقين (ع) في حديث طويل عن القصة.

فهل لا يريدون من الله أيضا جزاء كما لا يريدون منهم؟ تلمح ﴿إِنَّما ..﴾ أنهم لا يطعمون جزاء ولا من الله ، فانها عبادة الأجزاء! ولا تحرزا عن عذاب الله فإنها عبادة العبيد! وإنما يعبدونه لأنه الله ، «لوجه الله» وإنها عبادة الأحرار ، فهؤلاء الأبرار هم أبر الأحرار ، ولا تعني «منكم» نفي ترقب الجزاء والشكور منهم فقط ، وإنما كأقرب الجزاء المترقب ، و «إنما» المسبقة تحصره في وجه الله ، اللهم إلا أن يكون ترقّبه من الله بأمر الله ولوجهه ، لا أجرا منه ، ثم وليس خوفهم يوما عبوسا قمطريرا إلا خوف البعد عن زلفاه ومعرفته ورضاه ، وإنما هي جنة الرضوان يعملون لها ، ونيران البعد يتحذرون عنها :

﴿إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾ :

﴿نَخافُ مِنْ رَبِّنا﴾ خوفا من ربوبيته لعدله ، الظاهر «يوما عبوسا» : قاطبا وجهه معبّسا «يقبض ما بين الأبصار» [١] يستدل بعبسه وقطوبه على إرصاده بالمكروه وعزمه على إيقاع الأمر المخوف «قمطريرا» : شديدا ضره ، طويلا شره ، وهذا اليوم نفسه متطلق مستبشر لمن يخافون ربهم فيحسبون حسابه حياتهم ، فالطّلق والعبس ليوم الحساب ، كلّ بحساب كيفية الحساب ، دون أن يحمل اليوم بذاته أيا منهما إلا ميزان الحق والعدل.

ف «الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران» [٢] والمؤمن يلقّى نضرة وسرورا :

﴿فَوَقاهُمُ اللهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾

﴿فَوَقاهُمُ اللهُ﴾ بما وقوا أنفسهم يوم الدنيا واتقوا ﴿شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ﴾

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٩٩ ـ أخرجه ابن مردويه عن انس عن النبي (ص) في الآية.

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٦٧ كما روي أن الكافر ...

وعبسه وقطوبه «ولقّاهم» : استقبلهم «نضرة» في وجوههم «وسرورا» في قلوبهم [١] تلقية لكيانهم ككلّ إعلانا وإسرارا كما كانوا يوم الدنيا ناضري الوجوه وطاهري القلوب.

﴿وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ، مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً﴾ :

طرف من نعيم الجنة إيجابا وسلبا جزاء بما صبروا في الله على الحرمان من نعيم الدنيا ، وعلى طاعة الله ، وعن معصية الله.

فبعد أن سبق شرابهم من كأس الكافور ، هنا يجمل في ذكر مكانهم وأكلهم ب «جنة» ثم تختص الحرير من لباسهم ، فإن ﴿لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ﴾ (٢٢ : ٢٣) أنعم لباس وألينه وأحسنه ، فهذه نعم إيجابية.

ثم سلبية هي عدم رؤية شمس ولا زمهرير ، فهم في حياة مريحة مطمئنة ناعمة معتدلة دون أن يلمسوا شمسا لاهبة ساخنة ولا بردا قارسا ، عوان بين ذلك سجسج لا قرّ فيها ولا حرّ.

ترى إن الأبرار لا يرون فيها شمسا لأنها كورت عند قيامتها فلا شمس هناك؟ ولا زمهريرا لأنها لا تكون؟ إذا فليست هذه نعمة يختصون بها عن أهل النار ، إذ هم يشاركونهم في عدم الرؤية هذه وتلك!

أو إن في سماء القيامة شمس غير هذه المكوّرة ، فقد ترجع هي شمسا أو غيرها من غازات فتصبح شمس الآخرة أو شموسها ، كما ان هناك زمهريرا : برد قارس شديد ، فزبائن الشمس ونورها للنافذ هي على أهل النار عذاب فوق العذاب ، وأهل الجنة لا يرونها ، إذ تجنّهم أشجارها عن نورها ، وجوّها

(١) امالي الصدوق عن الصادقين (ع) (نور الثقلين ٥ : ٤٨٠).

عن نارها ، كما ان زمهرير على أهل النار عذاب فوق العذاب ، فأهل الجنة لا يرون بردها وقرّها ، إذ تبعد عن أولاء وتقرب من هؤلاء ، فالأبرار في جنة عادلة معتدلة عوان ، في دلال وظلال : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ﴾ (٧٧ : ٤١) ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلاً﴾ (٤ : ٥٧) ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ (٥٦ : ٣٠).

ولا معنى لظل ولا ظلال ، إذ لا شمس تشرق وتحرق ، فالظل دليل الشمس كما الشمس دليل الظل ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَ ... ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ (٢٥ : ٤٥).

وعلى إن زمهرير العذاب لأهل النار كلهم مع النار؟ لا دليل على الشمول! فإنها الآية الفريدة في ذكرها سلبا عن الأبرار ، لا إيجابا على كل أهل النار!

أو ان المعذبين بزمهرير لا يعذبون بالنار؟ تنافيه الآيات في شمول النار لغير الأبرار! إذا فهما في الجحيم متقاربان وكما في المروي عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم [1].

ومن ثم إذا اختصت زمهرير ببعض أهل النار أو شملتهم ، فكيف يجمع بين هذين المتناحرين المتنافرين ، وكلّ يخفّف الآخر ويفنيه!

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٠٠ ـ أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي وابن مردويه من طرق عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) اشتكت النار الى ربها فقالت رب أكل بعضي بعضا فجعل لها نفسين نفسا في الشتاء ونفسا في الصيف فشدة ما تجدونه من البرد من زمهريرها وشدة ما تجدونه في الصيف من الحر من سمومها. واخرج نحوه عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن قال ذكر لنا ان نبي الله (ص) قال : ... وفيه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله (ص) في حديث : وإذا كان يوم شديد البرد .. قال العبد لا إله إلا الله ما أشد برد هذا اليوم اللهم أجرني من زمهرير جهنم قال الله لجهنم ان عبدا من عبيدي استجارني من زمهريرك واني أشهد أني قد أجرته ، فقالوا وما زمهرير؟ قال كعب : بيت يلقى فيه الكافر فيتميز من شدة بردها بعضه من بعض.

هذا الواقع الخطير من عذاب النار الزمهرير ، يجاوبه واقع النار في الشجر الأخضر : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (٣٦ : ٨٠) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ﴾ (٥٦ : ٧٢) وآية غرق آل فرعون في الماء والنار : ﴿مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً﴾ (٧١ : ٢٥) نارا برزخية أدخلوها وهم غرقى الماء [1] وتجاوبه أولا وأخيرا القدرة الإلهية النافذة في كل شيء ، ان يجعل المنافرين يساعد بعضهما بعضا جنبا بجنب!

ثم الرؤية المنفية في الشمس والزمهرير ، ليست هي رؤية البصر فحسب ، وإنما رؤية الإدراك المزعجة : لمسة الحرارة والبرودة ، وابصار عين الشمس ونورها الضارية ، واما إبصارها الزمهرير ، ومن بعيد ، فلا عذاب فيه ، كما لا عذاب في رؤية النار لأهل الجنة ، بل رحمة فوق رحمة أن يروا أعداء الله كيف يعذبون! كما تجاوبها آيات الترائي والحوار بين أهل الجنة والنار.

وكما تبعد عنهم الشمس والزمهرير ، كذلك تدنو منهم ظلال الجنة عن الشمس :

﴿وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً﴾ :

ودانية عليهم ظلال الجنة بما تجنهم من شجراتها وقصورها ، والقطوف جمع قطف : المقطوفة المجتناة ، وهي عناقيد الأعناب وأشباهها ، ذللت لهم : جعلت قريبة من أيديهم ، غير ممتنعة على مجتنيها ، لا يحتاجون الى معاناة في اجتنائها ، ولا مشقة في اهتصار أفنانها ، كالظهر الذلول يوافق صاحبه ، ويؤاتي راكبه ، راحة لهم مرهفة وضيئة ، غير شماس مستصعبة،

---

(١) راجع تفسير الآية في سورة نوح.

ف «من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الذي يشتهيه من الثمار بفيه وهو متكئ»[١].

والتذليل هنا من الذّل : ضد الصعوبة ـ كالأرض المذلول ـ لا الذّل : ضد العز والحمية ، حيث الجنة عزّ بحذافيرها ، بنعيمها وأهليها.

﴿وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا ، قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً﴾ :

﴿وَيُطافُ عَلَيْهِمْ﴾ : والطائفون ﴿وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ (٥٦ : ١٥) ﴿بِآنِيَةٍ﴾ : كئوس ﴿مِنْ فِضَّةٍ﴾ ويا لفضة الجنة من صفاء وجلاء! ﴿وَأَكْوابٍ﴾ : كوز وأقداح لا عروة لها ﴿كانَتْ قَوارِيرَا﴾ وليست قوارير زجاجية ، وإنما ﴿قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ﴾ أصلها فضة ، وقواريرنا هنا من الحصى ، وإذا كانت قوارير الحصى الدنيا ، لها جلائها وصفائها [٢] فكيف إذا قوارير فضة الأخرى ، والفضة في الدنيا لا تصبح قوارير كيفما رقت ولطفت! فلو ضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء من وراءها. فنسبة قارورة الجنة الى قارورة الدنيا هي نسبة فضتها الى حصلى الجنة وأدنى! ثم الأكواب هذه ، الشفافة المتلألئة ، التي تزيد شرابها صفاء كما تزيدها جلاء ، إنها توضع في صحاف من ذهب : ﴿يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ﴾ (٤٣ : ٧١) ... ﴿قَدَّرُوها تَقْدِيراً﴾ : آنية وأكوابا وشرابا كما يشتهون ، فمن لذة الماء والشراب أن يكون على قدر الريّ لا زائدا يرفض ، ولا ناقصا ينقص.

---

(١) روضة الكافي باسناده عن أبي جعفر الباقر (ع) قال : ان رسول الله (ص) سئل عن قول الله عز وجل ﴿وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً﴾ : قال : ... وفي آخره : وان من الفاكهة ليقلن لولي الله يا ولي الله كلني قبل ان تأكل هذه قبلي (نور الثقلين ٥ : ٤٨١).

(٢) المجمع ١٠ : ٤١٠ عن الامام الصادق (ع) في ﴿قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ﴾ : ينفذ البصر في فضة الجنة كما ينفذ في الزجاج.

فآنية الفضة ، وأكوابها القوارير في صحاف الذهب ، بطائفيهما الولدان المخلدين اللؤلؤ المنثور ، تزيد الأبرار قرارا بين الظلال الوارفة ، والقطوف الدانية والجو الرائع ، ما لم تعهده الأرض ، ولا تصورا!.

وهل المشروب بآنية الفضة من قواريرها ، هو الماء؟ أم خمر الجنة؟ علها هي [١] حيث يذكر شراب الماء بعدها من ماء السلسبيل :

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلاً. عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾

فللأبرار كأسان لشراب الماء ، كأس الكافور وكأس الزنجبيل [٢] : ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللهِ﴾ و ﴿عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾ : سهلا لذيذا حديد الجرية ، غاية في السلامة وسهولة الانحدار في الحلق [٣] فسل عنها سبيلا [٤] يوم الدنيا ، ان تدخل في صنف الأبرار ، فتشرب منها يوم الدين.

ومزاج الزنجبيل كمزاج الكافور هو كوقاية للكئوس بما فيها من ماء الجنة

---

(١) راجع ٣٠ : ١ ص ٢٢٦ : خمر الدنيا والآخرة ، «فِي ظل يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ».

(٢) قال الدينوري «الزنجبيل نبت في ارض عمان وهو عروض تسري في الأرض وليس بشجرة ، ومنه ما يحمل من بلاد الزنج والصين وهو الأجود وكانت العرب تحبه لأنه يوجب لذعا في اللسان إذا مزج بالشراب فيتلذذون «أقول : وزنجبيل الجنة يزيد لذة للشاربين كما يعلمها أهلها.

(٣) لم تذكر سلسبيل إلا هنا ، وقد يقال انها لم تسمع في غير القرآن إذ لا توجد الا في الجنة ، فليكن اسمها ايضا خاصا بها وكما يوحي له «تسمى» مما يختص هذا الاسم بهذه العين في الجنة.

(٤)تفسير الرازي ٣٠ : ٢٥٠ وقد عزوا الى علي بن أبي طالب (ع) ان معناه : سل سبيلا إليها.

وخمرها ، وكما أن خمر الجنة وماءها جنة الخمور والمياه ، كذلك زنجبيلها وكافورها.

وقد يذكر من عيون الجنة كنبعات أصلية لمياهها وأنهارها عيون عدة : هي الكوثر والسلسبيل والتي يشرب بها عباد الله والتسنيم ، ونبعة الكوثر هي في جنة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم ولها سواقي الى بيوت النبيين والمقربين والصديقين والشهداء والصالحين.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ ، إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ كخدام لمحاويجهم ﴿وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ : دائمون في طوافهم ، وفيما هم عليه من البهاء والجمال وحسن الخدمة ، كما هم في الجنة خالدون ، خلودا مثلثا لا يعنى منه هنا الأخير ، فإن أهل الجنة كلهم خالدون ، دون اختصاص ب ﴿وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ﴾.

ومن حسن منظرهم : ﴿إِذا رَأَيْتَهُمْ﴾ ـ وأنت أول من تراهم ـ ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾ : حسبانا في النظر والبصر ﴿لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾ : منشورا بين أيدي أهل الجنة ، مبذولا لهم متوافرا ، ورغم ان اللؤلؤ المنظوم له جماله ، ولكنما المنثور أجمل وأروع ، للتشعشعات المتقابلة بينها ، ولأنه تدل ألّا قيمة له وجاه أهل الجنة ، فطالما للمنظوم حساب ، فليس للمنثور المنشور حساب.

﴿وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾

نعيما لأهل الجنة كلهم على درجات ، وملكا كبيرا لهم كلهم على درجات ، وهو من أفضل النعيم إذ يرجع الى حظوة الروح ، ولا سيما نعيم القرب والرضوان من الله ، ﴿وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ ، فالرسول هو ملك الملوك في الجنة بكل ما له من معنى عادل ، وعلى حد قوله صلّى الله عليه وآله وسلم : «أنا أوّلهم خروجا إذا خرجوا ، وأنا قائدهم إذا وفدوا ، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا ، وأنا مستشفعهم

إذا جاسوا ، وأنا مبشرهم إذا أيسوا الكرامة ، والمفاتيح بيدي ، ولواء الحمد بيدي ، وآدم ومن دونه تحت لوائي ولا فخر ، يطوف عليهم ألف خادم كأنهم بيض مكنون ، أو لؤلوء منثور» [١].

وإن النعيم العميم والملك الكبير في الجنة بعد العناء الطويل في الدنيا ، هو من شئون نزول الآية [٢] ، ومن النعيم :

﴿عالِيَهُمْ ثِيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً﴾.

﴿عالِيَهُمْ﴾ : مكان تعلوهم على أرائكهم [٣] وتعلوهم على أبدانهم : لا يتكلفون في لبسها ، وإنما تعلوهم الثياب فيلبسونها [٤] ﴿ثِيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾ : ما رقّ من الحرير لهم شعارا ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ : ما سمك منه لهم دثارا فوق الشعار ، وكلاهما خضر : ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ (١٨ : ٣١) .. ﴿مُتَقابِلِينَ﴾ (٤٤ : ٥٣) تقابلا بينهم وفي ثيابهم ونعمّا هما ، ومن خواص الحرير ـ إضافة الى ليونته ولطافته ـ أنه لا يجذب حرارة ولا برودة ، وإنما

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٠٠ ـ أخرج ابن مردويه عن أنس قال قال رسول الله (ص) :

(٢) الدر المنثور ٦ : ٣٠١ ـ أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال دخل عمر ابن الخطاب على رسول الله (ص) وهو راقد على حصير من جريد قد أثر في جنبه فبكى عمر فقال ما يبكيك؟ فقال : ذكرت كسرى وملكه وقيصر وملكه وصاحب الجشة وملكه وأنت رسول الله على حصير من جريد ، فقال (ص): «أما ترضى ان لهم الدنيا ولنا الآخرة فأنزل الله : وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا».

(٣) منصوب على الظرف ك وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ لا الحالية فان الحال لزامها التنكير ، ولا كونه مفعولا ل «رأيت» إذ يقتضى نصب ثياب كمفعول ثان ، ولا تصح قراءة الجزم إذ المدار على المتواترة الموجودة في المصاحف.

(٤) مجمع البيان : وروى عن الصادق (ع).

يساير حرارة البدن والهواء لأنه حرير : حرّ طليق عن التأثر والتأثير ، والخضر أحسن الألوان وأنضرها وأطراها.

﴿وَحُلُّوا﴾ : زينوا ﴿أَساوِرَ﴾ جمع سوار معرب : دستوار ، زينة الزند ، زيّنت بها زنادهم «من فضة» ويا لها من صفاء لبياضها ، ومن ذهب ولؤلوء : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ﴾ (٣٥ : ٣٣) أساور من أجملها : ذهبا وفضة ولؤلوء.

﴿وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً﴾ فلما ذا ﴿حُلُّوا﴾ و ﴿سَقاهُمْ﴾ كأمر مضى وهو يستقبلهم بعد الموت؟ علّه لأن تلك التحلية وذلك السقي ، هما مما حلّوا به أنفسهم يوم الدنيا بلباس التقوى ، وسقوا قلوبهم حب الله ، فمستقبلهم إنما هو ابن ماضيهم ، قد يعبّر عن سبب مضى ، وقد يؤتى بمسبّب يأتي.

وكما كان شرابهم يوم الدنيا طهورا : طاهرا في نفسه ، مطهرا لهم عن سائر الأقذار ، كذلك يتجلى يوم الدين شرابا طهورا : يطهرهم عن سائر الأقذار وإن كان خمرا ، فبين خمر الدنيا والآخرة بون الجنة والنار ، فطالما خمر الدنيا تخمر عقل الإنسان وصحته ، فخمر الآخرة تستره عما سوى الله : ﴿وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ (٤٧ : ١٥) ﴿لا فِيها غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ﴾ (٣٧ : ٤٧) ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَلا يُنْزِفُونَ﴾ (٥٦ : ١٩): لا فيها صداع الرأس ولا فراغ العقل ونزفه [(١)].

﴿إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾ : كان جزاء فضلا من الله ، لا استحقاقا عليه ، جزاء بما وعد وكتب على نفسه من فضل ورحمة ، لولاه لم يكن استحقاق ﴿وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾ يشكركم به الله : ﴿وَمَنْ

---

(١) راجع ج ٣٠ ص ٢٢٦ من هذا التفسير.

تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (٢ : ١٥٨) ونفس هذا الشكر نعمة فوق النعم فانه من جنة الرضوان ونعمته ، يشكرنا ربنا أن عملنا من الصالحات لصالحنا : ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (٢٧ : ٤٠).

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (٢٦) إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (٢٧) نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَشَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَإِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢٨) إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (٣١)

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً. فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ :

تسلية أنيسة لخاطر الرسول الأقدس صلّى الله عليه وآله وسلم الجريح من تهريجات المعارضين ، سلوانا بمثلّث التنزيل للقرآن العظيم : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا﴾ نزولا في ظلال جمعية الصفات والأسماء الحسنى الإلهية «نا ـ نحن ـ نا» فيا له من قوة وروعة في التنزيل ، ما له من مثيل بين كتابات السماء! .. لذلك فليصبر

صاحب هذه الرسالة صبرا طويلا لحكم ربه : صبرا يساير الحكم تثبيتا وتنفيذا ، وصبرا يدافع عنه إذ يصدر أمر ربه بملاحقة المعارضين.

إنها ملابسات معركة مصيرية واحدة يخوضها كل صاحب دعوة في أي عصر ومصر ، فليصبر صبرا جميلا صارما في وجه الطغاة دون انفلات عن الدعوة ولا فشل ، لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمرا ، ودون أن يطيع منهم آثما أو كفورا ، فهناك طرق لهم شتى من الإغراء والإطراء ، والتهديد والإيذاء ، ليلتقي بهم صاحب الدعوة في منتصف الطريق ويسايرهم مداهنا ، ولكنه نقص في الدعوة ونقض لها ، فلتكن صارمة صابرة دون انزلاق عنها ولا قيد شعرة ، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ :

إن العبء ثقيل ، والطريق لتحقيق أمر الله طويل ، فلا يكتفى فيه بزاد قليل ، بل ذكرا لله تعالى بكرة وأصيلا ، والسجود والتسبيح ليلا طويلا ، اتصالا دائبا بالمصدر الذي نزل عليك القول الثقيل ، لتخف عليك أتعاب الدعوة ومشاغبها وعراقيلها.

والبكرة هي الصبح ، والذكر الواجب فيها هي صلاة الصبح ، والأصيل من الأصل هي قاعدة النهار وأصله في الطرف الأخير ، والواجب فيه صلاة العصر ، والسجدة المأمور بها ليلا هي فريضة الليل : العشاءان أم إحداهما ، والآية على أية حال لا تشمل الفرائض الخمس كلها ، كآية هود : ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ (١١ : ١١٤) مما يدل على مكيتهما ونزولهما قبل فرض الخمس ، وقد نوافيكم بالبحث الفصل حولها في طيات آياتها.

﴿إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾ :

إن الأثمة والكفرة يحبون الحياة العاجلة ، حبّا لا يبقي لهم ولا يذر

مجالا أن يعملوا للآجلة ، ليوم ثقيل بأوزارهم التي قدموها ، فبدل أن يجعلوا هذا اليوم الأمام إمامهم : يذكرونه ويعملون له ، إنهم يذرونه وراءهم ظهريا كأنه لا يأتيهم ، وإنما العاجلة أمامهم وإمامهم ، يبصرون إليه فيعميهم ، ولا يبصرون به ليبصّرهم : ﴿يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ﴾ (٣٠ : ٧) غرقى في عاجلة الدنيا الخفيفة التي تمضي على أية حال ، وغافلين عن الآجلة الثقيلة البعيدة المدى : ثقيلة بخلودها ، ثقيلة بنتائجها ، ثقيلة بحسابها ، فيا لهم من غفوة وغفلة شملتهم وأعمتهم وجنّتهم ، حياتا صبيانية زهيدة حمقاء!

﴿نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَشَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَإِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ :

لفتة تذكر هؤلاء الغافلين المعتزين بقوتهم ، المعتزمين التغافل طول حياتهم ، تذكّرهم بمبتدئهم ومنتهاهم : فقد صدروا بخلقهم وشدة أسرهم ـ : ربطهم الموثق ، ـ صدروا من الخلاق الحكيم ، أسرا وربطا موثقا بين الروح والجسم ، وبين أجزاء كلّ منهما ، وبينهما وبين العالم الخارجي ، وبينهما وبين الله تعالى بما فطر الإنسان على معرفته ، وسوف يبقى أسر الروح بجسمها إذ يتلاقيان يوم المعاد ، فويل هذا الإنسان إذ يجعل نفسه في أسر الشهوات ، ويفك أسره ووثاقه عن ربه!.

بدأوا من الله وليسوا بمعجزيه ، وإذا شاء بدّلهم أمثالهم [١] : أمثالهم في المادة والصورة ، كأن يفنيهم ويأتي بخلق جديد : ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ (١٤ : ١٩) ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ. عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (٧٠ : ٤٠ ـ ٤٣).

---

(١). بدّل يقتضى مفعولين ، ذكر ثانيهما «أمثالهم» وحذف الأول «هم». بدلناهم أمثالهم.

أو أمثالهم في الصورة ، والمادة نفس المادة ، كما في قيامة الإحياء ، فإن الأجساد لا تعاد بصورها الأوّلية وإنما بأمثالها في الصورة وأصولها في المادة ، فالأجساد المعادة يوم المعاد هي هي بموادها وهي غيرها بصورها ، طالما هي أمثالها : ﴿نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ. عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ﴾ (٥٦ : ٦٣) ﴿أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٥٠ : ١٥).

﴿وَإِذا شِئْنا بَدَّلْنا﴾ هم ﴿أَمْثالَهُمْ﴾ في العاجلة بخلق جديد بدلهم ، وفي الآجلة بخلقهم مرة أخرى لتجزى كل نفس بما تسعى ﴿بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ : الى من هم أحسن منهم ، أو أبدان أخلص وأخلد من أبدانهم كما في القيامة ، وهذا الثاني مقصود من الآية قطعا لمكان «إذا» الدالة على تحقق مدخولها لا محالة ، طالما تشمل الأول ضمنيا.

﴿إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ :

التذكرة حاصلة بالفعل ، برحمة الله وحكمته ، تذكرة بالغة كافية ، ولكنما التذكر بها منوط بمشية الإنسان ، فمن شاءه اتخذ الى ربه سبيلا كما يسعى : ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾ فالسبل الى الله كثيرة ، كلّ يسلك سبيلا قدر سعيه ، متذكرا بالتذكرة قدر وعيه ، ولكنما المشية منّا غير كافية للوصول ، فهي بحاجة الى مشيئة الله ، أن يشاء ما يشاءه العبد من خير فيوفقه له :

﴿وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ :

هذا شرط الله لنا دائبا ، أن لانشاء الاهتداء إلا أن يشاءه الله لنا بعدها ، يشفع مشيئته بمشيئتنا نصرا من عنده ، وتوفيقا لنا لدحر ما لا نقدر عليه

من عراقيل السير ، فلولا توفيقه لم نقدر على ما نشاء. ف ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ : في أن نعبدك لا سواك.

﴿إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً﴾ بقصورنا ﴿حَكِيماً﴾ في مشيئته ، فلولا حكمته لم يشأ ما نشاء ووكلنا الى أنفسنا ، ولو لا حكمته لشاء هدانا شئنا أم أبينا فأصبحنا على سواء [1].

ولنا أن نعاكس المشيئتين : ان مشيئته المخاطبين هنا من مشيئة الله ، لا يشاءون إلا ما يشاء الله ، فإنهم المعصومون المطهرون ، مهابط وحي الله ، وأمناء الله في مشيئته وان فعل أمناءه فعله [2] ، فقد جعل قلوب الأئمة موردا لإرادته وإذا شاء شيئا شاؤه [3] والآية تتحملهما معا ، وهما متداخلان في المعصومين ، فهم لا يشاءون أمرا إلا أن يشاءه الله ويحققه ، وليست لهم مشية إلا ما يرضاه الله ، وأما غيرهم فليس لهم إلا المعنى الأول ، وشاهدا على أن الآية تعنيه فيما تعنيه :

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ :

فإنه لا يدخل في رحمته إلا من يشاء الدخول في رحمته فيوفقه لها ، فمشيئته للهداية هنا منوطة بمشيئة العباد ، وأما الظالمون ، الذين لا يشاءون رحمته ،

---

(١). راجع ص ١٨٠ ج ٣٠ على ضوء الآية «وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ».

(٢) الاحتجاج للطبرسي حديث طويل يقول فيه (ع) .. وفعل ملك الموت فعل الله ، لأنه يتوفى الأنفس على يد من يشاء ، ويعطي ويمنع ويثيب ويعاقب على يد من يشاء وان فعل امنائه فعله كما قال : ﴿وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾.

(٣) تفسير البرهان ٤ : ٤١٦ عن الكافي عن أبي الحسن الثالث قال : .. ثم قال : وهو قوله : وما تشاءون إلا أن يشاء الله.

فهو كذلك لا يشاء لهم الرحمة ، وإنما ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ ختاما في السورة كالمطلع تصويرا لنهاية الابتلاء ، إذ خلق من نطفة أمشاج للابتلاء فجعل سميعا بصيرا ، وهدي السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾.

هذا ، وكما يعني أيضا من يشاءه الله وهو ـ لا ريب ـ من شاء رحمة الله وسعى لها حتى شاء الله إدخاله فيها ، فالمشيئة إذا مزدوجة ، بادئة من المرحومين إذ يعدّون لها عدتها بإذن الله ، ومنتهية الى الله إذ يدخلهم في رحمته ، مشيئتين من الله ، وواحدة من العبد.

سورة المرسلات ـ مكية ـ وآياتها خمسون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً (١) فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً (٢) وَالنَّاشِراتِ نَشْراً (٣) فَالْفارِقاتِ فَرْقاً
(٤) فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً (٥) عُذْراً أَوْ نُذْراً (٦) إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ
(٨) وَإِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ
أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥)
أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩)﴾

* * *

﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً﴾ : قسما بالطاقات المرسلات من رب العالمين : مادية

وروحية ، ملائكية وبشرية وسواهما كرياح الرحمة [١] ، آفاقية كهذه أو أنفسية كالفطر والعقول ، والعرف هو المتتابع كعرف الفرس ، والمرسلات الإلهية متتابعة كالآيات القرآنية النازلة تترى ، والعرف هو المعروف من الإحسان : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ (٧ : ١٩٩) وهذه المرسلات هي عرف بذواتها ، عرف بطاقاتها ، عرف في إرسالها ، عرف في رسالاتها وغاياتها ، أرسلت حا لكونها عرفا ، وأرسلها الله عرفا ، ولغاية هي العرف : المعروف من الإحسان ، رغم ما يبدّله الإنسان ويواجهه بغير احسان [٢].

فملائكة الوحي والحياة والموت والتدبير ، من المرسلات عرفا ، كما النبيون أجمع ، مرسلات روحية في الآفاق ، وكما العقول والفطر مرسلات روحية في الأنفس : معروفا من الإحسان متتابعا.

كما وأن رياح الرحمة وأمطارها وأشباهها مرسلات مادية ، فهذه المرسلات وتلك ترسل عرفا وتهدف عرفا وهي عرف في ذواتها وصفاتها ، وكلها تشهد شهادات عينية وعلمية وعقلية ﴿إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ﴾!

﴿فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً﴾ : توحي الفاء هنا أن العاصفات هي من المرسلات ـ وان كانت بعدها عصفا ـ فمنها عاصفات ومنها دون ذلك ، والعصف هو شدة المرور ، وهو الكسر ، وهو المكسور من العلوفة كعصف مأكول.

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٠٣ ـ أخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن جده قال قال رسول الله (ص): «الرياح ثمان اربع منها عذاب وأربع منها رحمة ، فالعذاب منها العاصف والصرصر والعقيم والقاصف ، والرحمة منها الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات ، فيرسل الله المرسلات فتثير السحاب ، ثم يرسل المبشرات فتلقح السحاب ، ثم يرسل الذاريات فتحمل السحاب فتدر كما تدر اللقحة ، ثم تمطر وهي اللواقح ، ثم يرسل لنا الناشرات فتنشر ما أراد».

(٢). وعرفا على ترتيب هذه المعاني : حال من المرسلات ، حال للمرسل ، مفعول لأجله من الإرسال.

فقسما بالمرسلات العاصفات عصفا ، عرفا أو سواه ، فمن العاصفات عرفا الملائكة النازلة بالرحمات سريعة كاسرة الموانع والعراقيل ، وغير العرف منها هي النازلة بالنوازل والصعوبات ، كما النبيون عرف للمصدقين ، وعذاب على الكافرين ، ومن الرياح عاصفات عرفا كالتي تنشر السحاب وتثيرها ، ومنها عاصفات نكرا كالصرصر والعقيم والقاصف ، إذ تقصف بمرورها الشديد وتكسر وتحسر.

﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً﴾ : والنشر هو البسط ، والإذاعة ، والريح الطيبة ، والتفريق ، والنحت ، والتعويذ ، والهبوب ، والإصابة ، والإحياء ، والنبت وإيراق الشجر : معان عدة حسب عديد المتعلقات [1].

وقسما بالطاقات الباسطات المذيعات أخبار السماء في أرجاء الكون حيث تبث رياحها الطيبة وتفرقها على أهليها ، وتنحت بأخبارها ما يقبل النحت من قلوب صافية ، وتصيب القلوب المقلوبة غير الصافية ، وتهبّ كالرياح في الأجواء ، والقلوب أوعية فخيرها أوعاها فتصيب كلّا حسب وعيه ، والتي تنشر الأجساد من الأجداث فإلى ربهم ينسلون.

﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً﴾ : فارقات من الناشرات ، لمكان الفاء ، الناشرات وحي السماء ، الفارقات بين مصدقيه ومكذبيه ، وبين الحق والباطل ، والناشرات أرزاق الخلائق ، الفارقات بينهم حسب تقديراتهم ، والناشرات أحياء ، فالفارقات بينها ، ففريق في الجنة وفريق في السعير.

﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً﴾ : إنما يوصف وحي السماء بالذكر الملقى ، بعد ما ينشر ويفرق بين الحق والباطل ، والإلقاء هنا من النبيين ، فإنهم هم رسل الخلق المذكرون لهم بوحي السماء.

---

(١). نشرا هذا مصدر ومفعول به ايضا كما في الأحياء : الناشرات أحياء.

﴿عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾ : فلإلقاء الذكر أثره ، عذرا عند الله فحجة على المنذرين ، أو نذرا لهم به ينذرون ويتأثرون [1] ، فاشتراط التأثير نذرا ـ فحسب ـ في وجوب البلاغ والأمر والنهي ، شطط من القول وهراء ، بل وعذرا أيضا ، كما هو لزام إلقاء الذكر دائبا ، وعلى من لم يتذكر ايضا ، ونذرا أحيانا : لمن يتذكر ، فالمعذرة الى الربّ في أداء البلاغ لها المكانة الأولى في المنذرين ، لا يعذرون في تركها بحال ، فالله ينجي من يأمر بالعرف وينهى عن السوء عذرا أو نذرا ، ويأخذ الظالمين بعذاب بئيس ، من فاعل للمنكر ، وتارك للنهي عنه حتى عند عدم التأثير : ﴿وَإِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً. قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ. فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ﴾ (٧ : ١٦٦) فانها تصرح بنجاة الناهين عن السوء فقط ، وبعذاب شامل تاركي النهي عن المنكر فيما لم يكن له تأثير ، إلا معذرة الى الربّ ، طالما تشدد عذاب العاتين عما نهوا عنه : ﴿كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ﴾!

وهل إن هذه المقسم بها خمس كما يشهد له عديده؟ أم اثنان لأن الأصل المعطوف عليه فيها اثنان والمرسلات ... والناشرات والثلاثة الباقيات متفرعات؟ ام واحد لوحدة المقسم لأجله ، فلتكن متوحدة في رباطها به؟ لكلّ وجه ، وهي متداخلات في صفاتها وغاياتها ، وهي كلها دالات ﴿إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ﴾. فمرسلات العقول والفطر والفكر ، ومعها مرسلات الرسالات الملائكية والبشرية ، ومعها مرسلات الرياح وصلا وفصلا ، وسائر المرسلات الفاصلة والواصلة ، تدل دلالات عقلية وواقعية وحسية لإمكانية وضرورة وقوع الوعد الحق ، وخسر هنالك المبطلون.

---

(١). قد يكون عذرا أو نذرا ، جمعين لعاذر ونذير ، أو مصدرين بمعنى الإعذار والإنذار ، وعلى الاول هما حالان للملقيات.

كما العاصفات من المرسلات تدل بشدة مرورها وكسرها ومكسورها أن موانع نشر الموتى سوف تذل لديها بما أراد الله.

وكذلك الأمر في الناشرات نشرا ، فالفارقات فرقا ، فالملقيات ذكرا :

﴿إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ﴾ : ﴿إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ. وَإِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ﴾ (٦ : ٥١) ﴿إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ﴾ (٧ : ٥٢) فويل للمكذبين بيوم الدين ، رغم هذه الكثرة من الأدلة والبراهين.

﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ : طمس النجوم هو محو آثارها ، وذهاب ضوءها [(١)] وأنوارها ، وإزالتها عن الجهات التي كان يستدل بها ، ويهتدى بسمتها ، كالكتاب المطموس الذي أشكلت سطوره ، واستعجمت حروفه.

يوم الطامة الكبرى تطمس النجوم منكدرة ، والكواكب منتثرة ، كلآلي منظومة ، ينخرط سلكها فتتفرّق ، فتطمس عن كيانها كواكب ونجوما وعلامات هادية ورجوما ، ذاهبة في الفضاء بددا ، كما تذهب الذرة التي تنفلت من عقالها.

﴿وَإِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ﴾ : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ﴾ (٥٠ : ٦) فالسماء غير ذات الفروج تصبح من ذوات الفروج ، ولحد كأن كلها أبواب وفروج : ﴿وَفُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً﴾ (٧٨ : ١٩) فروجا بزوال نجومها وبروجها ، فانها شغلت كثيرا من أجواءها ، وفروجا بانشقاقها وانكشاطها في كافة أرجاءها [(٢)].

---

(١). تفسير القمي عن أبي جعفر الباقر (ع): فطمسها ذهاب ضوءها.

(٢). راجع سورة الانشقاق ج ٣٠ ص ٢٣٦ والانفطار ٣٠ ـ ١٨٤ والتكوير ٣٠ ـ ١٥٤.

﴿وَإِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ﴾ : قلعت وأزيلت بمتفجرات الزلزال الدكداك ، وبالانفجارات الذرية وسواها آخذة مسيرها الى الدمار والهلاك ، تنسف فلا يبقى إلا سراب وقاع صفصف: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً. لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا (١) أَمْتاً﴾ (٢٠ : ١٠٧) (١).

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ : والتوقيت هو تقدير الوقت لوقوع الفعل ، وتأجيله لأجله ، فالرسل عند قيامة الإماتة تؤقّت ، عند الصيحة التي تصعق من في السماوات والأرض إلا من شاء الله ، وهم ممن شاء الله ، لا يصعقون عن الحياة كلّ الحياة ، مهما كانوا ميتين عن الحياة الدنيا ، فهم في البرزخ أحياء ، والى يوم يبعثون ، لا يصعقهم الفزع الأكبر ، فهم منه آمنون.

فالرسل تؤقّت تأجيلا لقيامة الإحياء ، لتحقيق الوعد الواقع الصادق وليسألوا ماذا فعلوا وماذا أجيبوا ، وسئوال المرسل إليهم ماذا أجابوا : ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ. فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَما كُنَّا غائِبِينَ﴾ (٧ : ٧) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (٥ : ١٠٩) ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٨ : ٦٥) تساؤلات وتساؤلات وليشهدوا لهم أو عليهم ، ولأنهم من أكرم الشهداء.

﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ. لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ : إن التأقيت التأجيل هو ليوم الفصل : الفصل بين المختلفين ، وبين المتصلين بالقرابات ، وفصل الحق عن الباطل ، والفصل عن الأعمال والآمال : ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً﴾ (٧٨ : ١٧) للناس عامة ، وللرسل بوجه خاص ، وتوقيت لأجل معلوم.

---

(١) راجع سورة النبأ ج ٣٠ ص ٣٩.

﴿وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ : إنك تدري ما هو ، ولكنها بما أدراك ربك فلا سبيل لها إلا وحي السماء.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ : حذار وإنذار من العزيز الجبار ، بويل كل ويل للمكذبين بيوم الدين ، وهم محضرون لمجلس القضاء يوم الفصل ، ذلك لأن تكذيبهم كان ويلا عقيديا وعمليا.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ. ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ. كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

إن ذلك الويل قد يهلكهم يوم الدنيا كما يهلكهم يوم الدين ، فإهلاك المكذبين الأوّلين ، ثم إتباعهم الآخرين ، ذلك تحذير لهؤلاء الظالمين أن ليس الويل لهم مختصا بيوم الدين ، فحذار حذار أيها المكذبون ، فإن مصارعكم تنكشف وأنتم حشود أقوياء ، وعلى مدّ البصر ترى المصارع والأشلاء لهؤلاء وهؤلاء ، وأمامها وعيد الله ناطقا بسنة الله : ﴿ذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً (٢٥) أَحْياءً وَأَمْواتاً (٢٦) وَجَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ وَأَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩)

انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ (٣٠) لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللهَبِ (٣١) إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَواكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٠)

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ﴾ : ﴿مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ﴾ (٣٢ : ٨) كما أن هذا المهين نفسه كان سلالة من طين : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (٢٣ : ١٢) .. وإنه تذكير بحالة الإنسان المسبقة الهزيلة الرذيلة ، النتنة المهينة ، أن خلقه الله منها في أحسن تقويم ، نعمة سابغة سابقة ، وحجة بالغة على ناكري الألوهية.

﴿فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ﴾ : قرار الرحم وما أمكنه من قرار الحياة الجنينية ، وقرار الأرض التي من طبعها الفرار : ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً﴾ (٤٠ : ٦٤) قرارا بكيانها وقرارا بحركاتها التي تفلتها من مداراتها لولا أن جعلها الله كفاتا أحياء وأمواتا.

﴿إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ : دون فوضى حتى في قدر القرارين : في الرحم وفي الأرض.

﴿فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ﴾ : قدرنا لا فقط قدرناه أو قدرنا عليه أو قدرنا به وإنما قدرناه وعليه وبه والكل مقصود :

قدرناه : هيّأناه للتكامل الجنيني ، أن قسمناه : الماء المهين ، فأخذنا منه سلالة هي النطفة الجرثومية ﴿مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ﴾ واستخدمنا الباقي لتكملتها ، فهذه النطفة الأمشاج تسير سيرا زهوا بطيئا في البوق ، ولا تنتهي منه الى الرحم إلا بعد ثمانية أو عشرة أيام ، تقوم خلالها بتقسيم نفسها تقسيما بعد تقسيم ، لكي تهيء كل قسم وتعدّه للدور الذي سيقوم به في تكوين الجنين الجديد ، أو حفظه وحمايته ، أو في تغذيته ، فتصل البيضة النطفة الى بيت الزوجية المهيأ لها ، فتلتصق بجداره ، وتبدء خلايا الأقسام عملها العظيم بالتعاون مع بعضها أو مع خلايا جدار الرحم ، فتجعل حول الجنين غلافا فوق غلاف فوق غلاف : ﴿فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ﴾ :

وقدرنا عليه : قوينا عليه وتمكنا أن نخلقه ما نشاء كما نشاء ، وضيقناه في مضيق الرحم حفاظا عليه من كل صدام ، وفي مضيق من الحياة الدنيا.

وقدرنا به : قسنا به سائر الخلق فجعلناه في أحسن تقويم ﴿فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ﴾ ودبرناه فصورناه : ﴿فَنِعْمَ الْقادِرُونَ﴾ فيما قدرنا «هـ» و «به» و «عليه».

وكما أن للإنسان قرارا مكينا ركينا في الأرحام ، لا تنافيه تقلّبات الأمهات في مختلف الحركات ، كذلك الله جعل له الأرض كفاتا : قرارا مكينا ، رغم حركاتها الدائبة المتداخلة ، تضم ما عليها في حضنها أحياء وأمواتا :

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً. أَحْياءً وَأَمْواتاً ، وَجَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ وَأَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً﴾ :

هذا الاستفهام التقريري في مقام تعداد النعم السابقة يوحي بأن كفات الأرض نعمة غالية فيها ، تشابه قرار الرحم المكين ، لولاه لم تمكن أو لم تسع للإنسان حياة ، كما أن لقرار الرحم دوره الهامّ في بداية المطاف ، وهذه هي الحقيقة التي تساعدها اللغة والواقع ، مهما تغافلت عنها قرون خلت ، فتخيلت أن الأرض جامدة على قرني الثور أو ظهر الحوت[١]!

الأرض الكفات :

إن آية الكفات هذه تظهر الأرض بمظهر الطير المسرعة في طيرانها ، المتقبضة جناحيها ، حيث الكفات هي الإسراع في العدو والطيران مع تقبض فيه [٢].

---

(١) انها ليست على ظهر الحوت أو على قرني الثور ، وإنما هي كسائر الكواكب تسبح في جو السماء ، وحديث الثور مقطوع في أوله ، يعني غير ما عنوه ، فقد سأل احد الزارعين الامام الصادق (ع) ان لي ثورين أزرع بهما الأرض ، وانا كبير أريد ان أبيعهما فأعيش في عزلة العبادة بثمنهما؟ قال (ع): «لا تفعل فان الأرض على قرني الثور» يعني زراعة الأرض في تلك الزمن ، كما في زمننا على قرني التراكتور.

(٢) كما في لسان العرب وتاج العروس وغريب القرآن وأمثالها ، ففي التاج عن الزهري : «كفت الطائر وغيره يكفت كفتا وكفاتا ككتاب وكفيتا كأمير وكفتاتا» : اسرع .

وأوفق الوجوه في «كفاتا» أدبيا ومعنويا : أنها مصدر ، مفعولا ثانيا ل «نجعل» فقد كانت أرضا ولم تكن كفاتا ، لا أموات فيها ولا أحياء ، فلا تقبّض لها لا للأحياء ولا للأموات ، إذ كانت مجنونة الحراك محترقة ، لا تحنّ لعائش : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً﴾ (٦٧ : ١٥)[1] فذلت بعد شماس ، واعتدلت بعد ارتكاس.

كذلك الله جعلها كفاتا : سريعة الطيران في جو السماء ، شديدة التقبض حالته : أحياء وأمواتا ، طائرة متقبضة كأنها الطيران نفسه ، والتقبض نفسه ، كما يوحي به المصدر «كفاتا» نفسه.

وما أهمهما من أصلين أصيلين في كيان الأرض ، طالما غفل عنهما ساكنوها عبر قرون خلت قبل القرآن ، وقرون بعده ، بين مستند الى الحسّ ، فمؤوّل لآيات حركات الأرض ، وساكت عنها شاكّ فيها حتى فسرها العلم ، فليس العلماء بعد القرآن هم الكاشفين عن حركاتها ، ولا ان (كبرنيك ونيوتون) هما اللذان أبديا نظرية القوة الجاذبية ، رغم ما يزعمه الزاعمون [2]. وإن للقرآن آيات متشابهات تفسرها الزمن.

ـ في الطيران ، والكفتان من العدو والطيران كالحيوان في شده ، ويقال : كفت الطائر إذا طار وتقبض فيه ، والكفت في عدو ذي الحافر سرعة قبض اليد.

وفيه عن الصحاح : الكفت السوق الشديد ، ورجل كفت وكفيت سريع دقيق ، وفرس كفيت وقنيص وعدو كفيت أي : سريع ، وكذلك في اللسان وغيره.

(١) راجع سورة الملك الجزء ٢٩ في تفسير آية الذلول.

(٢) مضت قرون والبشر تزعم الأرض جامدة على قرني الثور أو الحوت أم ماذا؟ وأول من تجرء على خلاف هذا المحسوس! (فيثاغورث الحكيم ٥ ق م) ثم تبعه (فلوترجوس وأرشميدس) ثم أيدها بعد قرنين (ارسترجوس) وأبدى نظرية حركة الأرض حول الشمس ، ولذلك كفروه ، وبعد نصف قرن أوضح (كليانتوس) ان الأرض محكومة بحركتين .

فأرضنا هذه محكومة بحركات عدة أنهاها العلماء الى أربعة عشر (١) ، وكما توحي بها : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾(٢) : حركات متداخلة يعبر عنها بالرّجفة ، وقانون الفرار عن المركز يقتضي فرار ما عليها متناثرة الى أعماق الأجواء ، وكذلك تفسّخ الأرض نفسها ، ولكنها كفات تتقبض الأحياء والأموات ، بقانون مكافح قانون الفرار ، تبديلا له بالقرار : ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ

ـ الوضعية والانتقالية ، فألحقوه بزملائه الكفرة ، وبعد قليل قام (بطلميوس) ضد هذه البدعة! ولذلك سمي بعلامة القرون ومحيي العلوم.

إن الهيئة البطلميوسية أخذت من الشهرة والاعتماد مبلغا وافقها جماعة من المسلمين كأنها وحي السماء ، فأولوا آيات وروايات تدل على حركات الأرض ، كأن كتاب بطلميوس هو كتاب الوحي الأصيل ، يحق تأويل القرآن لأجل الحفاظ عليه! طالما النبهاء منهم كانوا بين مخالف أو ساكت.

ثم بعد الألف من الهجرة أخذ (غاليلة) يبحث بصراحة عن حركتي الأرض ، ولذلك سجن وأحرقت كتبه في المجتمع الأوروبي ، ولقد كان القرآن أصدق شاهد على هذه النظرية المسجونة المهانة.

ان القوة الجاذبية التي توحي بها آيات بينات ، ليست هي القوة المغناطيسية ، إنما هي قوة مرموزة تستفيد منها كافة الجاذبات في الكون ، ولو ان أرضنا ما كانت كفاتا أحياء وأمواتا ، فلم تملك القوة الجاذبية ، لم يكن لها قرار عليها ، ولا امكانية التنفس فيها ، فمن فضل هذه القوة ترى الكواكب السيارة تسير حول مداراتها الخاصة دون انفلات عنها كأنها تسير على جادة حديدية ثابتة.

هذه القوة توجد في أبعد الكواكب والمجرات التي تسير في مسايرها كل ثانية مآت الأميال ، الأرض تسير حول فلكها كل ساعة مائة الف كيلومترا ، ولا يستطيع أي إنسان مواجهة الرياح بهكذا سرعة ، ورغم ذلك يعيش على هذه السفينة الفضائية في كمال الطمأنينة والارتياح ، وحسه ينكر حراكها.

(١) كما عن (فلا ماريون) و (فيلكس) قبله كان يقول بإحدى عشر حركة ، وبالإمكان ان تستكشف حركات لها أخرى في المستقبل.

(٢) راجع ج ٣٠ ص ٧١ حول آية الراجفة.

لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً﴾ (٤٠ : ٦٤) ، وهو الجاذبية العمومية التي اعتبرت كجناحين لهذه الطائرة العجيبة : «كفاتا. أحياء وأمواتا» : تقبض على ظهرها ما عليها ، بهذه الأجنحة غير المرئية : «الجاذبية» وكما أن السماء بكواكبها مرفوعة بها : ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾ (١٣ : ٢) فثم عمد ولكن لا تروها [١] وهي أو منها : الجاذبية العمومية التي تقبض بها الأرض الكفات الأحياء والأموات.

كما وان الرواسي الشامخات عدّلت حركاتها ومنعتها عن التهافت والانفراج : «وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها .. فسكنت من الميدان برسوب الجبال في قطع أديمها» «فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسيخ بحملها أو تزول عن مواضعها» [٢].

ولقد تجاوب آية الكفات آيات أخرى بيّنات في حركات الأرض ، تتجلى لكم في طيات الكتاب ، كآية المهد والمهاد والقرار والذلول ويسبحون [٣] فانها تتجاوب في أن كرتنا الأرضية طائرة قوية ، وسفينة جوية ، تسبح في البحر المحيط كبحّارة دائبة الحراك والميدان ، مهدا لأطفالها ، ومهادا للحياة عليها ، وذلولا لركّابها دون شماس وشراس وانطماس ، وإنما حنونة

---

(١) كما عن الامام بن محمد علي الباقر (ع).

(٢) نهج البلاغة عن أمير المؤمنين علي (ع) وعن الامام الصادق (ع) «ان حركات الأرض وسكناها من جملة أدلة حدوث العالم» (الاحتجاج للطبرسي).

(٣) وهي على الترتيب «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً» (٢٠ : ٥٣) «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً وَالْجِبالَ أَوْتاداً»(٧٨ : ٧) «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً»(٦٧ : ١٥) «وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ .. وَالشَّمْسُ تَجْرِي .. وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ .. وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» (٣٦ : ٣٣ ـ ٤٠).

رءوفة لا يحس أولادها بحركاتها السريعة لحد نكرانها ، فيا لها من أمان رغم الميدان!

﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً﴾ : علّ الأحياء هنا تشمل أصول الحياة كالأوكسيجين ، فكرة الفضاء المحيطة بسفينتنا الأرضية ، تشعّ عنها قرابة مائة كيلومترا ، وهي مركبة من أوكسيجين وأزوت وأرجون ، وكافة نباتات الأرض وحيوانها وإنسانها بحاجة حيوية الى هذه الكرة التي تعتبر حياتا للأرض وما عليها.

ففي حالة نقصان الأوكسيجين أو فقدانها لا واقع للحياة على وجه الأرض ، فإنها مادة ضرورية للتنفس أولا ، ولتركيب الماء منها ثانيا وقد جعل منه كل شيء حيّ ، فالأوكسيجين بأصلها وتراكيبها هي أصل الحياة ، لا للنبات والحيوان والإنسان فحسب ، بل لمثل النار كذلك فانها تخمد لو لم تستمد بأوكسيجين الفضاء.

فلو لم تكن الأرض كفاتا ، تتقبض بالجاذبية كرة الأوكسيجين ، لتكافح قانون الفرار عن المركز وخفة الأوكسيجين ، في فرارها وانهيارها عن الكرة الأرضية ، لماتت الأرض وما عليها!

ومن جهة أخرى : إن كرة الفضاء الحائلة حول الأرض التي قطرها ثمانمائة كيلومترا ، إنها تعتبر مدرّعة مجنزره تحافظ على الأرض من عشرين مليونا من الأحجار السماوية التي تقصدها بسرعة ٥٠ كيلومترا في كل ثانية ـ يوميا ، فلو لم تكن الأرض كفاتا لا نصدمت بهذه النيازك النارية والقاذفات الجوية ، فتدكدكت.

إن هذا الجو المدرع ـ إضافة الى هذه المكافحة الخارجية ـ يعدّل درجة الحرارة على سطح الأرض ، وينقل الذخائر اللازمة من الماء وبخاره ، من

البحار الى البراري والقفار ، فلو لم تكن الأرض كفاتا لأصبحت للقارات كلها قاحلة يابسة.

ثم بقية الأحياء من حيوان وإنسان ، تعيش على طمأنينة تامة ، وتمشي على مناكبها ، فلولا جاذبية الأرض الكفات ، لانفلتت الى اعماق الأجواء ، ولولا كفات الحركات المنتظمة المعدّلة لاستحالت عليها الحياة في الحركات الراجفة ، ولكنها كفات ويا لها من بركات!

ومن ثمّ الأموات التي لا مسكة لها في قرارها على وجه الأرض ، فلولا كفات الأرض لا لانفلتت الى غيرها ، فيا لها من كفات كافية للحفاظ على الأحياء والأموات!

ومن أهم ما يحافظ على طمأنينة الأرض وما عليها ، لحدّ لا تحسّ حركاتها ، أنها تتحرك مع كرة الفضاء المحيطة بها فلا يحسّ حراكها ، كمن يقفز في طائرة ، فإنه يرجع الى مكانه الأول لأن الطائرة تطير بفضائها ، خلاف ما إذا لم تكن مسقفة ، إذ لا تطير بفضائها ، كذلك الأرض تطير بكرة الفضاء ، المدرّعة حولها ، فلذلك لا تبدو حركاتها لركابها.

هذا هو المعنى الشامل لكفات الأحياء والأموات ، وقد يشمل قبور الأموات وبيوت الأحياء دون اختصاص بهما ، فإنهما ليسا من ضمنيات جعل الأرض ، وإنما من فعل المخلوقين ، والآية في مقام الامتنان بما خلق الله ، لا بما فعل الناس [1].

---

(١) القمي : نظر أمير المؤمنين (ع) في رجوعه من صفين الى المقابر فقال : هذه كفات الأموات أي مساكنهم ، ثم نظر الى بيوت الكوفة فقال : هذه كفات الأحياء ثم تلا قوله : «﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً ، أَحْياءً وَأَمْواتاً﴾». وفي معاني الأخبار للصدوق مثله عن أبي عبد الله الصادق». (نور الثقلين ٥ : ٤٨٩) أقول وهذا من باب الجري والتطبيق لا التفسير ، وإنما بيانا كما كان يفهمه الناس في تلك الزمن ، ولقد فسر العلم كفات الأرض كما تصدقه اللغة ايضا.

فيا لكفات الأرض من بركات في جاذبيتها وحركاتها ، للأحياء وللأموات! ويا لرواسيها الشامخات ومياهها الفرات من خيرات ، لولاها لم تكن لأهلها حياة ، سبحان الخلاق العظيم!

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. انطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ. انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ. لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللهَبِ. إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ. كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ :

﴿انْطَلِقُوا﴾ : تخلّوا وتحلّلوا من وثاق التكذيب وأسره ، الى حرية التصديق : بما كنتم به تكذبون ، في تأنيب مرير وإيلام عسير ، ﴿انْطَلِقُوا﴾ : متجللين عن رهانة ثالوث التكذيب : بالله ورسوله واليوم الآخر ، بثالوث ترك التصديق والإقرار والعمل الى ثالوث العذاب : ﴿ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ﴾ : سرادقات ثلاث تحيط بكم : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها﴾ (١٨ : ٢٩) ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ (٣٩ : ١٦) انطلقوا الى ظلّ ﴿لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللهَبِ﴾ رغم أن من فوائد الظل أنه ظليل عن وهج النور والنار ، وأنه يغني من لهب النار ، ولكنه ظل حار لافح خانق ، أشد حرورا من النار : ﴿وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾ (٥٦ : ٤٣) يزيد أهلها تغلغلا في زبانيتها وشررها القصر ، وإنه ظلّ نارها بدخانها دون نور ، ﴿إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ : كما أنهم طول حياتهم الشريرة النكدة كانوا يرمون بشرر من قصورهم ، كذلك ثالوث ظلهم في النار ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ. كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ﴾ : جمالة صفر ترتع هنا وهناك ، وتحرق القصر بأصحابه ..

﴿هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ. وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ :

﴿لا يَنْطِقُونَ﴾ : لا هم ﴿وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾

(٣ : ٧٧) أجل ـ وفيم ينطقون؟ ، فهل في تخليص أنفسهم عن رهانة العذاب بعد ثبوته عدلا؟ ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ﴾ (٢٧ : ٨٥) فهم في البداية محكومون دون حاجة الى استئناف وتمييز ، إذ لا يخفى على الحاكم هناك أمر عن إضبارات المحكوم عليهم ، ولا هو جائر فيميل عن العدل فيهم.

أم ينطقون بالاعتذار وقد مضى حينه وحان حين الجزاء الوفاق وإنما الاعتذار لمن كان له عذر والله أجل وأعدل وأعظم من أن يكون لعبده عذر ولا يدعه يعتذر به ، ولكنه فلج فلم يكن له عذر [1] : ﴿لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٦٦ : ٧) ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ﴾ (٩ : ٦٦). فلا كلام هناك إلا بإذن الرحمن إذا كان صوابا : ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً﴾ (٧٨ : ٣٨) فالكلام المأذون مقيد بالصواب ، كما الصواب ايضا مقيد بالإذن ، فهل يتأتى صواب من أهل النار حتى يؤتوا إذنا في الكلام؟! كلّا! وإن الهول هناك يكمن في الصمت الرهيب ، والكبت الرعيب ، الذي لا يتخلله كلام ، ولا يقطعه اعتذار ، فلا يؤذن لهم حتى في الاعتذار ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ إذ حجبوا عن رحمة الله وعن خطابه ، بعدا في بعد ، ظلمات بعضها فوق بعض!

وإنما لا ينطقون بما ينفعهم ، وقد ينطقون بما يضرهم ويخجلهم : ﴿يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ﴾ (٤٣ : ٧٧) ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (٣٢ : ١٢) ﴿رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ. قالَ اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ (٢٣ : ١٠٨).

﴿هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَالْأَوَّلِينَ. فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ :

---

(١) روضة الكافي عن الامام الصادق (ع) في تفسير الآية قال : ...

﴿هذا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ : فصل القضاء ، فلا رجوع بالاعتذار ، وفصل الحق عن الباطل فلا اعتراض ﴿جَمَعْناكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ ف ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٤ : ٤٠) ﴿فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ حيلة للفرار أو الاستعفاء والاعتذار ﴿فَكِيدُونِ﴾ كلّا! وإنما هو الصمت الكظيم ، في ذلك اليوم العظيم على العذاب الأليم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ. وَفَواكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ. كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ :

إنهم ﴿فِي ظِلالٍ﴾ : ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلاً﴾ (٤ : ٥٧) ظلال ظليلة تعاكس ظلال المكذبين ، ظلال عن نور الشمس بما تجنهم من أشجار ، كذلك وهم في ظلال السابقين والمقربين.

﴿وَعُيُونٍ﴾ تحت هذه الظلال ، بكل جلال ودلال ﴿وَفَواكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ وهذه النعم الناعمة للمتقين ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ويل على ويلهم!

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ :

ويلهم إذ لا يتمتعون إلا قليلا ، وكلّ فان قليل ، ولا سيما الذي يعقّب العذاب الوبيل ، وهذه القلة المنقطعة بانقطاع الحياة الدنيا ، ليست إلا ﴿إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ : قطعتم ثمرة الحياة واجتثثتم أصولها بالمغريات.

فأنتم أجرمتم الأكل والمتعة : قطعا لهما عن الخلود ، وحصرا في الأولى الفانية القليلة : ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٩ : ٣٨).

فويلهم في هذه المتعة القليلة ، إذ جنّدوا لها طاقاتهم الكثيرة وخسروها بها ، وويلهم بعدها : أكل ومتعة قليلة يتوسطان ويلين : فكلوا وتمتعوا قليلا في الأولى ، لتحرموا وتعذبوا طويلا في الأخرى : ﴿مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ (٣ : ١٩٧) ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ﴾ (٣٩ : ٨).

﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾:

هؤلاء الذين يركعون ويسجدون للشهوات الطائشة ، والمحرمات الفاحشة ، ﴿إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا﴾ والقائل هو الرب المنعم ، والركوع هو الخضوع لمن يربّيهم ، شكرا لبعض النعم ، وتركا للفرعنة والاستبداد ، دون أن ينتفع به المنعم .. مع كل ذلك ﴿لا يَرْكَعُونَ﴾ وإنما يمرحون في غفلة ، ويلتهون في شهوة وغفوة كأن لا ربّ ولا حساب ﴿وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ﴾ : يأمرهم الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم عن الله بالصلاة فيقولون : لا ننحني ، فإن ذلك سبّة علينا ، فيقول صلّى الله عليه وآله وسلم : لا خير في دين ليس فيه ركوع وسجود (١).

لا يحنون ظهورهم لله مخافة المسبّة ، ويحنونها لمن يستحمرهم في اللهو ولا مسبّة!

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ : ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٤٥ : ٦) ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً﴾ (٤ : ٨٤)؟ فهل في الكون حديث أثبت من الله ، وأضبط من كلام الله؟ فأنى يؤفكون؟

ومن لا يؤمن بهذا الحديث الذي يهز الرواسي ويصدّعها من خشية الله ، فبماذا يؤمن؟ : ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ (٥٩ : ٢١) فما لهذه القلوب المقلوبة الصلدة الصلبة ، وهذه الضمائر اليابسة البائسة ، ما لها لا تتقلب بما يقلّب الجبال الرواسي!؟.

تمّ بحمد الله ـ مكة المكرمة : محمد الصادقي

---

(١) المجمع عن مقاتل نزلت في ثقيف حين أمرهم الرسول بالصلاة ...

فهرست

سورة الملك كلام في القدرة. السبع الطباق. وجوم الشياطين في السماء الدنيا.......٣ ـ ٢٤
نذر لكل القرى. حركات للأرض. هل الله في السماء........................ ٢٥ ـ ٤٣
سورة الحاقة كيف حملنا في الجارية قبل خلقنا؟ بشارة محمدية على سفينة نوح..... ٨٨ ـ ٩٤
العش بأقسامه وحملته. كتاب اليمين والشمال. تجارب بين القرآن والتورات ......٩٥ ـ ١١١
سورة المعارج اليون الخمسين الف سنة. وحدات الزمان مصلح الإنسان. خلق الأمثال في المعاء..١١٣ ـ ١٤٢
سورة نوح الشريعة الاولى. رؤية السماوات الطباق. حياة برزخية. لم يلدوا إلا فاجراً١٤٥ ـ ١٦٦
سورة الجن رسل الجن. جدّ ربنا. النيازك النارية من مدفعيات سماوية ....١٦٩ ـ ١٨٤
المساجد لله. درجات علم الغيب ونصيب قبتل التبتيل آية نورانية محمدية......٢٠٧ ـ ٢٢٣
سورة المدثر دثر ثلاث. سحر يؤثر؟ التسعة عشر على سقر ....٢٣٠ ـ ٢٥٦
سورة القيامة النفس اللوامة. جمع العظام. تسوية البنان؟ بصيرة الإنسان؟ الاستعجال في وحي القرآن. الله جامع القرآن النظر الى الرب........................٢٧٠ ـ ٢٨٨
سورة الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً. امشاج ستة. الاربعة الطاهرة : علي. فاطمة ـ الحسنان. تبديل الأمثال. صلة المشيئة الإلهية بالانسان.........................٣٠٥ ـ ٣٣٠
سورة المرسلات المرسلات وما يليها. عذرا أو نذرا. قرار مكين. الأرض الكفارات طائرة مسرعة. الجاذبية العامة من كفات الارض..............................٣٣١ ـ ٣٥٢